المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة طيبة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

بلاغة النظم القرآني في الحديث عن نساء القصور الملكية

" دراسة تحليلية "

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير في البلاغة والنقد

إعداد الطالبة

إبتسام بنت مُحَمَّد بن قاسم مفرح

إشراف الدكتورة

بلقيس بنت مُحَمَّد الطيب إدريس

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة طيبة

١٤٣٧هـ/٢٠١٥م

إهداء

إلى من تعهداني منذ الصغر فكانا نبراسًا يضيء فكري في الكبر.

إلى من علماني معنى الصبر والكفاح .

إلى من شجعاني للسير في طريق العلم .

إلى من غمراني بحبهما وعطائهما الدائم.

إلى من رحلت قبل أن تجني ثمار غرسها... (أمي).

إلى من أنهكته الحياة ومازال يحفزني للتقدم ويأخذ بيدي (أبي).

إليكما أقدم ثمرة جهدٍ أنتما مصدره.

رحمك الله يا أمي وأسكنك فسيح جناته.

وحفظك الله يا أبي تاجًا فوق رأسي يضيء طريقي .

ابنتكما :

إبتسام بنت مُحَّد قاسم مفرح

شكر وتقدير

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والشكر للمتفضِّل بالنعم وعظيم الجزاء، القائل في محكم كتابه:﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [1]، والصلاة والسلام على معلِّم البشرية القائل:(لا يشكر الله من لا يشكر الناس) [2] .

فمن هذا المنطلق وعرفانًا بالجميل أتقدم ببالغ الامتنان وجزيل العرفان إلى كل من أمدَّني بالعلم والمعرفة، وقدم لي يد العون، ومهَّد لي الطريق لإنجاز هذا البحث فللجميع شكري وتقديري .

وأخص بالشكر أبي الغالي وزوجي العزيز وعائلتي الحبيبة التي لم تألُ جهدًا في رفع همتي وحضِّي على طلب العلم، ولا أنسى الدعاء لمن كان لها الفضل الأكبر في كل ما وصلت إليه (والدتي الغالية) رحمك الله وأسكنك فسيح جناته.

كما أتوجه بالشكر لمشرفتي الفاضلة الدكتورة بلقيس بنت مُحَمَّد الطيب إدريس التي قوَّمت وتابعت وصوَّبت هذا البحث بحسن إرشادها؛إذ لم أجد فيها إلا حبَّ المعلم وإخلاص الموجِّه .

كما أتقدم بجزيل الشكر-سلفًا- إلى الأستاذين الكريمين عضوي لجنة المناقشة الأستاذ الدكتور أحمد بن مُحَمَّد سعيد، أستاذ البلاغة والنقد بالقسم، والدكتور بدر بن عبد العال حسين، الأستاذ المشارك في البلاغة والنقد بالقسم؛ لتفضُّلهما بالموافقة على مناقشة هذه الرسالة، ولما سيبذلانه من جهد مبارك في قراءتِها وتقويمها، وأعدهما بأن ملاحظتِهما القيِّمة ستجد مكانَها في هذا العمل، وستكون سبباً في الوصول به إلى مستوى أفضل.

---

[1] إبراهيم : ٧.

[2] حديث صحيح : رواه البخاري في الأدب المفرد : ٩٩/١ باب من لم يشكر للناس حديث رقم : (٢١٨/١٦٠)، وروى الترمذي في سننه : عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله» حديث رقم (١٩٥٤) : ٣٣٩/٤.

كما أحمل كل الشكر والعرفان للصرح الشامخ المتمثل في جامعة طيبة لمنحها لي هذه الفرصة لمتابعة الدراسة، وأخص بالذكر القائمين عليها في كلٍ من: كلية الآداب والعلوم الإنسانية (قسم اللغة العربية وآدابها)، وقسم الدراسات العليا .

كما أتوجه بالشكر لكل من ساندني بدعوة صادقة بظهر الغيب، وأسأل الله العظيم أن يجعل ما كتبته في ميزان حسناتي وحسناتهم .

ملخص الرسالة

عنوان الرسالة :

بلاغة النظم القرآني في الحديث عن نساء القصور الملكية " دراسة تحليلية"

دراسة مقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة والنقد بقسم الدراسات العليا بكلية اللغة العربية بجامعة طيبة، من إعداد الطالبة: إبتسام بنت مُحَمَّد قاسم مفرح، تتناول الدراسة بلاغة النظم القرآني بالتطبيق على الآيات الواردة في نساء القصور الملكية، للكشف عن الأساليب المتنوعة في التعبير عن أولئك النسوة ، وللوقوف على صور تشكيل البنية اللغوية، ودقة اختيار المفردة في هذا النظم المعجز؛ لينكشف بذلك وجه من وجوه الإعجاز البلاغي في القصة القرآنية، فالنسوة في أروقة القصور ما هن إلا نموذجًا للمرأة في كل زمان ومكان، فتماثل المكانة الاجتماعية لأولئك النسوة لم يلزم معه التشابه في الطبيعة، فكل واحدة منهن صوَّرت جانبًا من طبيعة المرأة، وقد ظهرت هذه البلاغة القرآنية من خلال استعمال الألفاظ الثرية بالمعاني والدلالات الصوتية والصرفية والمعجمية، كما ظهرت من خلال تضافر الأساليب المتنوعة في القصة الواحدة .

ولقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج السياقي الذي برز جليًا في تلك القصص وخاصة اللغوي والمقاصدي والتاريخي منها، فمن البلاغة القرآنية تجسيدها للماضي واستحضارها له في الذهن، فكأن السامع حاضر مُشاهد لها، فيكون ذلك أقوى في ترسيخ الأهداف التربوية التي سيقت من أجلها القصة .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله منزل الكتاب هدى ورحمة للعالمين، أحمده سبحانه حمدًا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، أنزل إلينا كتابًا محكمًا، وأودعه من الأسرار والحكم ما يتذكر به أولو الألباب، جعله سبحانه أعظم كتاب، وأغزر علم، وأعظم نظم، حار فيه العلماء والبلغاء، كل ينهل منه ما يشاء، جعله سبحانه معجزة نبيه القائمة إلى يوم الدين، فلا تنقضي عجائبه، ولا ينضب معينه.

فله الحمد وله الشكر سبحانه، والصلاة والسلام على نبيه المختار لتبليغ آياته ، وعلى صحابته الأخيار أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وبعد :

فإن من عجائب هذا القرآن تنوع أساليبه وتماسك تراكيبه ، مما يجعله معينًا لكل طالب، وجواباً لكل سائل ، وملاذًا لكل باحث ، ومن هذا المنطلق جاء موضوع هذا البحث (بلاغة النظم القرآني في الحديث عن نساء القصور الملكية – دراسة تحليلية) لدراسة القيم اللُّغوية وعلاقتها بالبناء الكلي وأثرها في توجيه المعنى دون إغفال للملابسات المحيطة بالنص .

والحقيقة أن ما ألفتني إلى دراسة هذا الموضوع هو مقال بعنوان: (نساء القصور الملكية في القرآن) للأستاذ بشير البحراني، الذي أشار فيه إلى هذه النماذج النسائية في مقاله بقوله: "والقرآن إذ يقدم هذه التجارب الثلاث من أروقة البلاط الحاكم، فهو يحاول أن يرسم منهجية محددة للمرأة والرجل بشكل عام ، والمرأة بشكل خاص ، و المرأة التي تعيش في ظروف مشابهة من حيث الجاه والمال والجمال بشكل أخص"[1] .

فالمقال عبارة عن ملخص عن الشخصيات وأثرها الإيجابي أو السلبي، فلم يتطرق صاحب المقال إلى تنوع أساليب التعبير القرآني في الحديث عن هذه الشخصيات ، كما لم يبرز جماليات ذلك التنوع ، ومن هنا جاء هذا البحث ليجيب عن التساؤلات التالية :

- ما أسباب تنوع التعبير القرآني في الحديث عن نساء القصور الملكية ؟

[1] نساء القصور الملكية في القرآن ، بشير البحراني ،مجلة نور القرآن ، العدد السادس ، د.ت ، د . م .

- ما أثر الجرس الصوتي للمفردة في تصوير المشهد ؟
- ما أثر السياق في اختيار مفردة دون أخرى ؟
- ما الأبعاد الجمالية لتنوع البنية التركيبية؟ وما أثر السياق في ذلك التنوع؟
- هل للسياق أثر في اختيار الأسلوب التعبيري من إطناب أو إيجاز للحديث عن أولئك النسوة ؟

أهمية الموضوع ودواعي البحث :

تأتي أهمية موضوع البحث أولًا من ارتباطه الوثيق بالمصدر التشريعي الأول وهو القرآن الكريم ، ثم اهتمامه بالمرأة التى تمثل نصف المجتمع، والتي جاء الإسلام ليعيد لها مكانتها فيه، وبما أن طبيعة المجتمعات تختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية كان من الطبيعي أن يختلف التعبير عن كل طبقة، كما يختلف في الطبقة ذاتها بحسب المقام والحدث، فـ :"لكل مقام مقال"[1]، ومن هنا جاء هذا البحث ؛ليكشف عن الأساليب المتنوعة في التعبير عن كل امرأة في أروقة البلاط الحاكم المذكورة في القرآن، وأثر السياق في ذلك .

فهو محاولة للوقوف على تشكيل صور البنية اللغوية، ودقة المفردة في التعبير عن المقصود، وقوتها في تجلية الدلالة، ابتداءً من جرسها الصوتي، وانتهاءً بدراسة بنيتها التركيبية؛ لتكشف بذلك وجهًا من أوجه الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم.

منهج البحث :

المنهج السياقي وهو أحد المناهج الحديثة التي أثبتت الدراسات أن جذورها ممتدة إلى التراث العربي القديم على الرغم من تغير مصطلحاتها، وهي دراسة تهتم بالقيم اللُّغوية ودلالاتها، وكذلك بالقيم التركيبية وأبعادها التعبيرية والتأثيرية والجمالية، وهي ساحة رحبة لاكتشاف فعاليات النسق القرآني كما أشار إليه مُحَمَّد الجاجي[2] في النظرية الأسلوبية، حيث جعل النظريات

---

[1] الصناعتين: ٢١، ٢٧.

[2] انظر: ملخص الرسالة في المركز الوطني للمعلومات، اليمن، النسق القرآني: دراسة أسلوبية، مُحَمَّد ديب حمود الجاجي،رسالة دكتوراه ،٢٠٠٢ م .

الحديثة أرضًا خصبة لاكتشاف مكنونات الإعجاز القرآني بعيدًا عن فلسفتها المرتبطة بالفكر الغربي.

ولقد آثرتُ الإسهام في توظيف مثل هذا النوع من الدراسات الحديثة والإفادة منها، لذلك اختارتُ المنهج التحليلي المعتمد على السياق في البحث؛ وذلك لأن السياق هو القرينة المؤثرة في معنى الخطاب مما له علاقة بالخطاب ذاته، فلا تظهر الأبعاد الدلالية للفظ إلا من خلاله، فاللفظة قد يكون لها مدلولها المعجمي الخاص بها حال كونها مفردة، لكن إذا ما عُبِّر بها في سياق معين فقد تختلف دلالاتها باختلاف السياق الذي وجدت فيه، فـ"الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرَّدة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها، في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها"[1]، وهذا ما نادى به أصحاب النظرية السياقية فيما بعد عند حديثهم عن السياق اللغوي[2].

ومن هنا يظهر الارتباط الشديد ما بين اللفظ والسياق الذي يكون فيه، فالدلالات اللُّغوية المجردة وحدها قاصرة عن إيصال المعنى إذا أخذت بمعزل عن سياق الحال. أما تقسيم البحث على أساس المفردة والتركيب، فلا يعني أن الباحثة ستتطرق إلى المفردة ودلالتها المعجمية بمعزل عن سياقها المقامي ؛لأن اللفظة قد تبتعد عن معناها المعجمي في سياق دون آخر، وهذا مما يؤكده الدكتور تمَّام حسَّان حيث قال: "وهكذا تمتد قرينة السياق على مساحة واسعة من الركائز تبدأ باللغة ومبانيها الصرفية وعلاقاتها النحوية ومفرداتها المعجمية وتشمل الدلالات بأنواعها من عرفية إلى عقلية إلى طبيعية، كما تشتمل على المقام بما فيه من عناصر حسية ونفسية واجتماعية كالعادات والتقاليد ومأثورات التراث، وكذلك العناصر الجغرافية والتاريخية، مما يجعل قرينة السياق كبرى بحق، لأن الفرق بين الاستدلال بها على المعنى والاستدلال بالقرائن اللفظية النحوية –كالبنية والإعراب والربط والرتبة والتضام إلخ– هو فرق ما بين الاعتداد بحرفية النص والاعتداد بروح النص، وقرينة السياق هي التي يحكم بواسطتها على ما إذا كان المعنى المقصود هو الأصلي أو المجازي، وهي التي تقتضي بأن في الكلام كناية أو تورية أو جناسًا إلخ،

---

[1] دلائل الإعجاز: ٤٦ .

[2] ينظر : دلالة السياق : البركاوي :٤٩ – ٥٠ ، دلالة السياق : ردة الله الطلحي :١/ ٤٠.

وهي التي تدل عند غياب القرينة اللفظية على أن المقصود هذا المعنى دون ذاك إذ يكون كلاهما محتملًا"[١].

واختيار هذا المنهج للبحث من قبل الباحثة كان بمساعدة المشرفة على البحث وتوجيه منها، وقد وقع الاختيار عليه؛ لأن اعتماده في تحليل النصوص مما يثري بلاغتنا العربية، فـ "الكلمة تحمل معنًى غامضًا لدرجة ما، ولكن المعنى يكتشف فقط عن طريق ملاحظة استعماله الاستعمال يأتي أولًا، وحينئذ يتقطر المعنى منه"[٢]، وهذا ما نبه عليه شيخ البلاغة في قوله: "لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك"[٣]، وللجمع ما بين هذا المنهج وبلاغة النظم القائمة على التركيب فقد قَسَّمت البحث إلى فصلين ظهر في الأول منهما المنهج السياقي الحافل بالمفردة في سياقها التركيبي، كما ظهر في الفصل الثاني بلاغة النظم القائمة على التركيب.

وكما قال البلاغيون في قولهم:(لكل مقام مقال)، فقد أشار أصحاب الدراسات اللغوية الحديثة إلى هذا الأمر فيما أسموه بالسياق اللغوي والعاطفي والثقافي والمقصدي والسياق الخارجي[٤]، وسأعتمد في الدراسة على نوعين:(السياق اللغوي والسياق الخارجي[٥])؛ لأنَّ الأنواع الأخرى مندرجة تحتهما فيما أسماه البلاغيون بمقتضى الحال.

---

[١] البيان في روائع القرآن: تمام حسان : ٢٢١- ٢٢٢ .

[٢] علم الدلالة: أحمد مختار ٧٢ ، هذه مقولة لبرنراند راسل .

[٣] دلائل الإعجاز: ٥٥ .

[٤] ينظر : علم الدلالة: ٦٩ – ٧١ ، بلاغة السياق في خواتيم سورة النحل: بلقيس الطيب :٣٤٨/١ – ٣٥٨

[٥] ويسمى سياق الموقف والمقام والحال:٢٨ – ٣١، دلالة السياق: الطلحي : ١ / ٣٨، ٥٢-٥٣ ، وذلك عند حديثه عن السياق عند اللغويين ، كما أفرد لسياق الموقف بابًا في ٤٥٤/٢ وما بعدها، بلاغة السياق في خواتيم سورة النحل: ١/ ٣٥١.

مصطلحات البحث :

البلاغة : تعددت التعريفات لهذا المصطلح، ويمكن الإشارة هنا إلى ما اصطلح عليه أغلب الدارسين في تعريفها عند حديثهم عن بلاغة الكلام بأنها "مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته"[١].

النظم : أصدق تعريف لهذا المصطلح هو ما ذكره صاحب الدلائل حين قال: "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها"[٢].

نساء القصور الملكية : هن النساء اللاتي سكن القصور الملكية سواءً أكانت زوجة ملك، نحو: (امرأة العزيز و امرأة فرعون) أم كانت ملكة، نحو: (بلقيس) ملكة سبأ.

حدود البحث :

أما حدود البحث فهي الآيات المتعلقة بموضوع الدراسة (القرآن الكريم) :

- امرأة العزيز : سورة يوسف : ٢٣ -٣٢ ، ٥١ – ٥٣ .
- بلقيس ملكة سبأ : سورة النمل : ٢٣-٣٥ ، ٤١-٤٤.
- امرأة فرعون : سورة القصص :٩، سورة التحريم : ١١ .

وسيتم تناول الأحاديث الصادرة عنهن، وإليهن في إطار سياقها الذي وردت فيه.

---

[١] الإيضاح : القزويني : ٤١/١.

[٢] دلائل الإعجاز: الجرجاني : ٨١ .

الدراسات السابقة:

لقد انصرفت جهود الكثير من علماء اللغة والبيان إلى دراسة القرآن العظيم، فكان النبع الذي لا ينضب لكل ناهل، فكثرت الدراسات حوله لتكشف عن أسرار هذا القرآن المعجز، ولقد جاءت الدراسات السابقة المتصلة بموضوع البحث على النحو التالي :

أولًا : دراسات عامة للسور المتصلة بموضوع الدراسة :

وأغلب هذه الدراسات في الأصل دراسات متخصصة في علم التفسير، لكنها عُنيت بجوانب بلاغية تطرقت فيها لنساء القصور–موضوع البحث– ولذلك كان لا بد من الإشارة إليها.

- سورة يوسف " دراسة تحليلية " ، أحمد نوفل ،١٩٨٩ م .[١]

حاول المؤلف في هذا الكتاب تحليل السورة من الناحية الشرعية ، وفي أثناء تحليله لنصوص هذه السورة تطرق إلى بعض المسائل البلاغية، من أهمها قضية إبراز أحسنية القصة القرآنية ، كما أشار إلى بعض التعابير والصور البيانية، ولم يغفل عمَّا للمفردات والتراكيب والصور من إبراز جماليات القصة.

- سورة القصص " دراسة تحليلية "، مُحَمَّد مطني .[٢]

حاول الباحث في هذه السورة تحليلها من جوانبها المتعددة ، ومن هذه الجوانب (الجانب البلاغي)، فأبرز فيها إعجاز النظم القرآني من خلال تكرر القصة القرآنية وفق جمل وعبارات متشابهة أو مختلفة، تناسبت في مقاطعها بين أولها وآخرها؛ مما جعلها وحدة نصية متماسكة. وهذه الدراسة مثل سابقتها حيث اهتم في تحليله بتفسير السورة.

---

[١] دار الفرقان ،الأردن ، ط١ ، ١٤٠٩هـ /١٩٨٩م .

[٢] هذا المرجع لم أتحصل عليه بصيغة **pdf**، أو بشكل ورقي، لذلك لم أستكمل بياناته ؛لأن النسخة الموجودة لدي نسخة وورد لم يذكر فيها إلا أن الدكتور مُحَمَّد مطني ، عضو هيئة التدريس في كلية الآداب ، جامعة الأنبار ، ولقد رجعت إلى مكتبة جامعة الأنبار الرقمية ولكني لم أجدها .

ثانيًا : دراسات متخصصة في النظم القرآني بشكل عام والقصص القرآني وما يقتضيه بشكل خاص :

- البلاغة القرآنية ، دراسة في جماليات النص القرآني ،٢٠١٠م.[١]

قامت هذه الدراسة على بيان أوجه إعجاز القرآن الكريم وبلاغته، وذلك بالنظر إلى نظمه وخصائصه الأسلوبية وبناء الصورة فيه ، وانتهت إلى إبراز جماليات النص القرآني من خلال بيان الإعجاز في نظمه بشكل عام ، وعرضه القصصي بشكل خاص، من خلال قصة يوسف عليه السلام ،وهي دراسة أدبية عامة لها.

- جماليات النظم القرآني في قصة المراودة ، عويض حمود العطوي، ١٤٣١ هـ[٢]

ركزت هذه الدراسة على إثراء الجانب التطبيقي في البلاغة القرآنية، وبيان أثر المنهج البلاغي في كشف المعاني الدقيقة والإقناع بها، وانتهت الدراسة إلى الكشف عن أسباب تنوع الأساليب البلاغية في القصة –بحسب مقتضى كل خطاب، سواء من ناحية المتحدث أم من ناحية الحدث– وتآزرها في إبراز المعنى وخدمته. ولقد أفدت كثيرًا من هذه الدراسة خاصة؛ لأنها دراسة بلاغية لقصة المراودة التي سأتناولها من خلال شخصية امرأة العزيز، فهي إحدى نساء القصور الملكية في القرآن .

- بحث في دلالة السياق في القصص القرآني ، مُحَمَّد عبدالله علي سيف،٢٠٠٢م[٣].

ترمي هذه الدراسة إلى تتبع دلالة السياق في القصص القرآني، وبيان أثرها في تحديد المعنى، ومعرفة مراد المخاطب وغرض الخطاب، على مستوى المفردة والتركيب والنص، ولقد أثبتت هذه الدراسة أهمية السياق في تحديد المعنى واختيار الألفاظ والصيغ والتراكيب، فاختلافها يأتي لإفادة أغراض تتعلق بترتيب المعاني في النفس.

---

[١] أحمد درويش ، عزة جدوع – مكتبة الرشد : الرياض ،ط١،١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م .

[٢] مركز التدبر للاستشارات التربوية والتعليمية ، الرياض ، د.ط ، ١٤٣١ هـ .

[٣] رسالة دكتوراه ، إشراف : عبد الجبار علوان النايلة ، جامعة بغداد ،كلية الآداب ، ٢٠٠٢م ، مودعة في المركز الوطني للمعلومات ،اليمن ، ٢٠٠٣ م .

- لغة الحوار في سورة يوسف ،دراسة أسلوبية (أقوال يوسف وإخوته وامرأة العزيز نموذجًا) ،أحمد جمال الدين ،١٤٢٧ هـ[١].

ركزت هذه الدراسة على لغة الحوار في أقوال شخصيات قصة يوسف عليه السلام، فكشفت بذلك عن الأشكال اللغوية المتنوعة البارزة فيها، ولقد انتهت الدراسة إلى أن اللغة المحكية قد تحملت مهمة التعبير عن أدق مراد لكل شخصية، كما أثبتت إعجاز التعبير القرآني بنظمه، حيث إنه يكتنز بالعديد من المعاني المستورة وراء ألفاظه.

ثالثًا : دراسات متعلقة بما يختص بالمرأة في القرآن:

- مسالك توكيد حقوق المرأة ومقتضياتها في القرآن الكريم "دراسة بلاغية"، إعداد: عبد العزيز بن مُحَمَّد علي نجمي ، ١٤٣٠هـ.[٢]

تناولت هذه الدراسة ظاهرة التوكيد فيما يتعلق بحقوق المرأة، فاستقصى فيها الباحث الأساليب البلاغية المتنوعة في آيات حقوق المرأة، وانتهت الدراسة إلى إثبات تلك الحقوق من خلال عناية النص القرآني بإيثاره للجمل الاسمية على الفعلية، واستخدام الجمل الشرطية .

ولا يفوتني الإشارة إلى وجود دراسات تتعلق بالمرأة ولكنَّها ذات أبعاد دينية فقط، من ذلك بحث (المرأة في القصص القرآني)[٣] للباحثة: هداب مُحَمَّد أحمد الحاج حسين، التي عنيت فيه بالتفسير الموضوعي.

أما ما ستضيفه الباحثة إلى هذه الدراسة خاصة على أساس أنها الأقرب إلى موضوع البحث، فهو محاولة الكشف عن أسرار النظم القرآني في الحديث عن امرأة العزيز وغيرها من نساء القصور من خلال بيان أثر السياق في اختيار المفردات من الناحية الصوتية أولًا ثم الناحية

---

[١] بحث في مؤتمر السرديات الأول بجامعة قناة السويس ، ١٤٢٧هـ.

[٢] رسالة ماجستير، إشراف : يوسف بن عبد الله الأنصاري ،جامعة أم القرى ،كلية اللغة العربية،١٤٣٠/ ١٤٣١هـ .

[٣] المرأة في القصص القرآني – هداب مُحَمَّد أحمد الحاج حسين ،إشراف : د: محسن الخالدي ، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية ،فلسطين ،١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣ م .

التركيبية، والكشف عن أسباب تنوع الأساليب في الحديث عن هؤلاء النسوة برغم انتمائهن لطبقة اجتماعية واحدة .

وبناءً على ما سبق يمكن القول : إنَّه لا توجد دراسة بلاغية خاصة تتناول بلاغة النظم القرآني في الحديث عن نساء القصور الملكية –إلا ما ذكر في المقال آنفًا– كما لا يوجد فيما اطلعت عليه ما يشير إلى دراسة الموضوع بالمنهجية التي ستتبعها الباحثة في البحث فكان هذا هو الدافع الرئيس لتقصي أبعاد الموضوع واختياره، لتسهم بذلك في إثراء الدراسات البلاغية التطبيقية .

ولقد جاء هذا البحث لدراسة طبيعة المرأة على أنها نقطة الارتكاز لتسلسل الحدث في القصص القرآني، ثم اختصر ليكون متخصصًا بنساء القصور الملكية دون غيرهن، وذلك لتحديد موضوعه بحيث أتمكن من إحاطة جوانبه قدر المستطاع .

ولا يخفى على أحد ما يجده الباحث من صعوبات في بحثه وقد كان أبرزها وضع خطة محكمة تفي بجوانب الموضوع بالكامل، فلقد وضعت أكثر من خطة للبحث لأستوفي جوانب البحث دون تكرار أو إجحاف بشيء، ولكني في كل مرة أجد ثغرة ، إلى أن اهتديت إلى هذا التقسيم على ما فيه من ثغرات ظهرت عند كتابتي له، ولم أستطع تفاديها؟ ومن أشد الصعوبات التي واجهتني في هذا البحث صعوبة التعاطي مع النص القرآني؛ لقدسيته ولكثرة تفاسيره؛ لذا حاولت أن أعتمد على أكثر من تفسير حتى لا أقع في الزلل والخطأ. ومن الصعوبات أيضًا تلك الصعوبات الناشئة من تشعب المباحث في البحث وتداخل شواهده، مما يضطرني أحيانًا إلى التكرار، وقد بذلت غاية جهدي في العناية بهذا الأمر حتى لا أقع فيه، وذلك بالإحالات الداخلية في البحث، وأما عامل الوقت فقد شكل لي أعظم عائق إذ حاولت مسابقة الزمن للوصول إلى نهاية البحث، والله المستعان .

ولقد قسمتُ البحث إلى مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة على النحو التالي :

أما المقدمة فقد أوضحت فيها أسباب اختيار الموضوع وأهميته وتساؤلاته والمنهج المتبع في إعداد البحث، ثم تطرقت لمصطلحات البحث وحدوده، ثم ذكرت الدراسات السابقة له، وأشرت أخيرًا إلى الصعوبات التي واجهتني في إعداد البحث .

وأما التمهيد فقد عرضت فيه مفهوم السياق عند العرب، ولكونه مصطلحًا شائعًا في الدراسات الحديثة فقد تطرقت لمفهومه عند المحدثين، وقد قصدت من هذا الترتيب الدلالة على أن ما قاله المحدثون في تناولهم للسياق نجد له إشارات في كتب التراث عند العرب، ثم تطرقت فيه إلى أنواع السياق، ومستوياته، ووظيفته .

أما الفصل الأول فتناولت فيه أثر السياق القرآني في اقتضاء المفردة وذلك في مبحثين: المبحث الأول: المستوى الصوتي، وبيَّنت فيه أثر صفات الحروف في اقتضاء المفردة. المبحث الثاني: المستوى الصرفي، وتطرقت فيه للمفردة من خلال تضعيفها، وتكرار حروفها، ومن حيث كونها اسمًا أو فعلًا ،ومن حيث الترادف والتضاد – وقصدت به الطباق –، مبيِّنة أثر اختيار كل مفردة في المقامات المختلفة في القصة .

والفصل الثاني جعلته في أثر السياق في البنية التركيبية. المبحث الأول: السياق و أساليب الطلب، وفيه مطلبان: الأول : الأمر والنهي، الثاني: النداء. المبحث الثاني : السياق واستعمال المصطلحات الثنائية. وقد قسمته إلى أربعة مطالب، الأول: التقديم والتأخير. الثاني: الذكر والحذف. الثالث: الفصل والوصل. الرابع: الإيجاز والإطناب؛ مبيِّنة في كل مطلب جماليات هذه الأساليب وأثر السياق في اختيار أحدها دون الآخر في كل قصة.

وفي الخاتمة عرضت أهم النتائج التي توصلتُ إليها في البحث، ثم ذكرت المراجع التي استفدت منها .

وذيَّلت البحث بعد ذلك بفهارس عامة تخدم البحث فخصصت فهرسًا للشواهد القرآنية، وكذا للأحاديث النبوية، ثم فهرسًا للشواهد الشعرية، ولتسهيل الوصول إلى فصول البحث ومباحثه ضمنته فهرسًا للموضوعات، وفي سبيل العناية بالبحث قمت بتوثيق الآيات القرآنية خدمة للباحثين في البلاغة القرآنية، كما عملت على تخريج الأحاديث النبوية للوقوف على صحتها وثبوتها، أما الأبيات الشعرية فقد اقتضت الحاجة إلى توضيح غريبها في الهامش، وفي أثناء البحث ترجمت لأهل اللغة والأدب والبلاغة من العلماء .

هذا وأسأل الله العلي القدير الذي منَّ علي بفضله لإنجاز هذا البحث أن أكون قد وفقت فيما كتبت، وأن يجعله من العلم النافع الذي يبقى لي بعد الممات، فما كان في هذا

البحث من صواب فمنه سبحانه وما كان فيه من خطأ وزلل فمن نفسي، وما هذا البحث إلا قطرة في بحر العلم آمل أن يكون فاتحة لبحوث ودراسات أخرى أكثر دقة وشمولًا وعمقًا.

والحمد لله رب العالمين.

تمهيد

مفهوم السياق وأنواعه ومستوياته ووظائفه

لا زال القرآن الكريم الدافع الرئيس للعلماء قديمًا وحديثًا للبحث في علومه المختلفة بغية خدمة هذا الكتاب المعجز بكل ما فيه؛ ولذا انكب العلماء في المجالات المختلفة على دراسة ما يتصل به ، للبحث في أسرار إعجازه ، ورغم تلك الجهود ظل القرآن متجدِّدًا لا ينضب معينه ولا تنقضي عجائبه؛ لذا جاء التوجيه الرباني بقوله عز وجل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[1]. ومن هذا المنطلق أقبل علماء اللغة والبلاغة على الدراسات القرآنية للبحث في إعجازه.

ومع تطور الدراسات اللغوية ظهر في اللغة ما يسمى بالنظريات الحديثة[2]. من هذه النظريات: نظرية السياق التي احتلت مكانًا بارزًا في التراث العربي والدراسات اللغوية، سواءً فيما يتعلق بفهم النص أم تحليله[3]، ولأهمية هذا السياق في فهم النص بشكل عام والنص القرآني بشكل خاص جاء هذا التمهيد للكشف عن مفهومه وأنواعه وبيان مستوياته ووظائفه .

مفهوم السياق عند العرب :

إن مادة (سياق) ترجع في أصلها اللغوي إلى الأصل الثلاثي (سوق) الدال على معنى التتابع[4]، جاء في المفردات للراغب (٤٢٥هـ)[5] :" سَوق الإبل : جَلبُها وطَرْدُها ، يقال: سُقْتُهُ

---

[1] النساء: ٨٢.

[2] كالنظرية الإشارية و التصويرية ، والنظرية السلوكية ، ونظرية السياق ، ونظرية الحقول الدلالية ، النظرية التحليلية . ينظر: علم الدلالة: ٥٤ وما بعدها.

[3] دلالة السياق : البركاوي: ٩ .

[4] ينظر:أساس البلاغة : الزمخشري :٣١٤، القاموس المحيط : الفيوز أبادي : ١١٥٦ ، لسان العرب : ابن منظور : ٣٠٤/٧ .

[5] هو الحسين بن مُحَمَّد بن المفضل ، أبو القاسم الأصفهاني ، المعروف بالراغب : أديب ، من كتبه: (محاضرات الأدباء)، (الذريعة إلى مكارم الشريعة)، (كتاب الأخلاق)، (المفردات في غريب القرآن). الأعلام : الزركلي ٢/ ٢٥٥.

فانْسَاق ، والسَّيِّقَةُ ما يُسَاقُ من الدواب ، وسُقْتُ المهر إلى المرأة ، وذلك أن مهورهم كانت الإبل " [1] .

وقال ابن منظور(٧١١ هـ)[2] : " تساوقت الإبل تساوقًا إذا تتابعت ... والمِسَاوَقة : المتابعة كأنَّ بعضها يسوق بعضًا ... وساق إليها الصداق والمهر سِياقًا ... ويقال ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساقٍ واحدة ، أي: بعضهم على إثر بعض ليس بينهم جارية " [3] .

وقال الفيروزآبادي (٨١٧ هـ)[4]:" ساق الماشية سوقًا وسياقة ومساقًا واستاقها ، فهو سائق وسواق ... والمنساق : التابع ، والقريب ... وتساوقت الإبل : تتابعت وتقاودت ، والغنم : تزاحمت في السير "[5].

وقال صاحب تاج العروس [6]:" تَسَاوَقت الإبل : أي تتابعت ، وكذلك تَقَاودت فهي مُتَسَاوقةٌ ومُتَقَاوِدَة ، وأصل تَساوَقُ تَتَسَاوَقُ ، كأنَّها لضَعفها وهُزالها تَتَخاذل ويَتَخَلَّفُ بعضها

---

[1] المفردات : الأصفهاني : ١/ ٣٢٨.

[2] هو مُحَمَّد بن مكرم بن علي، جمال الدين ابن منظور الأنصاري ، الامام اللغوي الحجة، ولد بمصر سنة ٦٣٠هـ، وتوفي بها سنة ٧١١ هـ ، خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة وقد ترك بخطه خمسمائة مجلد. أشهر كتبه: (لسان العرب) جمع فيه امهات كتب اللغة فكاد يغني عنها جميعًا ، ومن كتبه أيضًا : (مختار الأغاني)، (نثار الأزهار في الليل والنهار). الأعلام ٧/ ١٠٨.

[3] لسان العرب : ٧/ ٣٠٤.

[4] هو مُحَمَّد بن يعقوب بن مُحَمَّد ، مجد الدين الفيروزآبادي ، أبو طاهر ، من أئمة اللغة والأدب ، ولد عام ٧٢٩ هـ بكارزين ، وتوفي في زبيد سنة ٨١٧ هـ ، أشهر كتبه : (القاموس المحيط) ، (المغانم المطابة في معالم طابة) وينسب له (تنوير المقباس في تفسير ابن عباس) ، وله (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز) الأعلام : ٧ /١٤٦.

[5] القاموس المحيط : ١١٥٦- ١١٥٧.

[6] هو مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الرزاق الزبيدي ، الملقب بمرتضى ، علامة باللغة والحديث والرجال والأنساب ، ولد بالهند سنة ١١٤٥ هـ ، توفي بالطاعون في مصر سنة ١٢٠٥ هـ ، من كتبه : (تاج العروس في شرح القاموس) ،(اتحاف السادة المتقيين)، (عقود الجواهر المنيفة في أدلة مذهب الإمام أبي حنيفة) .الأعلام: ٧ / ٧٠ .

عن بعض ... وتَسَاوقَت الغَنَم : تَزَاحَمت في السير ، وفي حديث أم معبد : فجاء زوجها يَسُوق أعنزًا ما تَسَاوَقُ ،أي: ما تَتَابَع ، ومما يستدرك عليه: انساقت الإِبِل: سَارَت مُتَتَابعة"[1].

كما ظهر هذا التتابع والتوالي في الكلام على سبيل المجاز ، قال الزمخشري (٥٣٨هـ)[2]: " هو يَسُوق الحديث أحسن سِيَاق، وإليك يُساق الحديث، وهذا الكلام مَسَاقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده "[3]، ويقصد بالسرد: توالي الكلمات وتتابعها ، يقال: " فلان يسرد الحديث سردًا ، إذا كان جيد السياق له "[4]، وبهذا انتقل السياق من دلالته الحسية إلى الدلالة المجازية في الكلام [5].

أما مفهوم السياق عند البلاغيين فقد أطلق على ثلاثة معان: مقصود المتكلم وغرضه، أو الظروف والأحداث المحيطة بالنص، أو البنية اللغوية للنص أي ارتباط اللفظة بسابقتها ولاحقتها[6]، وهنا نلحظ رحلة الكلمة من مدلولها الحسي إلى المجازي؛ لتصل إلى مدلولها الاصطلاحي بعد ذلك .

فالخطابي (٣٨٨هـ)[7] رأى أن النظم القرآني من النظم العالي الذي لا يصل إليه أي نظم؛ إذ اشتمل على مقومات الكلام من لفظ حامل ، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم حتى

---

[1] تاج العروس: ٢٥ /٤٨١.

[2] هو : محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري ، جار الله أبو القاسم ، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب ، ولد سنة ٤٦٧ هـ في زمخشر ، وتوفي بخوارزم عام ٥٣٨ هـ ، كان الزمخشري معتزلي الاعتقاد متظاهرًا به ،من أشهر كتبه : (الكشاف) ، (أساس البلاغة) ، (المفصل) وغيرها من المؤلفات . الأعلام : ٧/ ١٧٨ ، سير أعلام النبلاء : الذهبي: ٢٠/١٥١ – ١٥٥ ، وفيات الأعيان : ابن خلكان : ٥/ ١٦٨ – ١٧٣ .

[3] أساس البلاغة : ٣١٤.

[4] الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : الجوهري: ٢/٤٨٧ .

[5] ينظر : بلاغة السياق في خواتيم سورة النحل: ٣٤٥ .

[6] ينظر : دلالة السياق : الطلحي : ١/ ٣٩-٤٠ ، بلاغة السياق في خواتيم سورة النحل : ٣٤٥ – ٣٤٦.

[7] حمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن خطاب البستي، أبو سليمان الخطابي ، الإمام، العلامة، الحافظ، اللغوي، ولد سنة ٣١٩هـ ، ، وتوفي سنة ٣٨٨هـ له مصنفات عدة منها : (معالم السنن) ، (بيان إعجاز القرآن) ، (غريب الحديث)، (شرح الأسماء الحسنى) ، (الغنية عن الكلام وأهله) . ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٧/٢٥-٢٧ ، الأعلام : ٢/٢٧٣.

قال في بيان هذا: " وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشد تلاؤمًا وتشاكلًا من نظمه . وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها " [١].

وقد وصل الخطابي بهذا إلى الوجه الذي يظهر به حسن الكلام، فجعله عمودًا للبلاغة وذلك حين قال : " ثم اعلم أن عمود البلاغة التي تُجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاءَ منه : إما تَبَدُل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة؛ ذلك أن في الكلام ألفاظًا متقاربة المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد المخاطب ... والأمر فيها وفي ترتيبها عند أهل اللغة بخلاف ذلك؛ لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها، وإن كانا قد يشتركان في بعضها "[٢]، وهذا ما عرف بعد ذلك بمراعاة مقتضى الحال عند اختيار المفردة .

كما نجد بعض الإشارات إلى تلك المعاني في تعريفهم للبلاغة ، فأبو هلال العسكري (٣٩٥ هـ)[٣] راعى في تعريفها مقصود المتكلم حيث قال: " سميت البلاغة بلاغة ؛لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه"[٤]، وحين بيَّن حدها قال: " البلاغة كل ما تبلّغ به معنى السامع السامع فتمكّنه في نفسه كتمكّنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن"[٥] فأشار إلى وجوب الاهتمام بالبنية اللغوية للنص ؛ وذلك حين جعل شرطها (صورة مقبولة ومعرضًا

---

[١] رسالة (بيان إعجاز القرآن): الخطابي ،ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٢٧.

[٢] المرجع السابق : ٢٩.

[٣] هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحي بن مهران العسكري ، أبو هلال ، عالم بالأدب له شعر ، من كتبه : : (التلخيص في اللغة)،و(جمهرة الأمثال)،و(الصناعتين النظم والنثر)،و(الأوائل)،و(الفروق في اللغة)،و(ديوان المعاني)، قال ياقوت : أما وفاته فلم يبلغني فيها غير أني وجدت في آخر كتاب الأوائل من تصنيفه ، فرغنا من إملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة . الأعلام : ٢/ ١٩٦.

[٤] الصناعتين: العسكري : ٦.

[٥] المرجع السابق : ١٠.

حسنًا) ، فهذا دليل آخر على أن أهل البلاغة قد عرفوا المصطلح بمعناه وإن لم يطلقوا عليه مصطلح (السياق).

ومن العلماء الذين اهتموا بالنظم، وكان لهم أثر في ذلك القاضي عبد الجبار (٤١٥هـ)[١] الذي تناول النظم بشيء من الوضوح ، إذ قال: " اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة ، وقد يجوز أن تكون هذه الصفة بالمواصفة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع ؛ لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة، أو حركتها، أو موقعها، ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة. ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض؛ لأنه قد يوجد لها عند الانضمام صفة وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها ؛ فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه ، إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها "[٢]. ففصاحة اللفظة عنده لا تظهر إلا من خلال النظم الذي تكون فيه.

ثم جاء عبد القاهر(٤٧١ هـ)[٣]؛ ليكمل جهد من سبقوه إلى هذا المفهوم من خلال نظرية النظم[٤]، إذ رأى" أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلَّق بعضها ببعض ،ويُبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس"[٥].

---

[١] القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن خليل ، أبو الحسن الهمذاني ، المتكلم، شيخ المعتزلة ، من كبار فقهاء الشافعية ، ولي قضاء القضاة بالري، توفي سنة ٤١٥ هـ، وله تصانيف كثيرة منها : (المغني) ، (الأمالي في الحديث)، و(دلائل النبوة) ، و(طبقات المعتزلة) ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٧/٢٤٤-٢٤٥.

[٢] المغني في أبواب التوحيد والعدل : القاضي عبد الجبار: ١٦/١٩٩.

[٣] هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن مُحَمَّد الجرجاني ، أبو بكر ، واضع أصول البلاغة ، كان من أئمة اللغة ، من أهل جرجان ، له شعر رقيق ،توفي سنة ٤٧١ هـ ، من كتبه: (أسرار البلاغة) ،و(دلائل الإعجاز) ،و(الجمل في النحو)، و(التتمة في النحو) ، و(المغني في شرح الإيضاح)، اختصره في شرح آخر سماه (المقتصد) ، و(إعجاز القرآن)، و (العمدة في تصريف الأفعال) . الأعلام : ٤/ ٤٨-٤٩ .

[٤] دلائل الإعجاز: ٨١ .

[٥] المرجع السابق : ٥٥ .

لقد أقام الشيخ نظريته على ثلاث دعائم[١] ، أشار من خلالها لأنواع من السياق ذكرها المحدثون فيما بعد: فالدعامة الأولى: ترتيب المعاني في النفس بموجب إعمال العقل ، فأَلْفَتَ إلى غرض المتكلم (سياق المقصد). وأما الدعامة الثانية: مراعاة السياق والموقع في التأليف. والثالثة: توخي معاني النحو. فقد نبه بهما إلى ما أسماه علماء اللغة بالسياق اللغوي .

كما استعمل البلاغيون مصطلح الحال أو المقام للدلالة على ما أسماه الباحثون المحدثون بـ (سياق الموقف[٢] أو السياق الخارجي[٣])، فهذان المصطلحان معروفان قبل عبد القاهر وإن لم يُعرَّفا تعريفًا اصطلاحيًّا .

كما أن السكاكي (٦٢٦ هـ) [٤] أشار إلى هذين المصطلحين في قوله: "ثم إذا شرعت إلى الكلام، فلكل كلمة مع صاحبتها مقام ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام " [٥].وكذا أشار إليهما القزويني (٧٣٩)[٦] في تعريفه لبلاغة الكلام حين قال: إنها "مطابقته لمقتضى الحال مع مع فصاحته " [٧].

---

[١] ينظر : نظرية النظم عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني : نجاح الظهار: ٣٢ – ٥٨.

[٢] ينظر : بلاغة السياق في خواتيم سورة النحل : ٣٤٦ ، دلالة السياق: الطلحي: ٣٢/١.

[٣] ينظر : دلالة السياق : البركاوي : ٢٨-٣١ ، بلاغة السياق في خواتيم سورة النحل : ٣٤٦ ،٣٥١.

[٤] هو يوسف بن أبي بكر بن مُحَمَّد بن علي السكاكي الخوارزمي ، أبو يعقوب ، سراج الدين ، ولد بخوارزم سنة ٥٥٥ هـ ، وتوفي بها سنة ٦٢٦ هـ ، إمام في النحو والتصريف والمعاني والبيان والاستدلال والعروض والشعر ، من كتبه : (مفتاح العلوم) ، و(رسالة في علم المناظرة) . الأعلام : ٨ / ٢٢٢ ، بغية الوعاة : السيوطي : ٢ / ٣٦٤.

[٥] مفتاح العلوم : السكاكي : ١٦٨ .

[٦] هو مُحَمَّد بن عبد الرحمن بن عمر ، أبو المعالي ، جلال الدين القزويني الشافعي ، المعروف بخطيب دمشق ، من أحفاد أدلف العجلي ، قاض، من أدباء الفقهاء ، أصله من قزوين ، ومولده بالموصل سنة ٦٦٦هـ ، ولي القضاء في ناحية بالروم ثم في دمشق ثم في مصر ، ونفاه السلطان الملك الناصر إلى دمشق ثم ولاه القضاء بها واستمر إلى أن توفي سنة ٧٣٩ هـ ، من كتبه : (تلخيص المفتاح) ، (الإيضاح في شرح التلخيص) ، و(السور المرجاني في شعر الأرجاني).الأعلام : ٦ /١٩٢.

[٧] الإيضاح: ١ /٤١ ، عروس الأفراح :-*السبكي : ١/ ٩٠ ، مختصر السعد : التفتازاني: ٣١.

أما السياق مصطلحًا فلقد عرَّفه السجلماسي (٧٠٤ هـ)[١] بأنه: "ربط القول بغرض مقصود على القصد الأول"[٢]، وذلك عند حديثه عن الاكتفاء حيث جعله أحد شروط صحته.

هذه بعض الإشارات الموجزة التي تدل على معرفة القدماء لهذا المصطلح ، والاقتصار على بعض أقوال البلاغيين لا يعني عدم معرفة غيرهم له، فلقد عرفه الأصوليون[٣] والمفسرون[٤] واللغويون[٥] في كتبهم ، وربما كان المفسرون أسبق إلى استخدام مصطلح السياق من البلاغيين ، ، إذ تلحظ اهتمامهم به في توجيه النص القرآني .

مفهوم السياق عند المحدثين :

ينحدر لفظ (Context) الذي تُرجم إلى العربية بلفظ (السياق) من اللفظ اللاتيني (Con) بمعنى (مع) ولفظ (Text)التي تعني (النسيج) والتي استعملت فيما بعد في معنى (النص) [٦] .

وقد استعمله المحدثون بمعنى "المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغوية سواء أكانت كلمة أم جملة في إطار من العناصر اللغوية وغير اللغوية " [٧].

---

[١] هو القاسم بن مُحَمَّد بن عبد العزيز الأنصاري ، أبو مُحَمَّد السجلماسي ، أديب ، ولد ونشأ بسجلماسة ، وصنف (المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع) ، أنجزه إملاء سنة ٧٠٤ هـ . الأعلام : ٥/ ١٨١.

[٢] المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع : السجلماسي : ١٨٨.

[٣] " فأولى الأفكار التي تناولت مفهوم السياق وردت في الدراسات الأصولية خاصة في كتاب الرسالة للإمام الشافعي٢٠٤هـ، حين عقد بابا في هذا الكتاب أسماه (باب الصنف يبيّن سياقه معناه)". ينظر : السياق في الدراسات البلاغية والأصولية : أسامة جاب الله : ٤ ، أصول النظرية الحديثة : مالك يحيا : ٣٨ – ٣٩.

[٤] أبرز المفسرون أهمية السياق في فهم دلالة النص وترجيحها ، وأشاروا إلى السياق بقرينتيه المتلازمتين اللفظية والحالية من معرفة أسباب النزول والترتيب الزمني لنزول الآيات ومعرفة المكي والمدني ، وقد اقتدى بهم شرَّاح الحديث وعلماؤه لمعرفة أسباب ورود الحديث . ينظر : السياق في الدراسات البلاغية و الأصولية : ٨ وما بعدها .

[٥] مثل ما ورد من آراء الخليل وتلميذه سيبويه : ينظر : دلالة السياق البركاوي : ٥٧ وما بعدها ، أصول النظرية الحديثة : ٤٠ وما بعدها .

[٦] دلالة السياق : البركاوي : ٤٥.

[٧] دلالة السياق : الطلحي : ١/ ٤٠ .

أما البداية الحقيقية لهذه النظرية فقد تمثلت في جهود (مالينوفسكي) الذي رأى أن الكلمات المعزولة عن سياقاتها لا تعدو أن تكون أصواتًا مبهمة، ولتحليل هذه الأصوات اقترح تحليل الأنماط السياقية الكلامية ومراعاة المواقف الخارجية غير اللغوية المصاحبة له ، ثم صاغ عبارته المشهورة (context of situation)[1]، التي مثلت نقطة الانطلاق لنظرية السياق عند (فيرث) والذي حاول في صياغتها تطبيق أفكار (مالينوفسكي)، وتتلخص أسس هذه النظرية عند فيرث في النظرة المتساوية إلى عنصري السياق اللغوي والخارجي وما يتصل بهما من أنواع في عملية التحليل الدلالي ، ورفض ما يسمى بالوظيفة الأساس للغة ؛لأن كل وظيفة تُؤدى هي وظيفة أساس في المقام الذي قيلت فيه [2].

ومثل هذه الأسس تحدث عنها العرب قديمًا فـ" حين قال البلاغيون : (لكل مقام مقال) و(لكل كلمة مع صاحبتها مقام) وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات لا في العربية الفصحى فقط ، وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات على حد سواء ، ولم يكن (مالينوفسكي) وهو يصوغ مصطلحه الشهير (context of situation) يعلم أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها. إنَّ الذين عرفوا هذا المفهوم قبله سجلوه في كتب لهم تحت اصطلاح (المقام) ولكن كتبهم هذه لم تجد من الدعاية على المستوى العالمي ما وجده اصطلاح (مالينوفسكي) من تلك الدعاية بسبب انتشار نفوذ العالم الغربي في كل الاتجاهات ، وبراعة الدعاية الغربية الدائبة " [3].

وبناءً على ما سبق يظهر: أنَّ نظرية السياق التي أكبَّ عليها العلماء بحثًا ودراسةً على أنها دراسات غربية – تمثلت بداياتها في جهود (مالينوفسكي) وصيغت على يد (فيرث) – هي في الحقيقة ذات أصول تراثية عند العرب في تفاسيرهم للنص القرآني ومعاجمهم اللغوية أو أقوالهم وآرائهم الشخصية.

---

[1] ترجمت بسياق الموقف أو الظروف الخارجية المصاحبة للأداء اللغوي . دلالة السياق : البركاوي : ٤٨.

[2] دلالة السياق : البركاوي : ٥٠-٥٢.

[3] اللغة العربية معناها ومبناها : تمام حسان : ٣٧٢ .

أنواع السياق :

يرى أصحاب النظرية السياقية أنَّ تعدد معاني الكلمة الواحدة يخضع للسياق الذي تكون فيه ، ولدراسة معناها لا بد من تحليل تلك السياقات والمواقف ، ويحكم استعمال الكلمة عندهم أمران : السياق اللغوي ، وسياق الموقف [١] .

لذلك قسَّمت أغلب الدراسات الحديثة السياق إلى هذين القسمين[٢]، أما الأنواع الأخرى من سياق ثقافي، وعاطفي، ومقصدي [٣]، وتداولي ، وإدراكي ، ونفسي اجتماعي[٤] فهو داخل فيهما. ولقد ارتكز هذا البحث على هذين النوعين دون إغفال لبعض الأنواع الأخرى المندرجة تحتهما فيما أسماه البلاغيون بمقتضى الحال . فما ذهب إليه المحدثون من أنواع للسياق لم تكن بدعًا، وإنما هي ذات أصول تراثية اختصرها بلغاء العرب في قولهم: (لكل مقام مقال\\).

أولًا : السياق اللغوي(السياق المقالي)[٥] :

هو مجموعة الوظائف المستفادة من عناصر المقال[٦]، سواءً كانت وظائف صوتية أم معجمية أم صرفية أم نحوية أم دلالية[٧] ، يقول أصحاب هذه النظرية: "معظم الوحدات الدلالية الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى .وإن معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها

---

[١] ينظر :السياق والنص : فطومة لحمادي : ٢٤٨-٢٤٩ ، علم الدلالة : ٦٨ .

[٢] بلاغة السياق في خواتيم سورة النحل : ١/ ٣٤٨.

[٣] ينظر : علم الدلالة : ٦٩ – ٧١ ، بلاغة السياق في خواتيم سورة النحل : ١/٣٤٨-٣٥٨ .

[٤] المقصود بالتداولي: دراسة النص كفعل كلامي، فلا يكتفى بدراسة شكل النص وإنما ما يؤديه من وظيفة فيعتمد فيه على تأويل النص باعتباره فعلا للغة ، أما الإدراكي فهو مختص بفهم النصوص ، والفهم الفعال لعناصر النص يكمن في ذاكرة المتلقي العلمية ومكتسباته المعرفية ، ويقصد بالسياق النفسي الاجتماعي ما تحدثه النصوص من تأثير على مستعملي اللغة سواءً فرديًا أم جماعيًا . ينظر : السياق والنص : ٢٥٢ -٢٥٤.

[٥] ينظر : بلاغة السياق في أواخر سورة النحل : ١/ ٣٤٨ .

[٦] ينظر: دلالة السياق : البركاوي : ٤٩.

[٧] ينظر : المرجع السابق : ٥٠ ، السياق والنص : ٢٥٥.

إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها"[1]؛ لذلك وجب العودة إلى نظام اللغة الصوتي والمعجمي والصرفي والنحوي والتركيبي والدلالي لفهم الدلالة الوظيفية للكلمة داخل نظام الجملة وما يجاورها [2].

ومثل هذا القول يعيدنا إلى نظرية عبد القاهر في النظم حين أثبت أن النظم في الكلم لا يكون إلا بتعلق بعضه ببعض، وبناء بعضه على بعض، لـ" أنَّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وإنَّ الفضيلة وخلافها ، في ملاءمة اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك ، مما لا تعلُّق له بصريح اللفظ"[3] ، فهو يَرُد إلى السياق كل ميزة ميزة وكل فضيلة، فعنه تنتج الفصاحة والتمكن والأثر في تلقي الكلمة[4]، وقد أجمل عبد القاهر القول في الفصاحة بقوله: " وجملة الأمر أنَّا لا نوجب (الفصاحة) للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكنَّا نُوجبها لها موصولة بغيرها، معلَّقًا معناها بمعنى ما يليها. فإذا قلنا: لفظة (اشتعل) من قوله تعالى: ﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾[5]، أنَّها في أعلى رُتبة من الفصاحة، لم تُوْجَب تلك (الفصاحة) لها وحدها ، ولكن موصولًا بها (الرأس) معرَّفًا بالألف واللام، ومقرونًا إليهما (الشيب) منكَّرًا منصوبًا"[6].

وعلى هذا يمكن القول: إنَّ السياق اللغوي هو كل ما يتعلق بما يحتويه النص من أساليب لغوية داخلة في بناء الكلام ، وارتباط بعضه ببعض من أصغر وحدة لغوية (الفونيم) إلى أكبرها (الجمل) مما يتوقف عليه إصابة الهدف و إبراز المعنى .

---

[1] علم الدلالة : ٦٨ -٦٩ ، نقلًا عن :Componetial: ١٩٦.

[2] ينظر : السياق والنص : ٢٥٣-٢٥٤ .

[3] دلائل الإعجاز :٤٦.

[4] ينظر : أصول النظرية السياقية الحديثة : ٣٦.

[5] مريم :٤.

[6] دلائل الإعجاز: ٤٠٢.

ثانيًا : السياق الخارجي (سياق الموقف والمقام والحال)[1] :

يتعلق هذا السياق بكل ما هو خارج عن السياق اللغوي ، فقد يضاف إليه مجموعة الآيات التي تدور حول غرض رئيس واحد، وقد يقتصر على آية واحدة ويضاف إليها، أو يمتد في السورة كلها، وقد يطلق على القرآن بأجمعه ويضاف إليه، فيكون هناك سياق آية، وسياق النص، وسياق السورة، والسياق القرآني، وهي دوائر تتداخل لإيضاح المعنى[2].كما يشمل المعطيات الاجتماعية والثقافية والشخوص والهدف والزمان والمكان ، وقد يدخل فيه أسباب نزول الآيات القرآنية أو أسباب الورود للأحاديث النبوية [3] .

ويظهر إدراك البلاغيين لأهمية هذا النوع من السياق في اشتراطهم مطابقة الكلام لمقتضى الحال في البلاغة، "والحال هو الداعي للمتكلم إلى إيراد الكلام على وجه مخصوص، أي: إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المراد خصوصية ما، وهو مقتضى الحال، مثلًا كون المخاطب منكرًا للحكم يقتضي تأكيد الحكم، والتأكيد مقتضى الحال" [4].

وقد أشار الجاحظ (٢٥٥هـ)[5] إلى هذا النوع من السياق عند حديثه عن أدوات البيان الخمس: اللفظ والإشارة والخط والعقد والحال ويسميها: النصبة ، ويقصد بها الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف[6].

---

[1] ينظر في هذه التسمية : دلالة السياق : البركاوي : ٢٨-٣٠ ، دلالة السياق : الطلحي : ١/ ٥٣ ، ٥٧، وذلك عند حديثه عن السياق عند اللغويين ،كما أفرد لسياق الموقف بابًا في الجزء الثاني من رسالته : ٢/ ٤٥٤ وما بعدها ، بلاغة السياق في خواتيم سورة النحل : ١/ ٣٥١.

[2] ينظر : دلالة السياق وأثره في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى: فهد الشتوي : ٤٢.

[3] ينظر : دلالة السياق : البركاوي : ٥٨ ، بلاغة السياق في خواتيم سورة النحل:١/ ٣٥١.

[4] الإيضاح : ١/ ٤١ ، مختصر السعد : ٣١ .

[5] عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ ،كبير أئمة الأدب، ولد في البصرة سنة ١٦٣هـ، ١٦٣هـ، وتوفي بها سنة ٢٥٥هـ ، له تصانيف كثيرة: منها:(الحيوان)، و(البيان والتبيين) و(سحر البيان) و(التاج) ويسمى: أخلاق الملوك، و (البخلاء) وغيرها . ينظر : الأعلام : ٧٤/٥.

[6] ينظر : البيان والتبيين: الجاحظ : ١/ ٨٢.

أما السياق الثقافي فهو ما عرف (بمعهود العرب) أو(معهود الأميين) [1] ، وقد جعله الشاطبي سبيلًا لفهم الشريعة حيث قال: "لابد في فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم – فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر ، فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة وإن لم يكن ثم عرف فلا يصح أن يجرى في فهمها على ما لا تعرفه. وهذا جار في المعاني والألفاظ"[2]، فالشاطبي"يقصر دور السياق في فهم الشريعة على تأويل النص وتفسيره، لا إنتاجه ؛لأنه كلام الخالق عزَّ وجل" [3].

مستويات السياق :

أولًا : المستوى الصوتي :

لقد ظهر المستوى الصوتي في التراث العربي عندما فرَّق العلماء ما بين الصوت والحرف من ناحية، وما بين الحروف الأصلية والفرعية من ناحية ثانية، فالوظيفة التي تؤديها الحروف العربية – خاصة فيما يتعلق ببناء الكلمات –كانت محل النظر والاعتبار عندما قسم سيبويه الحروف إلى أصلية وفرعية[4]، وكذلك عندما أفرد ابن جني (٣٩٢هـ)[5] كتابه(سر صناعة الإعراب)؛ لدراسة تلك الوحدات الصوتية التي تسمى في التراث العربي بـ (الحروف)، بعد تجريدها وانتزاعها من أبنية الكلم، فذكر أن أحوال الحرف تنحصر في كونه أصلًا، أو بدلًا، أو زائدًا، ولا شك أن لكل حرف في هذه الحالات وظيفة مختلفة، فوظيفة الحرف عندما يكون أصلًا تختلف عن وظيفته عندما يكون زائدًا، أما عندما يكون بدلًا فإنه يؤدي دلاليًا وظيفة

---

[1] يتفق هذا المفهوم مع ما سمي في الدراسات الغربية بالموسوعة وهي المعارف الجماعية التي تسري بين أفراد مجتمع أو جماعة ما . ينظر : بلاغة السياق في أواخر سورة النحل : ١/ ٣٥٥.

[2] الموافقات في أصول الشريعة : الشاطبي : ٢/ ٨٢ .

[3] بلاغة السياق في خواتيم سورة النحل: ١/ ٣٥٥ – ٣٥٦ .

[4] ينظر : دلالة السياق : البركاوي : ٨٩.

[5] عثمان بن جني الموصلي، أبو الفتح: من أئمة الأدب والنحو، ولد بالموصل ،وتوفي ببغداد٣٩٢هـ، من تصانيفه رسالة في (من نسب إلى أمه من الشعراء)،و(شرح ديوان المتنبي)، و(المبهج) ،و(سر الصناعة)،و(الخصائص) . ينظر : الأعلام : ٤/٢٠٤.

الحرف الذي أبدل منه، فتكون العلة من إبداله تحقيق غرض صوتي يتعلق بانسجام الوحدات الصوتية[١].

ولا تقتصر جهود العلماء في الأصوات على بيان المخارج الصوتية والصفات التي تميز بين الحروف، بل تعدى ذلك إلى تطبيق للمعارف الصوتية على دلالة الألفاظ من خلال التقابل بين الأصوات التي تؤلف الكلمات والمعاني التي تشير إليها هذه الكلمات[٢]، قال ابن جني: "وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدويّ الريح، وحنين الرعد ،وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس ونزيب الظبي، ونحو ذلك. ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل"[٣]، فهو يعرض رأي من ذهب إلى أن أصل اللغات إنما هو مسموع، ويَقْبَل به، حتى إنه تتبع أمثلته في كتابه (الخصائص) من خلال (باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) و(باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني)، فتناول العلاقة بين الأصوات والدلالات من خلال بيان الارتباط بين مجموعات ثلاثية من الأصوات وبين بعض المعاني ارتباطًا غير مقيد بترتيب، مثل: أصوات (ج ب ر) التي تدل على القوة والشدة، وأصوات (ق س و) الدالة على القوة والاجتماع، وأصوات (ر ك ب) الدالة على الإجهاد والمشقة وغيرها[٤]، كما ذكر أن مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث باب عظيم واسع، وذكر من أمثلته (خضم ، وقضم)، فأشار إلى دلالة الحرف على المعنى بالنظر إلى مخرجه فقال: "فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس؛ حذوًا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث ومن ذلك قولهم: النضح للماء نحوه والنضخ أقوى من النضح، قال الله سبحانه:﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾[٥]، فجعلوا الحاء –لرقَّتها– للماء الضعيف، والخاء –لغلظها– لما هو أقوى منه"[٦]، فقوة الحرف ثم

---

[١] ينظر : دلالة السياق : البركاوي : ٩١.

[٢] ينظر : مدخل إلى فقه اللغة العربية : أحمد قدور : ٢٢٣.

[٣] الخصائص : ابن جني : طبعة الهيئة المصرية : ١/٤٧–٤٨.

[٤] ينظر : المرجع السابق : ٢/١٣٦–١٣٨ ، السياق وتوجيه دلالة النص : عيد بلبع : ١٤٧–١٤٨.

[٥] الرحمن : ٦٦.

[٦] الخصائص : طبعة الهيئة المصرية : ٢/١٥٩–١٦٠.

دلالته التأثيرية تختلف باختلاف الحرف المقارن به، فالخاء مقارنة بالقاف في المثال الأول كانت الأضعف جرسًا، ولكنها في المثال الثاني هي الأقوى مقارنةً بالحاء[1]، فعلى هذا يمكن القول: إنَّ القيمة التعبيرية للصوت غير خاضعة لقانون معين، فهي قد تفيد القوة وقد تفيد الضعف مقارنة بغيرها كما في المثال السابق .

وهذه "الفكرة التي أوردها ابن جني حول التقابل بين الألفاظ وما دلت عليه من الأحداث هي فكرة الخليل[2]وتلميذه سيبويه[3]"[4]، وقد درسها الباحثون المحدثون في بحث (الاشتقاق الأكبر[5])[6]. وبهذا يتداخل هذا المستوى مع مستوى آخر من مستويات السياق يسمى: (المستوى الصرفي).

ولقد رأى المحدثون أن الصوت الذي نعده صوتًا هو في الحقيقة عدة أصوات، فليست (الجيم) العربية مثلًا صورة واحدة، وإنما تأخذ عدة صور تبعًا للسياق الصوتي الذي ترد فيه، والبيئة أو اللهجة، فكان الحل للجمع بين تلك الأصوات بأن جعل لكل صوت لغوي عام رمز (حرف) بحيث يصدق على جميع أفراد هذا الصوت اللغوي ، ومن هنا جاءت فكرة (الفونيم)

---

[1] دلالة السياق : البركاوي : ١١٤.

[2] الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي ، أبو عبد الرحمن، من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه النحويّ ، ولد سنة ١٠٠هـ ، وتوفي سنة ١٧٠هـ، له كتاب (العين)،و(معاني الحروف)،و(جملة آلات العرب)،و(تفسير حروف اللغة)وكتاب (العروض) و (النقط والشكل) و (النغم) . ينظر: الأعلام : ٣١٤/٢.

[3] أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي ، إمام النحو، حجة العرب، توفي سنة ١٨٠هـ وقيل: ١٨٨هـ سمي سيبويه ؛ لأن وجنتيه كانتا كأنهما تفاحتان . ينظر : وفيات الأعيان : ٤٦٣/٣-٤٦٥ ، سير أعلام النبلاء: ٣٥١/٨-٣٥٢.

[4] مدخل إلى فقه اللغة العربية : ٢٢٥.

[5] عرفه ابن جني بقوله : " وأمَّا الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلًا من الأصول الثلاثية، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنًى واحدًا، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه، وإن تباعد شيء من ذلك(عنه) رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل إليه ، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد". الخصائص : طبعة الهيئة المصرية : ١٣٦/٢، وما ذكره ابن جني تحت هذا العنوان (الاشتقاق الأكبر) عده اللغويون الذين أتوا بعده من (الاشتقاق الكبير)، إذ رأوا أن ألفاظ العربية تقوم على حروف ثلاثة أصلية ،هي العنصر الثابت فيها على اختلاف صورها وأبنيتها . ينظر : مدخل إلى فقه اللغة العربية :٢٤٧-٢٥١.

[6] ينظر : المرجع السابق : ٢٣٠.

الذي هو مفهوم ذهني مجرد يندرج تحته في الواقع الفعلي للغة عدة صور نطقية وهو المعول عليه في الوظيفة اللغوية ، فالاختلاف في (الجيم القاهرية والجيم المتعطشة)لا يترتب عليه اختلاف المعنى، ولا خلل في الوظيفة اللغوية [١]. فالدلالة الصوتية تستمد من طبيعة الأصوات في العبارة، وتتغير بتغير موطن النبر فيها، وتختلف باختلاف النغمة الكلامية لها ، فقد تنطق ذات العبارة بعدة نغمات مما يوحي بدلالة خاصة لكل نغمة [٢].

وبما أن الكلمات في العربية تتألف من أصوات أصلية وفرعية وحركات، فإنه من الطبيعي أن يكون لكل ذلك أثر في اختلاف الدلالة بين الكلمات المشتقة بعضها من بعض، والمختلفة في الصياغة، وهذا ما درسه علماء الأصوات فيما أسموه:(بالفوناتيك[٣]، والفونولوجي[٤]).

ثانيًا: المستوى الصرفي :

يتمحور هذا المستوى حول الوحدات الصرفية المعروفة باسم (المورفيمات)، والتي تشكل الدعامة الأساسية للنظام الصرفي لأي لغة، ولقد اهتم العلماء المحدثون بهذا المستوى الصرفي إذ قسموه إلى فصائل ووحدات وعلامات ، تتداخل كلها لتؤدي دورها في المعنى .

"إن مصطلح (الوحدة الصرفية) لا يدخل في إطار المصطلحات التي استعملها الصرفيون أو اللغويون العرب القدماء، وقد دخل مجال المستوى الصرفي الحديث ترجمة

---

[١] ينظر : علم الصوتيات : عبد العزيز علام ، عبد الله محمود : ٤٤-٤٦.

[٢] ينظر : دلالة الألفاظ : إبراهيم أنيس : ٤٦-٤٧.

[٣] يتميز هذا المصطلح بدراسة الأصوات في ماهيتها لذاتها من حيث مخارجها ، وخصائصها وصفاتها كل ذلك في ضوء وظيفتها اللغوية . ينظر : علم الصوتيات : ٤٧.

[٤] يعرف الفونولوجي بأنه : العلم الذي يدرس الأصوات باعتبارها وحدات ذات وظيفة لغوية ، تفرّق بين المعاني وتميّز بين الدلالات . ينظر : المرجع السابق : الصفحة نفسها.

للمصطلح (Morpheme) ، الذي أصبح يشكل محور الدراسات والبحوث المتعلقة بأشكال الكلمات وصيغها المختلفة " [١].

ولقد تحدث الدكتور تمَّام حسَّان عن هذا المصطلح (المورفيم) من خلال المباني الصرفية، حيث رأى أن " المباني الصرفية (Morpheme) تعبر عن المعاني الصرفية الوظيفية ... وأن هذه المباني نفسها أبواب تندرج تحتها علامات تتحقق المباني بواسطتها لتدل بدورها على المعنى، فالمعاني الصرفية والمباني من نظام اللغة، ولكن العلامات المنطوقة أو المكتوبة تنتمي إلى الكلام "[٢]، فمثلًا: معنى (التأنيث) يقتضي مبنى يدل عليه كـ (التاء) فتكون علامتها في الاسم المؤنث (فاطمة) هي التاء المربوطة، وكذا معنى (التثنية) في الاسم يدل عليه وجود (الألف والنون أو الياء والنون الزائدتين) فأصبحت علامة له [٣].

ومن هنا رأى الدكتور البركاوي أن الوحدات الصرفية[٤]في اللغة العربية تتعدد بتعدد الفصائل الصرفية[٥] من ناحية ، وبتعدد التقسيمات العقلية لهذه الفصائل من ناحية أخرى ، فمثلًا : (فصيلة الجنس) يندرج تحتها وحدتان صرفيتان هما: (وحدة التأنيث ، ووحدة التذكير) ولكل منهما علامات في اللغة العربية، وكذا (فصيلة العدد) يندرج تحتها ثلاث وحدات صرفية هي: (وحدة الإفراد، والتثنية، والجمع) ولكل منها علامته، ولتعدد (وحدة الجمع) في اللغة العربية بحسب (الكم ،والنوع ،والعدد) كادت أن تصبح فصيلة صرفية [٦].

---

[١] دلالة السياق : البركاوي : ١٢٢.

[٢] اللغة العربية مبناها ومعناها : ٨٢.

[٣] ينظر :المرجع السابق : ٨٢-٨٥.

[٤] هي مجموعة الوحدات الصرفية المندرجة تحت فكرة عامة مجردة أطلق عليها اللغويون المحدثون مصطلح (الفصيلة) . ينظر:دلالة السياق : البركاوي : ١٥١.

[٥] يقصد بها فكرة عامة خصصت لها اللغة وحدة أو مجموعة من الوحدات اللغوية التي تعبر عنها ، كفصيلة أو فكرة (العدد) قد عبر عنها لغويًا بالوحدات الصرفية الدالة على الإفراد والتثنية أو الجمع . ينظر : المرجع السابق : ١٥١.

[٦] ينظر : المرجع السابق : ١٥٤ وما بعدها.

فهذا المستوى يدرس الكلمة من حيث تركيبها وما يطرأ عليها من تغييرات تؤدي إلى تغير في المعاني .

ثالثًا : المستوى النحوي :

لما كان تحليل الصيغ المعجمية (الكلمات) يمكن أن يكون على شكل وحدات صوتية يتغير المعنى المعجمي بتغيرها، ولكنها لا تؤدي معنًى في ذاتها، وكما يمكن أن يتم التحليل عن طريق الوحدات الصرفية التي تحمل معنى مستقلًا بذاته بحيث لا يمكن أن يتجزأ إلى أصغر من ذلك دون إخلال بالمعنى، فإن تحليل الجمل والتراكيب جاء من نفس هذا المنطلق؛ إذ قسمت الجمل إلى: وحدات نحوية وهي أصغر وحدات التركيب النحوي التي تؤدي معاني نحوية مستقلة، وملامح نحوية وهي أصغر وحدات التركيب النحوي التي لا تدل على معنى في ذاتها ، ولكن تغيرها يؤدي إلى تغير المعنى النحوي للوحدات النحوية، كـ (ملمح الترتيب) مثلًا قد يؤثر في المعنى النحوي ، فقولك:(فلان يغني) أشار الترتيب فيها إلى أن الجملة خبرية، ولو عكس هذا الترتيب لتحول المعنى إلى الاستفهام ، فالمعاني النحوية لها أهميتها في التحليل النحوي[1]، وهذه المعاني النحوية قد سبق إليها عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) حين تحدث عن النظم حيث قال: "اعلم أن ليس (النظم) إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه (علم النحو)، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها ؛وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه"[2]. وسرد أمثلة على تلك الفروق ؛ وذلك من خلال النظر إلى وجوه الخبر، ووجوه الشرط والجزاء، والنظر إلى الحروف التي قد تشترك في معنى، وتنفرد بخصوصية في ذلك المعنى، وبالتصرف في التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والإضمار والإظهار وغيرها؛ ليتبيَن ما بينها من فروق؛ ليضع كل شيء في موضعه، ثم انتهى الجرجاني إلى أن ما تجده من صحة وفساد في النظم أو مزية وفضل فيه مرجعها إلى معاني النحو وأحكامه [3].

---

[1] ينظر : المرجع السابق : ١٩٤-١٩٥.

[2] دلائل الإعجاز :٨١.

[3] ينظر : المرجع السابق : ٨٢-٨٣.

فعلى هذا فإن المستوى النحوي يدرس الجملة من حيث طريقة تركيبها وعلاقة أجزائها مع بعضها ، وطريقة الربط داخل الجملة وبين الجمل .

رابعًا: المستوى المعجمي :

لم يُعْنَ اللغويون بتدوين اللغة في رسائل وكتب مفردة فحسب، بل اتجهوا إلى تأليف المعاجم التي تضمّ مفردات اللغة مشروحة ومرتبة ترتيبًا معينًا. والناظر في تراث المعجمية العربية يلحظ أن العرب فاقوا غيرهم قديمًا وحديثًا في العناية بالمعاجم[1]، وكان لهذه العناية أثر بارز في خدمة الدارسين، حيث إنَّ معرفة معاني الكلمات والفوارق الدقيقة فيما بينها، هو ما يبرز جماليات استخدام لفظ دون آخر في سياق معين .

وبالنظر إلى المستوى المعجمي لدى المحدثين تجد أنه يدرس المعنى المقالي وفقًا لمعنيين : معنى معجمي قائم على علاقات عرفية اعتباطية بين المفردات ومعانيها كما في المعجم ، ومعنى وظيفي قائم على وظائف الصوت والصرف والنحو، فإذا انفردت العلاقات العرفية بين الكلمات ومعانيها بالوجود ولم توضع في سياق، فلن يؤدي معرفتها إلا إلى فهم الكلمات المفردة، ومثل هذا الفهم لا يكشف عن معنى المقال؛ لأن الذي لدينا مفردات فقط، فالمعنى المقالي يحتاج إلى المعنى الوظيفي كما يحتاج إلى المعنى المعجمي[2] .

خامسًا : المستوى الدلالي :

اهتم ابن جني بالدلالة المتعلقة بالألفاظ أو المعاني المستفادة منها، وقسم هذه الدلالة إلى ثلاثة أقسام: دلالة لفظية ويقصد بها دلالة اللفظ على معناه الوضعي المستفاد من المادة المعجمية، والدلالة الصناعية ويقصد بها دلالة الصيغة أو الشكل المعين للكلمة على معنى إضافي لاحق بالمعنى الأصلي، والدلالة المعنوية ويقصد بها دلالة الالتزام أو التضمن وهي دلالة عقلية، فقول: (قام) إثبات لحدث القيام في زمن الماضي ويلزم عنه وجود شخص يسند إليه

[1] ينظر : مدخل إلى فقه اللغة العربية : ٢٨٧.

[2] ينظر : اللغة العربية مبناها ومعناها : ٣٤١ -٣٤٢.

ذلك الفعل، ولم يقصد ابن جني حصر أنواع الدلالة على ما سبق حيث أشار إلى أنواع أخرى من الدلالة مثل دلالة علامات الإعراب على المعاني النحوية ، ودلالة السياق اللغوي، ودلالة الحال أو السياق الخارجي[١] .

أما اللغويون المحدثون فمنهم من قال بالمناسبة الطبيعية ما بين الألفاظ والدلالات ، ومنهم من عارض هذا الرأي لكونه لا تتضح في كثير من الكلمات ، فممن انتصر لأصحاب المناسبة بين الألفاظ ودلالاتها (جسبرسن) الذي لخص آراء أصحاب هذا المذهب، إذ عدَّ الألفاظ بمثابة الصدى لأصوات الطبيعة، وقد تنتقل لتصبح معبرة عن مصدر ذلك الصوت، وقد ترتبط في بعض الأحيان بالحالات النفسية كالكلمات التي تعبر عن الغضب أو النفور، كما أشار إلى رمزية الألفاظ، فكلمات اللغات في نظره تزداد مع الأيام إيحاءً للدلالات، وتكتسب مع مرور الزمن قدرًا أكبر من الرمزية. أما (دي سوسير) فيُعد من أشهر المعارضين لأصحاب الصلة بين الألفاظ والدلالات، إذ يراها اعتباطية لا تخضع لمنطق أو نظام معين، فمع اعترافه بالصلة التي تعد بمثابة الصدى للأصوات الطبيعية، إلا أنه يقرر أنها قلة في اللغات، بحيث لا تصلح أن تتخذ أساسًا لظاهرة لغوية مطردة[٢].

والأمر كما قال إبراهيم أنيس: لم يبد واضحًا في علاج كل أولئك الباحثين، لذا نبه إلى "وجوب التفرقة بين الصلة الذاتية والصلة المكتسبة، ففي كثير من ألفاظ كل لغة نلحظ تلك الصلة بينها وبين دلالاتها، ولكن هذه الصلة لم تنشأ مع تلك الألفاظ أو تولد بمولدها ، وإنما اكتسبتها اكتسابًا بمرور الأيام وكثرة التداول والاستعمال ، وهي في بعض الألفاظ أوضح منها في البعض الآخر، ومرجع هذا إلى الظروف الخاصة التي تحيط بكل كلمة في تاريخها، وإلى الحالات النفسية المتباينة التي تعرض للمتكلمين والسامعين في أثناء استعمال الكلمات " [٣].

---

[١] ينظر : دلالة السياق : البركاوي : ١٦.

[٢] ينظر : دلالة الألفاظ : ٦٨-٧١.

[٣] المرجع السابق : ٧١.

ويرى أحمد قدور أن موضوع الدلالة لا يقتصر على المسائل التي تتصل بالألفاظ من حيث أصلها ونوع العلاقة التي تربطها بالمعاني، بل تتعداه إلى جانب أوسع، وهو أنواع الدلالة، فألفاظ اللغة من حيث دلالتها ثلاثة أنواع : المتباين وهو أن يدل اللفظ الواحد على معنى واحد، والمشترك وهو أن يدل اللفظ الواحد على أكثر من معنى، فإن كانا غير متضادين فهو المشترك اللفظي، وإن كانا متضادين فهو من باب الأضداد، والمترادف وهو أن يدل أكثر من لفظ على معنى واحد[1]، ومن الممكن أن يُلحق بهذه الأنواع مسائل أخرى كالفروق والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد[2]، وبهذا اتسعت دائرة دلالة اللفظ إلى ما يجاورها؛ لتشمل دلالة اللفظ داخل السياق الذي ترد فيه، ثم أصبح أكثر شمولية إذ يبحث في اختلاف المعاني باختلاف المنشئين واختلاف التراكيب اللغوية وربطها بمقتضى الحال؛ ليصل إلى أعلى مستويات التحليل وهو المستوى الدلالي الذي ينظر إلى النص من خلال كل المستويات السابقة؛ وذلك لأن الحقائق التي نصل إليها بواسطة التحليل على تلك المستويات هي حقائق جزئية يُستعان بها للوصول إلى المعنى الدلالي للنص ، فهو يحتاج إضافة إلى ذلك كله إلى ملاحظة عنصر المقام[3].

وظائف السياق :

لقد عرَّف فيرث مصطلح (السياق اللغوي) وقصد به مجموعة الوظائف المستفادة من عناصر أداء المقال التي تحوزها الوحدة اللغوية أي: الجملة، إذ أصبح السياق اللغوي في نظره بناء متكاملًا من الوظائف التي تؤديها عناصر هذا السياق .

وقد انقسمت هذه الوظائف وفقًا لمستويات اللغة المختلفة إلى الأقسام التالية : الوظيفة الصوتية، والوظيفة الصرفية، والوظيفة المعجمية، والوظيفة النحوية، والوظيفة الدلالية، فهذه الوظائف الخمس جميعها ضرورية في تحليل السياق اللغوي؛ لأنها جميعًا داخلة في إطار

[1] ينظر : المزهر في علوم اللغة وأنواعها : السيوطي: ١/٣٠٤-١،٣٠٥/٣١٦-٣١٧ .

[2] ينظر : مدخل إلى فقه اللغة العربية : ٣١٨.

[3] اللغة العربية مبناها ومعناها : ٣٤١-٣٤٢.

المعنى، وإن كان للوظيفة المعجمية والصرفية والنحوية أهمية خاصة باعتبارها وظائف جوهرية حاكمة [١].

وهذه الوظائف التي تحدث عنها فيرث من خلال السياق اللغوي ظهرت ملامحها في الأسس السياقية في التراث العربي سابقًا إذ كانت الجملة هي وحدة التحليل الدلالي وليست المفردة ، كما أن مراعاة المقام أو السياق الخارجي يعتبر من الأسس المهمة في التراث العربي لفهم المعنى ؛ لذا اهتم اللغويون والأصوليون والمفسرون وعلماء البلاغة به؛ لأنه قد يتضافر السياق الخارجي مع السياق اللغوي للكشف عن المعنى المقصود أو الغرض الذي سيقت من أجله الجملة، ومن ملامح (السياقية العربية) أيضًا مراعاة وظائف الوحدات الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية عند فهم النصوص وتحليلها [٢].

الوظيفة الصوتية :

" لقد تعرض التراث العربي لعدة أبعاد في رصد الوظيفة الصوتية، منها ما يتعلق بالدرس اللغوي الخالص، ومنها ما يتعلق بالأبعاد البلاغية للصوت، ومنها ما يتعلق بوظيفة الصوت في إنتاج الدلالة، لتتشكل من هذه الأبعاد ... بعض ملامح النظرية السياقية العربية فيما يتعلق بالصوت"[٣].

من ملامح هذه النظرية (ظاهرة التأليف) القائمة على فكرة تقارب المخارج وتباعدها، " وهذه الظاهرة هي التي استعان بها القدماء من نقاد الأدب في الكشف عما سموه (التنافر اللفظي)، وعلى أساسها بنوا نقدهم لكلمة (مستشزرات) التي وردت في معلقة امرئ قيس، ولعبارة (وليس قرب قبر حرب قبر)، ومرجع كل ذلك كما ذكرنا إنما هو إلى الذوق العربي الذي يتجه إلى ما اصطلحنا على تسميته: (كراهية التضاد أو التنافر)" [٤].

---

[١] ينظر : دلالة السياق : البركاوي : ٥٠.

[٢] ينظر : المرجع السابق : ٥٤-٧٣.

[٣] السياق وتوجيه دلالة النص : ١٤٢.

[٤] اللغة العربية معناها ومبناها : ٢٦٩.

ولقد أورد عيد بلبع هذا القول واستفاض في شرحه وبيانه، حيث أشار إلى تعرض البلاغيين لهذه الظاهرة في تفريقهم بين الفصاحة والبلاغة، إذ جعلوا هذا التنافر من الظواهر المنافية لفصاحة الكلمة ، واستشهد على ذلك بذكر رأي القزويني[١] وتعليق ابن الأثير على كلمة (مستشزرات)[٢]، وبقول الجاحظ المتعلق بتنافر الألفاظ [٣]؛ لثقلها على اللسان في عملية النطق كما في (وليس قرب قبر حرب قبر)، فتبروء بعض الألفاظ من بعض يتنافى مع الانسجام الصوتي للسياق، وبذلك يأتي هذا البعد الصوتي مسجلًا وجهًا من الأوجه السياقية التي سبق إليها العقل العربي، إذ نرى البعد الصوتي في التناول العربي للكلمة والجملة يصرف بعض اهتمامه إلى بعد المناسبة والذوق، وهذا البعد نفسه هو الذي أسس لما عُرف في البلاغة العربية بالمحسنات اللفظية – كالجناس والسجع– التي تعلقت بالتناسب الذوقي في معيار الحسن والقبح، وتعلقت بمعيار الوظيفة الدلالية للكلمة المفردة في الجملة إضافة لبُعدها الصوتي [٤].

وقد أجمل البركاوي النتائج التي توصل إليها العلماء العرب أو ساعدوا في التوصل إليها فيما يتعلق بتلك الوظائف الصوتية[٥].

---

[١] " أما فصاحة المفرد فهي خلوصه من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس اللغوي ، فالتنافر منه ما تكون الكلمة بسببه متناهية في الثقل على اللسان وعسر النطق بها، كما روي أن أعرابيًّا سئل عن ناقته فقال: (تركتها ترعى الهمخع) ، ومنه ما هو دون ذلك كلفظ (مستشزرات) في قول امرئ القيس : غدائره مستشزرات إلى العلا ... تضل العقاص في مثنى ومرسل " الإيضاح : ٢٣/١.

[٢] " فلفظة (مستشزرات) مما يقبح استعمالها؛ لأنها تثقل على اللسان ويشق النطق بها، وإن لم تكن طويلة ؛ لأنا لو قلنا: (مستنكرات) أو (مستنفرات) على وزن (مستشزرات) لما كان في هاتين اللفظتين من ثقل ولا كراهة " . المثل السائر : ٢٠٥/١.

[٣] " ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه. فمن ذلك قول الشاعر:وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر " . البيان والتبيين : ٧٤/١.

[٤] ينظر : السياق وتوجيه دلالة النص : ١٤٤-١٤٨

[٥] من تلك النتائج : أن وظائف الوحدات الصوتية في اللغة العربية تختلف باختلاف السياق الذي ترد فيه .وأن الوحدات الصوتية الصامتة تؤدي إحدى الوظائف الثلاث: وظيفة معجمية وهي الوظيفة الصوتية الأساسية (البنائية) أو وظيفة صوتية صرفية (كما في حروف الزيادة)أو وظيفة صوتية نحوية (مثل حركات الإعراب) .كما أن بعض الوحدات=

الوظيفة الصرفية :

تعد هذه الوظيفة وفقًا لنظرية السياق واحدة من الوظائف الحاكمة التي تراعى في النص، ويراد بها ما تؤديه الوحدات اللغوية من معان في إطار الكلمة أو الجملة ، وتشكل هذه الوظيفة واسطة العقد ما بين الوظيفة الصوتية والوظيفة النحوية في التحليل اللغوي [١].

وهذه الوظيفة متعلقة بغيرها من الوظائف اللغوية، فمن مظاهر تعلقها بالمستوى الصوتي في الدرس البلاغي ربطهم بين الظاهرة الصوتية والصرفية للكلمة فيما أسموه بـ (الجناس الاشتقاقي)، وقد يكون ارتباطها بالمستوى المعجمي أشد؛ وذلك لما تنتجه البنية الصرفية من دلالة مستقلة بذاتها، وأما تعلقها بالوظيفة النحوية فيظهر من خلال تطلُّب التراكيب النحوية لبنية صرفية محددة وترك ما عداها؛ لتؤدي ما يقتضيه السياق الخارجي من دلالة[٢]؛ إذ إنَّ هناك نوعًا من الدلالة يستمد عن طريق الصيغ وبنيتها، فقد يلجأ المتكلم إلى صيغ المبالغة مثلًا بدلًا من غيرها ليمد السامع بقدر من الدلالة لم يكن ليصل إليه أو يتصوره لو أن المتكلم استعمل صيغة أخرى كاسم الفاعل مثلًا [٣].

الوظيفة المعجمية :

لكل كلمة في اللغة دلالتها المعجمية التي تستقل بها عما يمكن أن توحيه أصوات هذه الكلمة أو صيغتها من دلالات زائدة على تلك الدلالة الأساسية التي يطلق عليها (الدلالة الاجتماعية)[٤]، فقد تكتسب الكلمة دلالة إضافية كالقوة والعنف؛ وذلك عن طريق تكوينها

=الصوتية الصامتة قد تؤدي وظيفة تأثيرية إما وحدها أو مع غيرها من الوحدات .وقد ينجم عن هذه الوحدات الصوتية صور صوتية ، لها وظيفتها في تحقيق الانسجام الصوتي ينظر : دلالة السياق : البركاوي : ١١٨-١٢٠.

[١] المرجع السابق : ١٢١.

[٢] ينظر : السياق وتوجيه دلالة النص : ١٤٩.

[٣] ينظر : دلالة الألفاظ : ٤٧.

[٤] ينظر : المرجع السابق : ٤٨.

الصوتي، كما قد تكتسب عن طريق صيغتها دلالة زائدة عن دلالتها الأساسية، كما في صيغ المبالغة مثلًا .

وكما تعلقت الوظيفة الصرفية بالوظيفة النحوية ، كذلك تتعلق الوظيفة المعجمية بها؛ وذلك لأن "السياق النحوي هو معيار تحديد الدلالة ، فالمعنى المعجمي قد يتعدد للكلمة الواحدة، بل قد تعني الكلمة المعنى وضده، ولا يتحدد هذا إلا بالسياق " [١].

الوظيفة النحوية :

للجملة في اللغة العربية نظامها الخاص بها ، القائم على ترتيب أطراف الجملة ومتعلقاتها بما يُيَسر فهم مضمونها ودلالتها؛ إذ المقصود منها الإبانة عن مراد المتكلم، ولا يخفى على الدارس ما لهذا الترتيب من أثر بارز في الدلالة، فالمتكلم قد يعمد إلى نوع من الجمل دون آخر بما يقتضيه المقام، ففي الجملة الفعلية مثًلا ، إن توجه المتكلم إلى (الفعل) فقدَّمه، كان غرضه مغايرًا فيما لو قدم (الفاعل) في الجملة ذاتها؛ وذلك لاختلاف المعنى الضمني الذي ينتجه التركيب النحوي في كل جملة، "إذ قد يقتضي التخصيص تقديم ما حقه التأخير ... والضابط هنا هو السياق الخارجي الذي يتطلب سياقًا تركيبيًا نحويًا في موقف ويطرح ما عداه، كما يتطلب بنية صرفية ويطرح ما عداها ... ومن هنا يكون الفصل بين السياق اللغوي ... وبين السياق الخارجي أمرًا عسيرًا "[٢]. وهذا ما رآه عبد القاهر الجرجاني حين وضع نظرية النظم؛ إذ نظر إلى العلاقة ما بين اللفظة وبين تركيبها النحوي من خلال السياق الذي ترد فيه .

الوظيفة الدلالية :

هي " وظيفة المنطوق بأكمله في إطار الموقف الخارجي الذي سيق فيه"[٣].

---

[١] السياق وتوجيه دلالة النص : ١٥٠.

[٢] المرجع السابق : ١٥٦.

[٣] دلالة السياق : البركاوي : ٥٠.

الفصل الأول

أثر السياق القرآني في اقتضاء المفردة

المبحث الأول: المستوى الصوتي

المبحث الثاني: المستوى الصرفي

المبحث الأول

المستوى الصوتي

لاحظ علماء اللغة نوعًا من الارتباط بين جرس الكلمة وأثره في دلالتها في بعض الأحيان، فسجلوا ذلك تحت عنوانين: أولهما : المحاكاة أو دلالة الكلمة بجرسها على مدلولها [1]، وثانيهما: التأليف، والمقصود به تركيب الكلمة من أصوات يحسن أو يقبح تجاورها لما بينها من قرب المخارج أو بعدها[2] .

ولقد عني القرآن بهذا الجرس في تجسيد المعاني وتصويرها، وذلك من خلال اختيار الكلمة القرآنية المطابقة لمقتضى الحال، فتتنوع الأصوات في السياق الواحد، ما بين شدة ولين وما بين همس وجهر؛ لترسم بذلك لوحات تصويرية واضحة المعالم تُبرز مشاهد القصص القرآني.

فالمادة الصوتية وما تتضمنه من إيقاع وتكرار وما تحويه من تأثيرات صوتية تُسهم في إثراء المعنى ، حيث تلقي عليه ظلالًا دلاليةً مرتبطةً بالوجدان ومحكومة بالسياق .

ونظرًا لأهمية هذا الصوت في تصوير المشهد فقد جاء هذا المبحث ليكشف عن أسرار هذا التنوع وقيمته الدلالية من خلال أثر صفات الحروف في اقتضاء المفردة.

فمما يساعد على إنتاج الصوت اللغوي وجود مخرج لكل حرف، بالإضافة إلى تفرده بصفات تميزه عن غيره، وبما أن "الصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظًا ولا كلامًا موزونًا ولا منثورًا إلا بظهور الصوت،

---

[1] ذكر ابن جني في باب (في إمساس الألفاظ أشباه المعاني) كلامًا في مثل هذا المعنى حيث ذكر بعض الأقوال للخليل وسيبويه في محاكاة الصوت للصورة الخارجية كلفظ (صرَّ) و(صرْصر)، فالأول صوت الجندب والثاني صوت البازي، وجعل الأول مشددًا مفتوحًا لما في صوت الجندب من مد واستطالة بخلاف صوت البازي المتقطع فجاء صوته محاكيًا لذلك التقطيع . ينظر: الخصائص: تحقيق: الشربيني شريدة : ٢/ ١٥١ وما بعدها .

[2] الأصول: تمام حسان:٢٥١ .

ولا تكون الحروف كلامًا إلا بالتقطيع والتأليف"[1] كان لتلك الصفات أثر بارز في التباين ما بين المفردات.

والمتأمل يدرك "أن في اللغة معاني تتطلب أصواتًا خاصة ، وأن هناك من المدلولات ما تسارع اللغة للتعبير عنه بألفاظ معينة"[2]، بمعنى أن هناك صلة بين الأصوات والمدلولات .

ولقد أدرك علماء العربية هذه الصلة ، والتي ظهرت في عدة نواح منها :

- ما هو تقليد مباشر لأصوات طبيعية صادرة عن الإنسان: (القهقهة، والنحنحة، والتأوه)، أو الحيوان (صهيل الفرس، ومواء الهر، ونباح الكلب)، أو الأشياء (خرير الماء، وهزيم الرعد، وصرير القلم) .
- ما يكون بزيادة المبنى، كظاهرة تضعيف عين الفعل للتعبير عن المبالغة في الحدث.
- ما يكون بالتكرار للصوت كما في (جرَّ وجرجر) و(ثرَّ وثرثر) وغيرها من الظواهر اللغوية .

ولقد رأى إبراهيم أنيس أنَّ مثل هذه الأمور نلحظها في بعض اللغات، فتحملنا على التسليم بفكرة الارتباط بين الأصوات والمدلولات، ولكنها غير كافية لتأييد تلك الفكرة بحيث نؤمن بوثوق الصلة بين الأصوات والمدلولات صلة منطقية عقلية في الذهن الإنساني العام، ولذلك من العسير جعل تلك الصلة من الأمور المنطقية الثابتة، وليكون الباحث منصفًا لا يسعه إلا أن يعدّ أولئك الذين انتصروا لهذه الفكرة قومًا من الأدباء يستشفون في الكلمات أمورًا سحرية يتخيلونها في منطقها رموزًا وعلامات لا يراها العالِم اللغوي[3].

وعلى الرغم من عدم وجود الصلة المنطقية، فإنه لا يمكن إنكار وجود رابطٍ ما؛ فما تتميز به الأصوات من صفات متباينة قد تشكل ذلك الرابط، فقد تتعدد أصوات معينة لها

---

[1] البيان والتبيين : ١/ ٨٤ .

[2] من أسرار اللغة : إبراهيم أنيس : ١٢٤.

[3] ينظر : المرجع السابق : ١٢٠ – ١٢٧.

الصفات ذاتها في سياق دون آخر، مما يشير إلى أثر ذلك السياق في اختيار لفظ دون آخر، ويظهر هذا جليًا في دراسة كلٍّ من الأصوات المهموسة والمفخمة والمرققة فيما يلي:

الأصوات المهموسة :

الصوت المهموس[١]: "هو الذي لا يهتز معه الوتران الصوتيان، ولا يسمع لهما رنين حين النطق به"[٢]، وهي عشرة أصوات: "الهاء، والحاء، والخاء، والكاف، والشين، والسين، والتاء، والصاد، والثاء، والفاء"[٣].

ولقد وردت مجموعة من هذه الأصوات المهموسة بشكل لافت في قصة المراودة نحو: (راودته، وهيت لك، وهمَّت به، وهمَّ بها، وبرهان ربه، وراودتني، وشهد، وشاهد، وأهلها، وتراود، وفتاها، ونفسه، وشغفها ... ".وكثرت ورودها دليل على التربية القرآنية للفرد والمجتمع عند التطرق لمثل هذا الموضوع، والذي يقتضي عدم التشعب في عرض تلك اللحظات، حتى لا تتوسع دائرة الشوق الجنسي، أو حصر أشواق الانسان في تلك اللحظات العابرة ، فـ "القرآن لا يهتف لنقص الانسان وهبوطه، ولكن يهتف له بأشواق السمو والاستعلاء"[٤]، فهو يحث على الستر والبعد عن الفحش في القول.

ولعل أكثر الأصوات ورودًا (الهاء) وهو صوت رخو مهموس، يظل المزمار منبسطًا عند النطق به دون أن يتحرك الوتران الصوتيان، فيُحدث نوعًا من الحفيف عند اندفاع الهواء[٥].

فطلب امرأة العزيز للمراودة بلفظ (هيت) له دلالات وأبعاد نفسية تظهر من خلال أصواته. جاء في المفردات: "هَيْتَ : قريب من هلمّ، وقرئ : هِئتَ لَكَ: أي: تهيّأت لك، ويقال: هَيْتَ به، وتَهَيَّتْ: إذا قالت: هَيْتَ لك. قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [٦]".

---

[١] جاء في الكتاب: سيبويه: " وأما المهموس فحرفٌ أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه ". ٤/٤٣٤.

[٢] الأصوات اللغوية : إبراهيم أنيس: ٢٢.

[٣] الكتاب:٤/٤٣٤ .

[٤] الصورة الفنية في القصة القرآنية : بلحسني نصيرة : ١٣٧.

[٥] الأصوات اللغوية : ٧٧.

[٦] يوسف : ٢٣.

والأصل فيه حكاية صوت، بمعنى أقبل، وقيل: هلم وتعال، وقيل: إنها بمعنى تهيأت لك[٢].وقال البقاعي (٨٨٥ هـ)[٣]: "وقالت هيت : أي تهيأت وتصنعت لك خاصة، فأقبل إليّ، وامتثل أمري"[٤].

ولقد اختارت امرأة العزيز لمراودتها لفظ (هيت) المعبر دلاليًا عن الرغبة الغريزية للجماع[٥]؛ لتصوِّر أبعاد تلك الرغبة، فابتدأت بحرف الهاء المهموس، المشعر بالخفاء، المصوِّر لرغبتها الشديدة الممزوجة بالخوف، وانتهت بالتاء المهموسة؛ لتمزج رغبتها بالرقة والتلطف في الطلب. فهي وإن كانت سيدة المنزل فقد اعتراها ما يعتري بنات جنسها، من غلبة العاطفة على العقل، فأظهرت مكنونات قلبها ومشاعرها في لفظة (هيت) دون النظر إلى عواقب هذا الفعل.

ولقد اختلف أهل الغريب في هذه الكلمة ، هل هي عربية أو معربة ؟ وهل هي بمعنى (تعال) أو هي كلمة حث وإقبال أو غير ذلك ؟[٦].

" أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: هيت لك: هلم لك، بالقبطية، وقال الحسن: هي بالسريانية كذلك ...وقال عكرمة: هي بالحَوْرَانِيَّة كذلك ...، وقال أبو زيد الأنصاري: هي بالعبرانية ، وأصله هيتلج أي: تعاله"[٧].

بينما يرى عبد الكريم الخطيب أنَّ هذه اللفظة "صوت استدعاء لهذا الأمر الذي يكون بين الرجل والمرأة، وقد جاء به القرآن الكريم، على هذه الصورة التي لم تعرفها اللغة العربية في

---

[١] المفردات : ٨٤٧.

[٢] ينظر : لسان العرب : ١٠٥/٢، ٦١٨/١٢ ، تاج العروس : الزبيدي: ١٤٧/٥-١٤٨، ١١٥/٣٤.

[٣] إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي، أبو الحسن برهان الدين: مؤرخ وأديب. ولد سنة ٨٠٩هـ، وتوفي سنة ٨٨٥ هـ بدمشق ، وله عدة كتب منها : (عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران) ، و(نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) وغيرها من المصنفات، وله ديوان شعر سماه (إشعار الواعي بأشعار البقاعي) . ينظر: الأعلام: ٥٦/١.

[٤] نظم الدرر: البقاعي : ٦٠/١٠.

[٥] لغة الحوار: أحمد جمال الدين : ١٦.

[٦] ينظر: تاج العروس : ١٤٨/٥.

[٧] الإتقان: السيوطي : ١٤٠/٢-١٤١.

لسانها قبل نزول القرآن؛ لأنه يحدِّث عن حال من شأنه أن يكون سرًّا بين الرجل والمرأة، ولغة مفهومة لهما، لا يعرفها غيرهما، وذلك إعجاز من إعجاز القرآن، ودع عنك ما ذهب إليه الذاهبون من تأويلات وتخريجات لكلمة (هيت)، وخذها على أنها حكاية صوت، لا على أنها من لغة التخاطب المتعامل بها في كل مقام"[١].

لذا لم يستبعد الدكتور أحمد جمال الدين أن تكون هذه الكلمة هي للتعبير عن تلك الرغبة، "وكأنها حكاية صوت لا يختلف بين اللغات ، كقول المتألم:(آه)، فهي تصدر بنفس الأصوات تقريبًا مع اختلاف اللغات، وعلى هذا يكون التعبير القرآني نقل صورة صوتية حقيقية لامرأة العزيز تعبر عن رغبتها، دون ترجمتها، أو التصرف فيها، وبذلك تكون هذه الكلمة الصغيرة قد أغنت عن الكثير من الكلام، وعبَّرت عن الموقف أصدق تعبير"[٢].

وذِكرُ هذا اللفظ كفيل بإبراز ما لصوت المرأة من تأثير في تحريك الغرائز وإثارة الشهوات، فمراودتها باتت مكشوفة "والدعوة فيها سافرة إلى الفعل الأخير، وحركة تغليق الأبواب لا تكون إلا في اللحظة الأخيرة"[٣]، فهي لم تنطق بهذه الكلمة إلا بعد أن تمكَّن منها الهوى وأخذ منها مأخذه فلم تستطع أن تقاوم رغبتها، أو لعلها قاومت ولم تستطع التحكم في عواطفها، فكان لفظ (هيت) طبيعيًا متنفسًا لها ، فالسياق – إذًا – اقتضى استعمال هذه الكلمة التي لم ترد في القرآن إلا في هذا الموضع لدقة تصويرها للحدث القصصي .

وإذا نظرت إلى لفظي(همَّت وهمَّ) وما يحمل حرف الهاء المردوف بالميم[٤]فيهما من الإجهاد والتعب، علمت مقدار المعاناة التي عاناها كل منهما، فامرأة العزيز أنهكت نفسها بمحاولاتها اليائسة في غواية يوسف – عليه السلام – وأجهدت نفسها في اتخاذ الأسباب،

---

[١] التفسير القرآني للقرآن : عبد الكريم الخطيب : ١٢٥٢/٦.

[٢] لغة الحوار: ١٦.

[٣] في ظلال القرآن : سيد قطب : ١٩٨٠/٤.

[٤] الميم : صوت مجهور لا هو بالشديد ولا بالرخو ، ويتكون هذا الصوت حين يمر الهواء بالحنجرة فيتذبذب الوتران الصوتيان ، فإذا وصل في مجراه إلى الفم انسد المجرى وتسرب الهواء من التجويف الأنفي ، وفي أثناء ذلك تنطبق الشفتان تمام الانطباق ، فيحدث نوع من الحفيف لا يكاد يسمع . الأصوات اللغوية : ٤٤.

فغلَّقت الأبواب، وقالت: (هيت لك)، وسابقته إلى الباب تمنعه من الخروج، وقدَّت قميصه، كل ذلك لتصل إلى مرادها .

وإزاء ذلك فقد أنهكه – عليه السلام – الدفع والصد لتلك المحاولات، فقال: (معاذ الله)، وسابقها للخروج من الدار هربًا منها، ثم قال: (هي راودتني)، واختار السجن على الانصياع لمطالبها، فقال:﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾[1].

أما قوله تعالى:﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ ﴾[2] فقد تضافرت فيه الأصوات لتلفت الانتباه إلى أهمية هذه الشهادة ، فسُمِي حُكم الشاهد شهادة، وهذا من قبيل المجاز المرسل حيث عبر بالشهادة وأراد الحكم، فعبر بالمسببية أو نتائج الحكم؛ لأن ذلك "يؤول إلى إظهار الحق في إثبات اعتداء يوسف – عليه السلام – على سيدته أو دحضه"[3]، والمجانسة بين اللفظين (شهد وشاهد) تأكيد لتلك الأهمية، "فلفظ (شهد) يمثل القيام بالفعل وهو الشهادة ، ولفظ (شاهد) يبيّن أن الذي قام بالفعل من أبرز صفاته في هذا المقام: الشهادة ، ولولا هذا المعنى لقيل: (وشهد بعض أهلها) أو (رجل من أهلها)"[4]، وذكر الشخص بوصفه أبلغ، وهو من سمات البيان القرآني وخاصة في مقام القصص، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾[5]،وقوله:﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ﴾[6]، وقوله :﴿ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾[7]وغير ذلك كثير .

---

[1] يوسف : ٣٣.

[2] يوسف : ٢٦.

[3] التحرير والتنوير : ٢٥٧/١٢.

[4] جماليات النظم : عوض العطوي: ٥٢.

[5] غافر : ٢٨.

[6] المائدة : ٢٣.

[7] النمل : ٤٠.

ولقد حَكَمَ الشاهد[1] "بالقرائن الظاهرة على براءة يوسف – عليه السلام – وكذب المرأة بقوله:﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[2] "[3].

وحضور الشاهد هنا أحضر معه البراءة المغيَّبة، بالاتهام أولًا، وبالسجن ثانيًا؛ لذا "سمى الله سبحانه تلك الشهادة (آية)، وهي أبلغ من البيّنة، فقال:﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[4]"[5]، فهي واضحة جليَّة، وعلى الرغم من ذلك غُيّبت، لتعود إلى الظهور على لسان امرأة العزيز حين قالت:﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾[6]، ثم اعترافها في نهاية الأمر بقولها:﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[7].

وبالنظر لهذه الاعترافات وما تحويه من تكرار صوتي ينسجم مع الدلالة التي تتضمنها تلك الألفاظ تتضح البراءة المخفية، وتتجلى الحقيقة بشهادة الشاهد، وشهادة امرأة العزيز على نفسها حيث نسبت المراودة لنفسها، فأخبرت ضمنًا بجمال يوسف – عليه السلام – الباطني المتمثل في عفته[8]، وزادت في إبراز ذلك الجمال الباطني بقولها:(فاستعصم).

---

[1] قيل: إنَّ الشاهد صبي في المهد، وقيل: رجل ذو لحية من خاصة الملك، وقيل: رجل له عقل وفهم ، وقيل: ابن عم لها، وقيل: رجل حكيم من أهلها قال: القميص يقضي بينهما، وقيل: ليس بإنسي ولا جان، إنما هو خلق من خلق الله قال: قميصه مشقوق من دبر فتلك الشهادة. ينظر: معاني القرآن : الفراء: ٤١/٢ ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور: السيوطي: ٥٢٦/٤.

[2] يوسف : ٢٦-٢٨.

[3] إغاثة اللهفان : ابن القيم : ٦٦/٢.

[4] يوسف : ٣٥.

[5] إغاثة اللهفان: ٦٦/٢.

[6] يوسف : ٣٢.

[7] يوسف : ٥١.

[8] إغاثة اللهفان: ٥٨/١

الأصوات المفخمة والمرققة :

عرَّف ابن جني الاستعلاء بقوله: "أن تتصعد في الحنك الأعلى ، فأربعة منها [أي الحروف] فيها مع استعلائها إطباق[1]... وأما: الخاء، والغين، والقاف، فلا إطباق فيها مع استعلائها"[2].

فهي أصوات لها وقع شديد عند النطق بها، تعج بمعنى الصرامة والشدة والرهبة والسيطرة ، وهذا ما ألحظه في أثناء خطاب سليمان – عليه السلام – حينما جاءه الرسول بهدايا الملكة بلقيس، حيث قال له: ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[3]، فوصف جنوده بأنهم (لا قِبَلَ لهم) " أي: لا طاقة لهم على استقبالها ودفاعها "[4].

ثم أتبع ذلك بالمصير المحتوم لهم فقال:(لنخرجنَّهم ، وهم صاغرون) فأبرز بهذين اللفظين الذلَّة والمهانة التي ستؤول إليها المملكة، وأكده بقوله:(أذلة)، فإخراجهم ليس لمجرد الطرد والتشريد بل للإذلال، إما هزيمة وإمَّا أسرًا .

وقوله:(صاغرون) يصوِّر لنا حالة أخرى أكثر قسوة ؛لأنَّ "الصَّغار وإن كان بمعنى الذل، إلا أنَّ المراد به هنا وقوعهم في أسر واستعباد. فيفيد الكلام: أن إخراجهم بطريق الأسر لا بطريق الإجلاء"[5]، ولا يتجلى مثل هذا المعنى إلا من خلال تلك الأصوات المفخمة– القاف، والخاء، والصاد، والغين– التي تزيد من قوة التعنيف مما يزيد في ذُلِهم.

---

[1] يعني: الضاد، والطاء، والصاد، والظاء، والإطباق: أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقًا له، ولولا الإطباق لصارت الطاء دالًا، والصاد سينًا، والظاء ذالًا. سر صناعة الإعراب: ابن جني : ١/ ٧٦

[2] المرجع السابق : الصفحة نفسها.

[3] النمل : ٣٧.

[4] " والقِبْلَة في الأصل اسم للحالة التي عليها المقَابِل، نحو: الجلسة والقعدة، وفي التعارف : صار اسما للمكان المقَابِل المتوجَّهِ إليه للصلاة" المفردات : ٦٥٤، ثم استخدمت كناية عن الطاقة والقدرة. ينظر: روح المعاني: الألوسي: ١٠/١٩٥.

[5] المرجع السابق : الصفحة نفسها .

ومما يزيد المشهد رهبة وقسوة صوت الصفير في اللفظة، فهو بمثابة إنذار لهم، لا يملكون معه إلا الإذعان والخضوع لصاحب السلطة، فهو صوتٌ دوَّى في آذانهم من قبل حين قالت ملكتهم: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[1]، كما أنَّ مجيء المد بعد حرف الصفير يقوّي معنى الإنذار.

أما صوت الغين[2] فقد اتخذ ملمحًا إضافيًا يدل على الانغماس في الذل، فهو ذل لا يكون بعده عزة أبدًا، لذا كان حرص امرأة العزيز على سجن يوسف – عليه السلام – أكثر من كونه صاغرًا فقالت :﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[3]، بل "أكدت في الأول بالثقيلة؛ لقوة قصدها سجنه وشدة رغبتها فيه، وفي الثاني بالخفيفة؛ لعدم قوة قصدها تحقيره وإهانته وعدم شدة رغبتها في ذلك؛ لما عندها من المحبة له"[4].

ومقابل هذه الأصوات المفخمة تجد الأصوات المرققة تنساب لينًا ورقَّة؛ لتضفي على المشاهد جوًا روحانيًا ومتعةً جمالية لا يمكن تجاهلها، فحين يتعلق القلب حبًا تنساب الألفاظ رقة وعذوبة، وقد بدا ذلك جليًا حين ارتقى حب امرأة فرعون إلى ما هو أسمى، فتركت كل ما في هذه الدنيا لتطلب ما هو أبقى فقالت:﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[5]، فتدفقت أصوات كلماتها لتعبّر عن الراحة النفسية التي وجدتها في التقرب من الذات الإلهية، فطلبت جواره– عز وجل –بقولها:﴿ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا﴾: أي: سهل لي فيها مقرًا[6].

---

[1] النمل : ٣٤.

[2] "الغين : صوت رخو مجهور مخرجه أدنى الحلق إلى الفم ، فعند النطق به يندفع الهواء من الرئتين مارًا بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه في الحلق حتى يصل إلى أدناه إلى الفم ، وهناك يضيق المجرى فيحدث الهواء نوعًا من الحفيف " . الأصوات اللغوية : ٧٦.

[3] يوسف : ٣٢.

[4] حاشية الصبان : ٦٢/١.

[5] التحريم : ١١

[6] المفردات : ١٥٢.

ووقوفها بين يدي الله تعالى وطلبها للقرب والعفو منه – عزَّ وجلَّ – والنجاة من فرعون وقومه لا يتطلب أصواتًا قوية؛ لأنها من أجلِّ النعم التي تطيب لها النفس، وتستوجب الحمد والثناء، فتَرِقُّ لها العبارات وتذرف لها العبرات امتنانًا وشكرًا.

وهذا النعيم مما نجده في قول بلقيس:﴿ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1]، فجاء استسلامها بعد اعترافها بظلمها لنفسها معبِّرًا عن تلك الراحة التي وجدتها في خضوعها لخالقها، فصوت الظاء بما يحمله من صفة الإطباق ألمح إلى نوع من الضيق، وفي المقابل جاء صوت السين تنفيسًا له.

وإذا تأملت اعترافها ﴿ ظَلَمۡتُ نَفۡسِي ﴾ثم قولها:﴿ وَأَسۡلَمۡتُ ﴾تبيَّن لك فطنتها وسلامة فطرتها التي عرفت بها، حيث تخلَّت ثم تحلَّت، قال ابن عاشور: "بهرها ما رأت من آيات علمت منها أن سليمان صادق فيما دعا إليه، وأنه مؤيد من الله تعالى، وعلمت أن دينها ودين قومها باطل فاعترفت بأنها ظلمت نفسها في اتباع الضلال بعبادة الشمس، وهذا درجة أولى في الاعتقاد وهو درجة التخلية، ثم صعدت إلى الدرجة التي فوقها وهي درجة التحَلِّي بالإيمان الحق، فقالت:﴿ وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فاعترفت بأنَّ الله هو رب جميع الموجودات، وهذا مقام التوحيد"[2].

وأجد هنا أن تعبير ملكة سبأ بظلم نفسها إشارة منها إلى مقدار الحسرة والندم اللذين يكتنفانها، فهي تتحسر على تلك العبادة وتضيق بها ذرعًا، ولا تجد ما ينجدها إلا الاستسلام لله رب العالمين فأردفت ﴿ ظَلَمۡتُ ﴾ بـ﴿ وَأَسۡلَمۡتُ ﴾. فمن أعظم الظلم الكفر بالله والشرك به[3]، وفي عبادتها للشمس وجهان من الظلم: ظلم بينها وبين ربها، وظلمها لذاتها؛ فالظلم الأول: يظهر في كفرها بالله وعبادتها للشمس، أمَّا الثاني فيبدو فيما يترتب على الظلم الأول من عواقب، فما يحصل لها جراء كفرها هو من ظلمها لنفسها.

---

[1] النمل : ٤٤.

[2] التحرير والتنوير : ١٩/ ٢٧٦.

[3] قال الراغب: "الظلم :يقال في مجاوزة الحق ...ويقال فيما يكثر ويقلّ من التجاوز، ولهذا يستعمل في الذنب الكبير، وفي الذنب الصغير" المفردات :٥٣٧.

أما قولها: ﴿ وَأَسْلَمْتُ ﴾فقد قصدت به الاستسلام والخضوع والانقياد التام والامتثال للأوامر التي جاء بها سليمان، فقيدت كلامها بقولها:﴿ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾،قال البقاعي:"﴿ وَأَسْلَمْتُ﴾ أي : ليظهر عليّ ثمرات الإسلام. ولما ذكرتْ هذا الأساس الذي لا يصح بناء طاعة إلا عليه، أتبعته الداعي الذي لا تتم ثمرات الأعمال المؤسسة عليه إلا بحبه، والإذعان له، والانقياد والاعتراف بالفضل، وبهدايته إلى ما يصلح منها وما لا يصلح على الوجوه التي لا تقوم إلا بها من الكميات والكيفيات. فقالت:﴿ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾ "[1].

مما تقدم يتضح أثر المستوى الصوتي في تخيُّر المفردة الملائمة للسياق؛ ففي سياق المراودة تُوحي الأصوات المهموسة بالقضية وتُبْرز حقيقتها دون تفصيل أو تصريح بالفعل، وفي سياق التهديد تجد للأصوات المفخمة والمستعلية نصيبًا أوفر، على خلاف سياق الطلب والدعاء الذي تتجلى فيه الأصوات المرققة لتتدفق من خلالها مشاعر الراحة والسكينة.

[1] نظم الدرر :١٤/١٧٢.

المبحث الثاني

المستوى الصرفي

إن دراسة الألفاظ في مستواها الصرفي يعني النظر في بنية الكلمة والمعنى الدلالي للوزن الذي جاءت عليه، وأثر ذلك في السياق بما يكشف عن خصائص الخطاب القرآني المصوِّر لشخصيات النسوة – موضع الدراسة – تصويرًا دقيقًا يحدد ملامح الشخصية، ويبرز الغرض المقصود من القصص القرآني.

وتتناول الدراسة جوانب متعددة في هذا المستوى وهي كالتالي: (التضعيف، والتكرار، و المفردة بين الإسمية والفعلية، والمفردة بين الترادف والتضاد). والتي كان لها ظهور لافت، له أثره في مجرى الأحداث .

أولًا : التضعيف:

المقصود من التضعيف معنى التشديد[1]، الذي يشير إلى تكرار الفعل بتكرار الحرف كما في الألفاظ(غلَّقت، همَّت، قدَّت، قطَّعن، قرَّت[2]، نجّني، صدّها، تولَّ، نكَّروا) والتي جاءت في سياق الحديث عن نساء القصور الملكية؛ لتصوِّر بكل لفظة مشهدًا مغايرًا.

ولقد أشار ابن جني (٣٩٢هـ) في كتابه (الخصائص) إلى هذا النوع من التكرار مبينًا قيمته الدلالية العامة، بقوله : "ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال[3] دليلًا على تكرير الفعل، فقالوا :(كسَّر) و(قطَّع) و(فتَّح) و(غلَّق)[4]؛ وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني،

[1] " الحرف المشدد في حقيقته حرفان غير مشددين ، أولهما : ساكن ، وثانيهما : متحرك أدغما فصارا حرفًا واحدًا مشددًا " الميزان في أحكام تجويد القرآن : فريال العبد: ١٢٧.

[2] قرت : اسم . ولكن أدرجته الباحثة ضمن الأفعال المضعَّفة لما للتضعيف فيه من أثر في إبراز دوال اللفظة .

[3] جاء في حاشية الكتاب أن المقصود بالمثال : البناء. الخصائص – طبعة الهيئة المصرية : ٢/ ١٥٧.

[4] في نسخة الهيئة المصرية للكتاب جاءت الكلمات بالتشديد ، وفي نسخة دار الحديث جاءت بدون التضعيف. ونقلت عن نسخة الهيئة المصرية لأن سياق الكلام يشير إلى أنها الأصح والنسخة الأخرى فيها خطأ مطبعي.

فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوَّة الفعل، والعين أقوى من الفاء واللام؛ وذلك لأنها واسطة لهما ومكنوفة بهما، فصارا كأنهما سياج لها، مبذولان للعوارض دونها"[1].

فزيادة المبنى في الغالب تقتضي زيادة في المعنى ، قال ابن الأثير(٦٣٧هـ)[2]: "اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه، فلا بد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولًا؛ لأن الألفاظ أدلة على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني" [3].

والتضعيف يأتي لمعانٍ متعددة ذكرها أهل اللغة في كتب التصريف، قال الثعالبي[4]:"في الأكثر الأغلب (فَعَّلَ) يكون بمعنى التكثير، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ ﴾[5]، وقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ ﴾[6]، و(فعَّل) يكون بمعنى (أفعل) نحو:(خَبَّرَ وأخْبَرَ) ...ويكون مضادًا له نحو (أفرط) إذا جاوزَ الحدَّ، و(فَرَّط) إذا قصَّر"[7]، وقد ذكر ابن عصفور[8] لوزن (فَعَّلَ) ثمانية ثمانية معان، إذ قد يأتي ليفيد النقل فيُصَيِّرَ الفاعل مفعولًا ك (فَرَّحته)، أو لمعنى التكثير ك (كَسَّرتُه)، أو الجَعلُ على صفة ك (فَطَّرتُه فأَفطَرَ)، أو التَّسمية ك (خطَّأتُه)، أي: سَمَّيته مُخطئًا،

---

[1] الخصائص – نسخة الهيئة المصرية :٢/ ١٥٧ ، نسخة دار الحديث : ٢/ ١٥٣-١٥٤.

[2] نصر الله بن مُحَمَّد بن عبد الكريم الشيبانيّ، الجزري، المعروف بابن الأثير الكاتب ، ولد في جزيرة ابن عمر سنة ٥٥٨هـ، وتوفي في بغداد سنة ٦٣٧هـ ، له عدة مصنفات منها : (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) و(كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب) و(رسائل ابن الأثير) وغيرها من المصنفات .ينظر : الأعلام : ٣١/٨.

[3] المثل السائر : ١٩٧/٢.

[4] عبد الملك بن مُحَمَّد بن إسماعيل، أبو منصور الثعالبي ، ولد سنة ٣٥٠هـ، وتوفي سنة ٤٢٩هـ، من أئمة اللغة والأدب، كان فراءً يخيط جلود الثعالب، فنسب إلى صناعته. واشتغل بالأدب والتاريخ ، له عدة كتب منها : (يتيمة الدهر) ،و(فقه اللغة)، و(سحر البلاغة)، وغيرها من المصنفات. ينظر: سير أعلام النبلاء : ٤٣٨/١٧، الأعلام : ١٦٣./٤

[5] يوسف: ٢٣.

[6] البقرة : ٤٩.

[7] فقه اللغة وسر العربية : الثعالبي : ٢٥٧.

[8] علي بن مؤمن بن مُحَمَّد، الحضرمي الإشبيلي، أبو الحسن المعروف بابن عصفور، ولد سنة ٥٩٧هـ، وتوفي سنة ٦٦٩هـ، ٦٦٩هـ، من كتبه : (المقرب في النحو) و(الممتع في التصريف)، و(المفتاح) و(الهلال). ينظر : الأعلام : ٢٧/٥.

أو الدعاء للشيء أو عليه: ك (سَقَّيتُه)و(جَدَّعتُه)، أو القيام على الشيء ك (مَرَّضته)، أو الإزالة ك (قَذَّيتُ عَينَه)، أو أن يُراد بها رميتُه بذلك ك (شَجَّعتُهُ)، أي: رَميتُه بالشجاعة[1].

وإن كان التضعيف دليلًا على قوة الفعل والمبالغة في الحديث عنه[2]، فإنَّ له دورًا بارزًا في في تصوير المشهد وإظهار حيثياته وتفاصيله، وذلك من خلال الاتكاء على ألفاظ معينة تكون هي محور القصة وخلاصتها.

لفظ (غلَّق) :

في قصة امرأة العزيز تكثر الألفاظ المضعَّفة ؛لأن المقصود هو التعبير عمّا في النفوس من مشاعر ومضامين ، فقد وصف النظم القرآني – مثلًا – عمل امرأة العزيز حين أغلقت الأبواب بتعبير ينمُّ عن حرصها الشديد على تحقيق رغبتها بعيدًا عن الأنظار، فهي كما وُصِفت في القرآن:﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ ﴾[3]– بتشديد اللام– ليوحي هذا الإيقاع الشديد بتلك الرغبة العارمة[4]، العارمة[4]، قال ابن عاشور: "وغلق الأبواب: جعل كل باب سادًا للفرجة التي هو بها، وتضعيف وتضعيف (غلَّقت) لإفادة شدة الفعل وقوته، أي أغلق إغلاقًا محكمًا"[5]، فاللفظة على التكثير، التكثير، بمعنى: أغلقت أبوابًا كثيرة أو أغلقت بابًا واحدًا مرارًا[6]، قال الألوسي: "وتشديد الفعل للتكثير في المفعول إن قلنا: إن الأبواب كانت سبعة كما قيل، فإن لم نقل به فهو لتكثير الفعل فكأنه غلق مرة بعد مرة أو بمغلاق بعد مغلاق، وجمع الأبواب حينئذ إما لجعل كل جزء منه كأنه باب، أو لجعل تعدد إغلاقه بمنزلة تعدده"[7]، فالمقصود المبالغة في الإيثاق والإحكام[8].

---

[1] المتع الكبير في التصريف : ابن عصفور: ١٢٩.

[2] يعد إبراهيم أنيس التضعيف من الظواهر اللغوية التي راهن عليها القدماء في كتبهم تحت قاعدة (زيادة المبنى يتبعها زيادة المعنى). ينظر : من أسرار اللغة : ١٢٦.

[3] يوسف: ٢٣.

[4] ينظر : قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم – دراسة أدبية : مُحَمَّد عبيد:٥١-٥٢ .

[5] التحرير والتنوير : ١٢/ ٢٥٠.

[6] ينظر : المفردات : ٤٧٢/٢ .

[7] روح المعاني : ٦ / ٤٠٣.

[8] ينظر : تفسير أبي السعود : ١٢٧/٣.

وأما التاء في فعل (غلَّقت) فتزيد الصورة بهاءً ورونقًا، حيث دلَّت على مباشرتها الفعل بنفسها، على الرغم من إمكان طلبه من خدمها، فهي أرادت الشعور بمزيد من الطمأنينة والأمان، لذلك حرصت على القيام بالأمر بنفسها.

لفظ (همَّ):

بعد الغلق والإحكام تشتد الرغبة لدى امرأة العزيز، فتبدأ بالمراودة الكلامية –﴿ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾[1] – ويأتيها الرد سريعًا﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، فيُظهر لها يوسف عدم رغبته في إتيان المنكر، ويبيّن أسباب تمنُّعه، ليردعها عن ذلك الطلب، ولكنها تستمر في طلبها، قال تعالى:﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[2].

و(الهمُّ) قد يكون خاطرة وفكرة تمرُّ في الذهن، وقد يراد به الشهوة، وقد يأتي بمعنى الحزن، فأمَّا ما كان بمعنى الخاطرة فهو "ما هممت به في نفسك"[3] ؛ ولذلك قيل:" الهمُّ: هو الفكر في إزالة المكروه واجتلاب المحبوب"[4]، وقيل: هو"تعلق الخاطر بشيء له قدره في الشدة"[5]، الشدة"[5]، وقال الطبري: "ومعنى الهم بالشيء في كلام العرب : حديث المرء نفسه بمواقعته ما لم لم يواقع" [6]، فهذه المعاني تدور حول فكرة أنَّ الهمَّ قد يكون مجرد خاطرة في النفس أو الذهن غير مقترنة بعمل ظاهر. "وقد ذكر الطيبي طيب الله ثراه بعد أن نقل ما حكاه محيي السُّنَّة عن بعض أهل الحقائق من أن الهمَّ : همَّان : همٌّ ثابت، وهو ما كان معه عزم وعقد ورضا مثل همِّ امرأة العزيز. وهمٌّ عارض وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل همِّ يوسف عليه السلام"[7]. والقول بهذا الرأي منتف في حق نبي الله المعصوم من الوقوع في السوء والفحشاء.

---

[1] يوسف: ٢٣.

[2] يوسف : ٢٤.

[3] المفردات : ٨٤٥ .

[4] الفروق اللغوية : العسكري: ١٢٧ ، ٢٦٦ .

[5] المرجع السابق : ١٢٧ .

[6] جامع البيان : ٣ / ٤٥٠٢.

[7] روح المعاني : ٤٠٧/٦.

وأمَّا (الهمِّ) بمعنى الشهوة فذكر الألوسي" أنه مستعمل في اللغة الشائعة ، فإنَّه يقول القائل فيما لا يشتهيه: لا يهمُّني هذا، وفيما يشتهيه: هذا أهمُّ الأشياء إليَّ"[١]، وهو يشير إلى أثر السياق الثقافي في إدراك المعنى الدلالي للنصوص، فالاستخدام العرفي للفظة جعله يفسِّر (الهمَّ) بالشهوة ويلتمس لها وجهًا من اللغة الدارجة على الألسنة، ويصير المعنى بناء على ذلك أن امرأة العزيز عزمت على الفاحشة واشتهاها هو[٢]، وهذا مما لا ينبغي القول به ، فهو منتف عنه عليه السلام ، و" الحق أنها همت به عليه السلام لتقهره على ما أرادته من، وهمَّ بها ليقهرها في الدفع عما أرادته منه، فالاشتراك في طلب القهر منه ومنها والحكم مختلف، ولهذا قالت:﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾[٣]، وما جاء في السورة أصلًا أنه راودها عن نفسه"[٤]، فعُبِّر عمَّا اكتنف نفس نفس يوسف بـ (الهم) لوقوعه في صحبة همها وذلك من قبيل المشاكلة [٥] .

وهنا يظهر الفرق بين هَمْ يوسف – عليه السلام – وهم امرأة العزيز .والحَكَم هنا هو (السياق)، حيث إنَّ ارتباط (همْ يوسف – عليه السلام –) برؤية البرهان، واستعصامه السابق دليل على عدم وقوعه في الهم وإن كان مجرد خاطرة، كما أنَّ ارتباط (همْ امرأة العزيز) بالمراودة دليل على إصرارها على الفعل، كما قال البقاعي: " ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ﴾ أي: أوقعتِ الهمَّ، وهو القصد الثابت والعزم الصادق المتعلق بمواقعته، ولا مانع لها من دين ولا عقل ولا عجز فاشتد طلبها﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾كما هو شأن الفحول عند توفر الأسباب ﴿ لَوۡلَآ أَن رَّءَا ﴾أي: بعين قلبه ﴿بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ الذي آتاه إياه من الحكم والعلم، أي لهمّ بها، لكنه لما كان البرهان حاضراً لديه

---

[١] المرجع السابق : الصفحة نفسها.

[٢] جاء في تهذيب اللغة للأزهري " وأخبرني المنذري عن أبي العباس ثعلب : أنه سئل عن قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ يوسف: ٢٤، فقال: همت زليخا بالمعصية مصرَّة على ذلك، وهمَّ يوسف بالمعصية ولم يأتها ولم يصر عليها. فبين الهمَّتين فرق". ٥ / ٢٤٨ .

[٣] يوسف : ٥١.

[٤] روح المعاني : ٦/ ٤٠٧ .

[٥] ذكر أبو السعود في تفسيره (وهمَّ بها) أنه مال إليها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب وكونه ميلًا جبليًا ليس مقصودًا ، والدليل على ذلك استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته ونفرته من ذلك الفعل، ومجيء التعبير بـ (الهمَّ) هنا من قبيل المشاكلة لا لشبهه بـ (هم) امرأة العزيز. ينظر: ٣/ ١٢٨ .

والمشاكلة: هو ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقًا أو تقديرًا. ينظر: مفتاح العلوم: ٤٢٤ ، الإيضاح : ٣٤٤، عروس الأفراح: ٢/ ٢٣٧ ، مختصر السعد :٣٩٢ .

حضور من يراه بالعين، لم يغَطِّهِ وفور شهوة ولا غلبة هوى، فلم يهمَّ أصلاً مع كونه في غاية الاستعداد لذلك لما آتاه الله من القوة مع كونه في سن الشباب"[1].

أمَّا المعنى الثالث لـ (الهمِّ) وهو:" الحَزَنُ[2] الذي يذيب الإنسان "[3]، فقد يكون فيه إشارة إلى المشاعر التي اكتنفت نفس يوسف في تلك اللحظة ، فسُمِّيَ ما خطر بباله وشعر به في نفسه (همًّا)، وهذا دليل على بشرية الأنبياء والرسل.

والناظر إلى هذه المعاني يتبيَّن له عصمة يوسف –عليه السلام– من الوقوع في (الهم) لارتباطه برؤية البرهان فلا يكون منه خاطرة أو شهوة عليه السلام في هذا المقام. وإنما سمي ما اكتنفه من مشاعر بـ(الهم) للمشاكلة. فاستعمل هذا الفظ في هذا المقام أبرز المشهد النفسي بكل أبعاده بما في ذلك من مشاعر داخلية.

لفظ (قدَّ):

ويستمر المشهد باستمرار الطلب والاحتيال[4] من قبل امرأة العزيز، على الرغم من رفض يوسف– عليه السلام–، فتنتقل إلى المراودة الفعلية له، ويبدأ الصراع ما بين جذب ودفع، ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾[5]، ثم تتوالى الأحداث لتصل من المراودة والاستباق إلى الاتهام،﴿ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾، ثم البحث عن دليل﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾[6]،ثم ﴾[6]،ثم العقوبة﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾[7]، ثم البراءة﴿ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾[8]، في تسلسل منطقي للأحداث.

---

[1] نظم الدرر : ١٠/٦٣.

[2] ينظر : تهذيب اللغة : ٥/ ٢٤٨ ، لسان العرب : ١٢/ ٦١٩.

[3] المفردات: ٨٤٥ .

[4] من معاني (الهم) قولهم : " وهمَّ الرجل لنفسه : إذا طلب واحتال".تاج العروس :٣٤/ ١٢٤.

[5] يوسف: ٢٥.

[6] يوسف : ٢٦ .

[7] يوسف : ٣٥.

[8] يوسف : ٥١.

والقرآن الكريم يصور هذا المشهد المشوب بالصراع من جانب الهارب (يوسف عليه السلام) والمطارِدة (امرأة العزيز) بالاتكاء على لفظ (قدَّت) لأنه دليل القصة ومحورها .

ولقد جاء وصف الشق الذي حصل من جراء المدافعة بهذا اللفظ الموحي بالعنف والشدة والقوة في الجذب دون غيره من الشقِّ والقطع والقَطِّ[1]؛ لأن المراد من "القَدَّ[2] غير الشق، الشق، فله تعلق بالطول، وهذا أكثر مطابقة للواقع"[3]، وذلك "بناءً على ما قيل:[من أنها جذبته من وراء فانخرق القميص إلى أسفله"[4].

ولقد صوَّر التضعيف في (قدّت) المشهد الحركي للصراع، فأظهر شدة الرغبة واستعار الشهوة من جانب المرأة،والتي تمثلت في قوة جذبها مع ضعف بنيتها الجسدية-بالنسبة للرجال- وفي المقابل صوَّر حال يوسف في تلك اللحظة من المدافعة والصَّد ثم الهرب، وعلى هذا فإن التمزيق للقميص حصل" قبل الاستباق لا محالة ؛ لأنَّه لو كان تمزيق القميص في حال الاستباق لم تكن فيه قرينة على صدق يوسف – عليه السلام – أنَّها راودته، إذ لا يدل التمزيق في حال الاستباق على أكثر من أنَّ يوسف – عليه السلام – سبقها مسرعًا إلى الباب ، فدلَّ على أنَّها أمسكته من قميصه حين أعرض عنها تريد إكراهه على ما راودته، فجذب نفسه فتخرق قميصه من شدة الجذبة . وكان قطع القميص من دبر لأنه كان موليًا عنها معرضًا، فأمسكته منه لرده عن إعراضه"[5] .

وبهذا أظهر اللفظ القرآني (قدَّ) أمرين: الأول: أن القميص قد شُقّ، وثانيهما: أنَّ هذا الشق كان طولًا، وهذا الطول في الشقّ دليل على أنه كان قبل الاستباق وازداد مع الاستباق.

فذكر" (قدِّ القميص) وتحديد مكان القدِّ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾[6]والاقتصار عليه دون علامات أخرى يمكن أن يكون في مثل هذه الحالات دليلًا على ما له بعد ذلك من الأثر

---

[1] القط : القطع معترضًا ، أو الشق عرضًا .ينظر : المخصص : ابن سيده : ٤ / ٢٥.

[2] " القَدُّ : قطع الشيء طولًا " المفردات: ٦٥٧.

[3] جماليات النظم : ٤٢ .

[4] روح المعاني : ٤٠٩/٦.

[5] التحرير والتنوير : ١٢/ ٢٥٥- ٢٥٦.

[6] يوسف : ٢٥

في مجريات القصة، وأيضًا فيه إشارة إلى أنه عليه السلام الأسبق إلى الباب، وهذا يعني أنه هو الهارب وهي المطاردة...كما أنَّ في إظهار (قدّ القميص) ما يشير إلى شدة مدافعته عليه السلام لطلب هذه المرأة، وهذا يتناسب مع وجود دلائل تكريم الله له عليه السلام ، وتمكينه في كل مرحلة وحادثة"[1].

ولو استعمل لفظ آخر مكانه مثل (شَقَ ، فَتَقَ[2] ، قَطَّ ، قَطَعَ) وبُني لما لم يسم فاعله في هذا المقام لما استوفى الدليل البراءة التامة المقصودة، والتي لا تقبل النَّقض من أي وجه .

فذكر الفعل (قدَّت) مبنيًا للمعلوم ابتداءً﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ ﴾[3]؛ لأن المطالِب بالمراودة ابتداءً هو الفاعل (امرأة العزيز) لا محالة ، فهي الراغبة والمقبِلة، وإسناد (القدِّ) لامرأة العزيز على الرغم من "أنَّ لقوة يوسف أيضًا دخلًا فيه...للإيذان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذل مجهودها في ذلك لفوت المحبوب أو لخوف الافتضاح"[4].

ومجيء الفعل نفسه مبنيًّا لما لم يُسَّم فاعله﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ ﴾[5] "مع أنَّ الفاعل معلوم وهو المرأة –سواء أكانت مدافعة أم جاذبة له– فيه حسن أدب في مقام الشهادة، حتى لا ينسب السوء إليها، وحتى لا يجري اسمها أو وصفها في عمل مشين يحسن فيه الستر والغفر"[6]، كما أن فيه إشارة إلى حيادية الشاهد وعدم ميله لأحد الطرفين لا بالاتهام ولا بالتبرئة، وإنما الفيصل في القضية لديه الدليل المتاح وهو القميص. وبالنظر إلى الدليل تظهر الحقيقة وتنكشف الرؤية للعزيز ولا يزيد عن قوله:﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾[7].

---

[1] جماليات النظم: ٤٢.

[2] " الفرق بين الفصل والفتق: أنَّ الفتق بين الشيئين اللذين كانا ملتئمين أحدهما متَّصل بالآخر فإذا فرَّق بينهما فقد فُتِقَا، وإن كان الشيء واحدًا ففُرِّقَ بعضه من بعض قيل: قُطِعَ وفُصِلَ وشقَّ، ولم يقل فتق". الفروق اللغوية :١٥٢.

[3] يوسف: ٢٥.

[4] تفسير أبي السعود: ٣/ ١٣١ .

[5] يوسف : ٢٦، ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ ﴾يوسف: ٢٧.

[6] جماليات النظم: ٥٣.

[7] يوسف : ٢٨

لفظ (قطَّع):

حين تبدأ الحقيقة بالانتشار ويكثر الحديث حول مراودة امرأة العزيز فتاها، يصل إلى مسامعها فتشعر معه بالانتقاص الموجه إليها من قبل بعض النسوة، وتسيطر عليها فكرة استرجاع مكانتها بتسويغ موقفها، فتلجأ إلى الكيد والحيلة ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾[1] .

فالحيلة التي اعتمدت عليها امرأة العزيز كانت تهدف إلى دفع النسوة للافتتان بيوسف كيلا يَلُمْنَها على فعلها بعد ذلك، ولقد جاء التعبير بلفظ (قطَّعن) لإبراز هذا المشهد، فمن شدة الذهول الذي أصابهن كانت ردة الفعل قوية من قِبَلِهن، ومع ذلك لم يشعرن بها.

جاء في تفسير الطبري: "أنهن حَزَزْنَ بالسكين في أيديهن وهُنَّ يحسبن أنَّهنَّ يَقْطَعْنَ الأُترج ...وقيل: إنَّهن قَطَّعنَ أيديهن حتى أَبَنَّها وهُنَّ لا يَشْعُرْنَ"[2].وجاء في غيره: ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[3] أي: جرحنها[4]بما في أيديهن من السكاكين لفرط دهشتهن وخروج حركات جوارحهن جوارحهن عن منهاج الاختيار، ومع ذلك لم يعلمن بما عملن، ولم يشعرن بالألم الذي أصابهن.

والقطع في اللغة يعني "إِبَانَةِ شيءٍ من شيء"[5]، أو هو "فصل الجسم بنفوذ جسم آخر فيه، فيحتاج إلى آلة نافذة فاصلة بالنفوذ"[6]، وقد يكون هذا الفصل مدركًا بالأبصار كالأجسام، أو يكون مدركًا بالبصائر كالأشياء المعقولة [7]، ولذلك جاء التعبير بـ (التقطيع)- هاهنا- ليصور بذلك الانفعال النفسي والحالة الذهنية التي اعترت أولئك النسوة عند رؤية يوسف — عليه السلام – حتى تخبَّطن، فقطَّعن أيديهن بدل الفاكهة المعدة لهن، ومن المعلوم أن

---

[1] يوسف : ٣١ .

[2] جامع البيان : ٦ / ٤٥٢٨ – ٤٥٢٩ .

[3] يوسف : ٣١.

[4] ينظر: البحر المحيط: أبو حيان: ٦ / ٢٦٩، نظم الدرر: ١٠ / ٧٣، تفسير أبي السعود: ١٣٨/٣، روح المعاني: ٦/ ٤٢٠، التحرير والتنوير: ١٢ / ٢٦٣.

[5] مقاييس اللغة: ابن فارس : ٥/ ١٠١.

[6] الكليات: الكفوي : ٧٣٠ .

[7] ينظر: المفردات : ٦٧٧ .

اليقظة الذهنية للإنسان في حالة استرخائه تختلف كليًا عنها في حالة انفعاله، فلو صادف أن طرأ لك أمر وأنت في حالة استرخاء تام وبيدك سكين لآذيت نفسك دون أن تشعر من شدة وقع ذلك الأمر[١].

ولا شك في أنَّ التقطيع يفيد معنى الألم الذي قد يحصل مع الجُرح[٢] أو الخدش أو الفَصْل[٣] أو الجثِّ[٤]، ولكن اختيار هذه المفردة دون غيرها يدل على أن الفعل كان ذاتيًا لا دخل لأحد فيه، بخلاف الفَصْل والجَثِّ اللذين يكونان بفعل فاعل، كما يدل على عمق الأثر المتبقي بعد ذلك، بخلاف الجرح والخدش اللذين قد يزولان بعد فترة وجيزة، وهو المقصود في إظهار البراءة بعد ذلك﴿ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[٥].

ولا يُتصور مع التقطيع إلا شدة الألم والصراخ وتناثر الدماء واشمئزاز النفوس ، وعلى الرغم من ذلك لم يصدر منهن إلا قولهن:﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[٦]، وهذا دليل على أنَّ التقطيع كان بسبب ذهولهن، وهذا خلاف لما ذهب إليه أحد الباحثين من أنَّ تجريح الأيدي لم يكن بسبب الدهشة والذهول، بل كان متعمَّدًا ومقصودًا بدلالة وجود السكين مسبقًا [٧]، وأرجع سرَّ تقطيع الأيدي إلى دلالة عرفية شائعة في ذلك الزمان[١]، فالنسوة فالنسوة قد قدمن الاعتذار بتجريح أيديهن، وأعلن بتكراره تعاطفهن ومشاركتهن لها.

---

[١] ينظر : يوسف في القرآن والتوراة : زاهية الدجاني : ٥٧.

[٢] "الجرح (بالضم) : يكون في الأبدان بالحديد ونحوه، والجرح (بالفتح) : يكون باللسان في المعاني والأعراض ونحوها". تاج العروس : ٦/ ٣٣٧ .

[٣] " الفصل هو القطع الظاهر ولهذا يُقال : فصَّلَ الثوب ، والقطع قد يكون ظاهرًا وخافيًا كالقطع في الشيء الملزق المموه، المموه، ولا يقال لذلك فصل؛ حتى يبِين أحد المفصولين عن الآخر". الفروق اللغوية: ١٥١.

[٤] الجَثُّ : قطعك الشيء من أصله . ينظر : المخصص : ٤ / ٢٥ .

[٥] يوسف : ٥٠ .

[٦] يوسف : ٣١ .

[٧] ينظر : الملتقى العلمي للتفسير وعلوم القرآن – مقال (وقطعن أيديهن) بقلم : بسام جرار ، ١٤٣٣/٥/١٤هـ – vb.tafsir.net/tafsir31428 .

والتضعيف في (قطَّعن) للتكثير ، إمَّا لكثرة النِّسوة، وإمَّا لتكثير الحزِّ في اليد، فكأنَّ السكين كانت تقع على يد إحداهن فتجرحها فترفعها عن يدها فيغلبها الدهش فتقع على موضع آخر وهكذا[٢]، كما يفيد معنى القوة في القطع مما يخلف أثرًا عميقًا في اليد لا يمكن إزالته.

وأرى إمكانية الجمع ما بين القولين السابقين؛ وذلك بأنَّ ردة الفعل التي كانت خلافًا للمتوقع دليل على سيطرة حالة الذهول ابتداءً على أولئك النسوة بدلالة قولهن بعد ذلك (حاشا لله)، ثم تكرارهن للقطع من قبيل الاعتذار والدلالة العرفية كما سبق، فأصبح الأثر المتبقي من التقطيع بمثابة الدليل القاطع الذي أظهر الحقيقة، والتي تجلَّت بعد حين من الزمن عقب تعبير يوسف –عليه السلام – رؤيا الملك وسؤاله عن حال النسوة (اللاتي قطَّعن أيديهن)، فأثيرت القضية من جديد، واتَّضحت برأته –عليه السلام–باعتراف امرأة العزيز وشهادة أولئك النسوة.

لفظ (قرَّة):

وإذا ما انتقلنا إلى قصة امرأة فرعون نجد أن محورها يدور حول عاطفة المرأة أيضًا، ولكن من جانب آخر، إذ إنَّها تصوِّر الجانب السَويَّ في تلك العاطفة. فلقد عُبِّر عن مشاعر الحب والخوف معًا والتي اكتنفت امرأة فرعون وذلك بالاتكاء على بعض الألفاظ التي أبرزت تلك المشاعر في صوتها المكرر(التضعيف).

ولقد تجلى شعور الحب المختلط بعاطفة الأمومة لدى امرأة فرعون، في قولها عند رؤية موسى– عليه السلام– في التابوت﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ ﴾[٣]، وأكدت ذلك بقولها:﴿ عَسَىٰٓ أَن

[١] أنَّ الجرح المعنوي لصاحب المقام الرفيع يُعد جُرأة لا بد من الاعتذار عنها بما يليق ، والجرح المعنوي لهذا المقام لا يغفره إلا جرحٌ حسيٌ، فحديث النسوة عن امرأة العزيز وهي صاحبة المنصب الرفيع يُعد جرحًا معنويًا لمقامها الرفيع، وجرأة تحتاج إلى اعتذار لذا جرحن أيديهن، وكررن هذا الفعل لمزيد من الاعتراف والأسف. ينظر : المرجع السابق .

[٢] ينظر : البحر المحيط : ٦ / ٢٦٩ ، نظم الدرر : ١٠ / ٧٣.

[٣] القصص : ٩.

يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾ ، أما الخوف فقد ظهر في قولها:﴿ لَا تَقۡتُلُوهُ ﴾، خوفًا على موسى من فرعون .

لقد عبرت امرأة فرعون عن مشاعر الحب والفرح التي انتابتها عند رؤية ذلك الطفل الصغير بقولها: ﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ ﴾الذي يدل على السرور، والأصل اللغوي للفظ مشتق من (قرَّ)، ويدل على معنيين هما: البَرَد، والتَّمَكُّن[1]، ويعنينا– هاهنا– المعنى الأول لارتباطه بالسياق، وهذا التعبير فيه " كناية ناشئة عن ضدها، وهو سُخنة العين التي هي أثر البكاء اللازم للأسف والحزن، فلما كُني عن الحزن بسُخنة العين في قولهم في الدعاء بالسوء: أسخن الله عينه ... أتبعوا ذلك بأن كنوا عن السرور بضد هذه الكناية ، فقالوا: قرَّة عين، وأقرَّ الله عينه، فحكى القرآن ما في لغة امرأة فرعون من دلالة على معنى المسرَّة الحاصلة للنفس ببليغ ما كنَّى به العرب عن ذلك وهو(قرة عين)"[2]، ولقد عدَّ الزمخشري ذلك من قبيل المجاز[3].

والتعبير بهذه اللفظة خاصة يشعر السامع بالمشاعر المختلطة التي تملكت نفس آسيا عند رؤية ذلك الطفل، حيث امتزج الحب والفرح والسرور وشعور الأمومة لديها بالبكاء، ثم بالخوف عليه من الأذى، لِمَا تعلم من أمر فرعون بقتل أطفال بني إسرائيل في ذلك العام ، ولهذا بادرت بقولها:﴿ لَا تَقۡتُلُوهُ ﴾، وعللت ذلك بـ ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾فقطعت بذلك كل سبيل لأذيته ، فوجوده –عليه السلام– لن يضرهم بل سينفعهم في كلتا الحالتين.

وأشارت إلى النفع أولًا "لما رأت فيه من مخايل اليمن ودلائل النفع، وذلك لما عاينت من النور وبرء البرصاء[4] "[5]، ثم أشارت إلى اتخاذه ولدًا بعد ذلك لاستمالة قلب فرعون بتحريك

---

[1] ينظر : مقاييس اللغة : ٥/٧.

[2] التحرير والتنوير : ٢٠ / ٧٨.

[3] ينظر : أساس البلاغة : ٢/ ٦٧ .

[4] جاء في بعض التفاسير :أن الله ألقى محبته في قلب آسية امرأة فرعون ، و أنَّها رأت نورًا في التابوت الذي كان فيه موسى عليه السلام، وتسهَّل عليها فتح التابوت بعد تعسُّر فتحه على يد غيرها، وأن بنت فرعون أحبته لبرئها من دائها الذي كان بها وهو البرص، بإخبار من أخبرها أنه لا يُبرئها إلا ريق إنسان يوجد في تابوت البحر. ينظر: البحر المحيط : ٨ / ٢٨٨ ، روح المعاني : ١٠ / ٢٥٨.

[5] مدارك التنزيل وحقائق التأويل : النسفي : ٢ / ٦٣٠ .

مشاعر الأبوة لديه، قال ابن عاشور: "ويتضمن قولها:﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾ إزالة ما خامر نفس فرعون من خشية فساد ملكه على يد فتى إسرائيلي، بأنَّ هذا الطفل لا يكون هو المخوف منه؛ لأنَّه لما انضم في أهلهم وسيكون ربيبهم فإنَّه يرجى منه نفعهم، وأن يكون لهم كالولد، فأقنعت فرعون بقياس على الأحوال المجرَّبة في علاقة التربية والمعاشرة والتبني والإحسان، وأن الخير لا يأتي بالشر"[1]، وقولها هذا دليل على رجاحة عقلها وفطنتها وذكائها في تسيير الأمور لصالحها للوصول إلى مبتغاها.

وبذلك تُبرز هذه اللفظة (قرَّة) العطاء الرباني الذي اعترفت به امرأة فرعون بمجرد النظر إلى موسى –عليه السلام– والذي وجدته بعد ذلك في إيمانها بالله، (فقرَّت عينها) بأن سكنت نفسها واطمأنت فلم تلتفت إلى جوارٍ غيره في قولها:﴿ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ ﴾[2] ، وهذا ما لم يتحصل عليه فرعون؛ وذلك لعدم إقراره بذلك العطاء.

جاء في تفسير الطبري : "عن ابن عباس قال: لما أتت بموسى امرأة فرعون قالت:﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ ﴾ قال فرعون: يكون لك ، فأما لي فلا حاجة لي فيه ، فقال رسول الله ﷺ : (والذي يُحْلَف به لو أقرَّ فرعون أن يكون له قرةَ عينٍ كما أقرَّت ، لهداه الله به كما هدى به امرأته ، ولكن الله حرَمَه ذلك)"[3][4].

لفظ (نجّني):

إنَّ قول (آسية) ﵂:﴿ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[5]، جاء في سياق الطلب والدعاء المتضمن مشاعر الحب الإلهي في أرقى مراتبه، ثم تملكتها مشاعر الخوف بسبب ما تراه من ظلم فرعون وقومه للذين آمنوا، فلجأت لمن يخلصها منه ومن عمله وقومه.

وقد اختير لفظ (نجّني) لطلب الخلاص من فرعون، فما دلالة هذا اللفظ ؟

---

[1] التحرير والتنوير : ٢٨ / ٧٦ .

[2] التحريم : ١١.

[3] رواه النسائي في السنن الكبرى : ١٧٢/١٠ حديث رقم (١١٢٦٣).

[4] جامع البيان : ٨ / ٦٣٤٥ .

[5] التحريم :١١.

جاء في المفردات : " نجو : أصل النَّجاء : الانفصال من الشيء، ومنه نجا فلان من فلان ، وأَنْجَيْتُهُ و نَجَّيْتُهُ ... وقيل: أصله من النَّجاة: وهو أن تعاونه على ما فيه خلاصه"[1]، فكلاهما يدلان على الخلاص من الأذى[2]، ونجوت الشيء نجوًا : خلَّصته وألقيته[3] .

فامرأة فرعون حين آمنت بالله أخلصت في إيمانها ، فطلبت القرب منه سبحانه، وأيقنت أنه الملجأ والمنجي لها من كل أذى وشر، فلجأت إليه وناجته بما في نفسها بلفظ (نجِّني) فطلبت به الخلاص من الأذى جسديًا كان أو معنويًا.

واختيارها للفظ (نجِّني) دون غيره مما قد يُظن أنه يقوم مقامه كالتخلص والانقاذ؛ لأنَها قصدت معنى الخلاص من الأذى المتعلق بالخوف من التسلط والبطش، فالنجاة لا تكون إلا من أذى، بخلاف التخلص الذي قد يكون من تعقيد[4]وإن لم يكن هناك أذى[5]، أمَّا الإنقاذ فيفيد معنى الخلاص والسلامة واسترجاع الشيء من العدو[6]خاصة، دون الإشارة إلى معنى الأذى أو الخوف المقصود في السياق.

فقد صوَّر هذا اللفظ رغبتها الشديدة في الانفصال عن الشرك وأهله والبراءة من أن يلحقها شيء من تبعاته حتى وإن كان من أقرب المقربين، كما أبرز هذا اللفظ الخوف الذي أحست به من قِبَل فرعون وأتباعه لما خالفتهم بالإيمان بالله وحده، إضافةً لمشاعر اليقين والراحة التي سيطرت عليها بعد تلك المخالفة ، فجمع التضعيف معاني الخوف والرجاء والراحة معًا.

---

[1] ٧٩٢ – ٧٩٣

[2] ينظر :المعجم الوسيط : ابراهيم مصطفى وآخرون: ٢/ ٩٠٥

[3] ينظر : تاج العروس : ٤٠ / ٣٦

[4] أي من مشكلة معقدة لا يستطيع صاحبها حلَّها ، فيأتي من يخلصه منها بأن يجد له حلًا .

[5] ينظر : الفروق اللغوية : ٢١١

[6] ينظر : جمهرة اللغة : ابن دريد : ٢ / ٧٠٠ ، تهذيب اللغة : ٩ / ٧٥ ، أساس البلاغة : ٢ / ٢٩٨ ، لسان العرب : ٣ / ٥١٦ ، القاموس المحيط : ٣٣٩ ، تاج العروس : ٩/ ٤٩٠ – ٤٩١، المعجم الوسيط : ٢ / ٩٤٥

وفي التعبير بالنجاة إشارة إلى المكان الذي أرادته امرأة فرعون لنفسها حين قالت: ﴿ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي ﴾، وهو مكان رفيع لن تصل إليه إلا بها، قال ابن القيم: "فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة ، فإنَّ الجار قبل الدار"[1].

وطلبها للنجاة بلفظ (نجّني) دون (أنجني) على الرغم مما يفيده من معنى الإسراع [2] والآنية ؛لأنَّ المقام الذي جاء فيه هذا اللفظ مقام دعاء وطلب وخضوع لمقام العزيز الجبار، وهو مقام يستلزم معه الإلحاح والتأدب في الطلب وعدم الاستعجال في الاجابة، ولعل في التَّشديد إيحاءً بمدى الشِّدة التي تكابدها وتروم التخلُّصَ منها.

لفظ (زيَّن):

ذُكرت ملكة سبأ [3](بلقيس) في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴾ [4]، وتميَّزت عن شخصيات الدراسة بكونها امرأة حاكمة لا محكومة، متبوعة لا تابعة، أوتيت من المال والحكمة والاتزان والعقل ما جعلها مثالًا للمرأة القيادية الحاكمة.

ولقد ورثت بلقيس الملك من أسلافها وأبقت عليه بكسبها، وبما وهبها الله من ذكاءٍ وسدادِ عقلٍ وعلمٍ، فحافظت على نفسها، وحكمت شعبها بسدادة الرأي والديمقراطية والشورى في اتخاذ القرارات، وعلى الرغم من كل ذلك؛ فقد تاهت هي وقومها عن سبيل الحق والهداية، فعبدوا الشمس من دون الله.

ولما كانت القصة تتمحور حول شخصيتها وردود أفعالها تجاه دعوة سليمان –عليه السلام–، جاء النظم القرآني مصورًا ذلك المشهد بما يثبت رجاحة عقلها وسداد رأيها، فنسب ضلالها وقومها إلى تزيين الشيطان وصدِّه لهم﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا

---

[1] الفوائد : ابن القيم : ١٩٧

[2] ينظر : بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : السامرائي : ٦٦-٧١

[3] سبأ : اسم رجل ، هو : عبَّد شمس بن يشْجُب بن يَعرُب بن قحطان ، لقب بسبأ ؛ لأنه أول من سن السبي، وذريته كانوا باليمن ثم تفرقوا. ينظر: تاريخ ابن خلدون المسمى (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر : ٥٣/٢

[4] النمل : ٢٣

يَهۡتَدُونَ ﴾[1]؛ ليشير بذلك إلى ما ستؤول إليه دعوة سليمان-عليه السلام-، من استجابة بلقيس له وإسلامها.

والتزيين في اللغة : يدل على حُسن الشيء، وتحسينه ، فالزيْن : نقيض الشين، والزِّينة: اسم جامع لكل ما يُتَزين به[2]، "والتزيين جعل الشيء متقبلًا في النفس من جهة الطبع والعقل بحق أو باطل"[3].

و"تزيين الله للأشياء قد يكون بإبداعها مُزَيَّنة وإيجادها كذلك، وتزيين الناس للشيء بتزويقهم أو بقولهم، وهو أن يمدحوه ويَذكروه بما يرفع منه"[4]، قال الراغب: "الزِّينة الحقيقية: ما لا يشين الإنسان في شيء من أحواله لا في الدنيا ولا في الآخرة، فأما ما يزينه في حالة دون حالة فهو من وجه شيْن، والزِّينة بالقول المجمل ثلاثة: زينة نفسية: كالعلم والاعتقادات الحسنة، وزينة بدنية: كالقوة وطول القامة، وزينة خارجية: كالمال والجاه"[5].

فعلى هذا يمكن القول: أنَّ إسناد التزيين للشيطان يُعد من الزينة النفسية المضلِّلة، حيث يرى المزَيَّن له الضلال حقًا، فيندفع بقواه ليحقق ما يراه حقًا وإن كان فيه هلاكه، فيصبح ممن زُيِّنَ له سوء عمله فرآه حسنًا، نسأل الله العافية.

وتظهر بلاغة هذا اللفظ من خلال ارتباطه بسياق القصة إلى نهايتها، فهو أقل خطرًا من لفظ الاستحواذ [6]، إذ يكون معه الرجوع إلى الحق إذا لاقى الدليل فيه نفسًا سويةً وفطرةً سليمةً، بخلاف الاستحواذ فلا يكون معه رجوع إلى الحق، بل انغماس في الضلال؛ حيث

---

[1] النمل : ٢٤.

[2] ينظر : العين: الفراهيدي : ٧ /٣٨٧ ، تهذيب اللغة : ١٣ / ١٧٤-١٧٥ ، مقاييس اللغة: ٣ / ٤١-٤٢، تاج العروس : ٣٥/ ١٦١.

[3] نظم الدرر : ١١/ ٥٩.

[4] تاج العروس : ٣٥/ ١٦٣.

[5] المفردات : ٣٨٨.

[6] يدور لفظ الاستحواذ في اللغة حول معنى الغلبة والاستيلاء. ينظر: تهذيب اللغة: ١٣٣/٥، المفردات: ٢٦٢، لسان العرب: ٣/ ٤٨٧، المعجم الوسيط: ١/ ٢٠٥. وفسر الألوسي قوله تعالى:﴿ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ المجادلة: ١٩ " أي: غلب على عقولهم بوسوسته حتى اتبعوه فكان مستوليًا عليهم". روح المعاني : ١٤/ ٢٢٧.

يستولي الشيطان على العقل، فيسلب صاحبه التمييز بين الحق والباطل حتى مع وضوح الدليل، وهذا المعنى لا يتناسب مع اعتراف بلقيس وإسلامها بعد ذلك، لذا كان لفظ (التزيين) هنا أبلغ.

لفظ (صدّ):

لا يقتصر فعل الشيطان على تزيين الباطل لأهله، بل يُمعِن في صدِّهم عن سبيل الحق حتى لا يتبعوه، وهذا ما فعله مع المِلكة وقومها، ولذا قال تعالى:﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1]، فالصدُّ خطوة تالية للتزيين، إذا قام المرء بالخطوة الأولى استدرجه الشيطان إلى الخطوة الثانية.

و(الصد) في اللغة يعني: الصَّرْف والعدول والمنع[2]، قال الراغب: "الصدُّ: قد يكون انصرافًا عن الشيء وامتناعًا نحو:﴿ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾[3]، وقد يكون صرفًا ومنعًا نحو: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[4]"[5]، وهو منع عن قصد شيء خاصة[6]، وهذا المعنى المعنى يتناسب مع مضمون الدعوة في القصة، حيث قصد الشيطان إلى منعها وقومها من الإسلام والاستسلام لدعوة سليمان- عليه السلام- .ويرى الزمخشري أنَّ الصد عن السبيل من قبيل المجاز، حيث قال:" ومن المجاز صدُّ السبيل: إذا اعترض دونه مانع من عقبة أو غيرها"[7].

[7].

وقد نأى القرآن عن وصف عبادة بلقيس وقومها للشمس بإغواء الشيطان؛ وذلك لأنَّ الإغواء يقتضي فسادًا في المذهب والاعتقاد[8] مع الانهماك في الجهل[9] والباطل[1]، فيُبقي صاحبه

---

[1] النمل : ٢٤.

[2] ينظر: جمهرة اللغة:١/١١١،مقاييس اللغة: ٣/ ٢٨٢، المفردات٤٤٧، القاموس المحيط: ٢٩،المعجم الوسيط: ٥٠٩.

[3] النساء :٦١.

[4] النمل : ٢٤.

[5] المفردات : ٤٤٧.

[6] ينظر : الفروق اللغوية : ١١٤.

[7] أساس البلاغة : ١/ ٥٤٠.

[8] ينظر :الفروق اللغوية : ٢١٤.

[9] ينظر :المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: الحموي: ٢/ ٤٥٧.

صاحبه على حاله من الفساد، ثم لا يكون له طريق مستقيم إلى المقصد الحق[٢]، قال الراغب:" الغَيُّ: جهل من اعتقاد فاسد؛ وذلك أنّ الجهل قد يكون من كون الانسان غير معتقد اعتقادًا لا صالحًا ولا فاسدًا، وقد يكون من اعتقاد شيء فاسد، وهذا النّحو الثاني يقال له غَيٌّ"[٣]، فعبادة بلقيس للشمس قد يكون عن جهل منها دون اعتقاد، يدل على هذا أنَّ ما صدَّها عن عبادة الله عز وجل هو تزيين الشيطان أولًا، وعبادتها القديمة ثانيًا، ومع هذا الصد فقد استجابت لدعوة سليمان-عليه السلام-لما رأت الدليل، ووصفها بأنها﴿ كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴾ [٤] بعد ذلك يؤيد هذا القول، حيث نسب القرآن الكفر إلى قومها وجعلها جزء منهم " أي: أنَّها كانت من قوم راسخين في الكفر؛ ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها وهي بين ظهرانيهم إلى أن دخلت تحت ملك سليمان عليه السلام"[٥]، قال ابن عاشور: "وفي ذكر فعل الكون مرتين في﴿مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ و﴿ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴾ دلالة على تمكنها من عبادة الشمس، وكان ذلك التمكن بسبب الانحدار من سلالة المشركين، فالشرك منطبع في نفسها بالوراثة، فالكفر قد أحاط بها بتغلغله في نفسها وبنشأتها وبكونها بين قوم كافرين"[٦] فليس هناك علامة تدل على اعتقاد منها؛ لذا أرى أن عبادتها من قبيل الجهل دون غيره، لذلك لم تُسمَّ غيًّا.

ونلحظ في الاتكاء على اللفظ بالتشديد ما يزيد المشهد بهاءً، فهو يصوِّر للقارئ محاولات الشيطان المستديمة لتحسين الباطل وإظهاره في صورة الحق، فيتمادى بالعبد تزيين

---

[١] ينظر : العين: ٤/ ٤٥٦، تهذيب اللغة : ٨/ ١٨٦،مقاييس اللغة : ٤/ ٣٩٩، الفروق اللغوية : ٢١٤، لسان العرب: ١٥/ ١٤٠- ١٤١ .

[٢] يفرق الرازي ما بين الضلال والغي بـ " أن الضلال أعم استعمالًا في الوضع ،تقول: ضلَّ بعيري ورحلي، ولا تقول: غوى، فالمراد من الضلال أن لا يجد السالك إلى مقصده طريقًا أصلًا، والغواية: أن لا يكون له طريق إلى المقصد مستقيم، يدلك على هذا أنَّك تقول للمؤمن الذي ليس على طريق السداد: إنَّه سفيه غير رشيد، ولا تقول: إنه ضال، والضال كالكافر، والغاوي كالفاسق". مفاتيح الغيب : ٢٨/٢٣٤.

[٣] المفردات : ٦٢٠.

[٤] النمل : ٤٣.

[٥] تفسير أبي السعود : ٤/ ٢٦٥.

[٦] التحرير والتنوير : ١٩/٢٧٤-٢٧٥.

الشيطان حتى يُحْكِم عليه وطأته فيكون له وليًا من دون الله، فلا يهتدي أبدًا – نعوذ بالله من ذلك.

كما أظهر التضعيف تلك العقبات والحواجز التي بدأت بـ (زَيَّن)، وانتهت بـ(لا يهتدون)، فأوجز النظم الكريم في هذه الآية حيل الشيطان ومكائده، من تزيين المعاصي والذنوب، وتعليق العبد بها، وتحقيرها في عينه، حتى يوقعه في أشدِّها وهو الكفر بالله، فيخسر بذلك دنياه وآخرته ثم يكون منه بريئًا بعد ذلك، ومن هنا استشف أحد الباحثين مستويات الإبعاد والصَّد التي يتبعها الشيطان مع الإنسان، حيث جعلها على أربعة مستويات[1].

ومجيء لفظي (الصد) و(التزيين) معًا في سياق واحد في غاية التناسب والاتساق، فالشيطان أراد صرف بلقيس وقومها ومنعهم عن رؤية الحق خاصة، فاتخذ تزيين الباطل مطيةً للوصول إلى مقصوده.

ثم التعقيب بالصدّ وتكراره مع اختلاف الفاعل (الصَّاد)[2]، يدل على أن الإسلام دين الفطرة، وأنه مهما تغطت هذه الفطرة تحت رُكام الكفر والشرك فإنها لا تلبث –إذا سطعتْ عليها أنوار الحقيقة– أن تنفض عنها الرُّكام وتعود إلى أصلها الذي فُطِرَت عليه، وهذا ما حدث لبلقيس وقومها، بدليل إسلامها في نهاية الأمر واعترافها بظلمها لنفسها، وفيه "دلالة على أنَّ اشتغال المرء بالشيء يصده عن فعل ضده، وكانت بلقيس تعبد الشمس، فكانت عبادتها إياها تصرفها عن عبادة الله، فلا ينبغي الإغراق في شيء إلا أن يكون عبادة لله تعالى ومحبته، فإن الرجل إذا غَلَّب حب ما سوى الله على قلبه، ولم يكن له رادع من عقل أو دين أصمه حبه وأعماه.

لفظ (تولَّ):

---

[1] المستوى الأول: يتمثل في انحرافهم في السجود وهو انحراف محتمل التعديل ، والمستوى الثاني: فهو في تزين الأعمال والإغراء بالباطل؛ لطمس هوية الحق في ذاتهم، والمستوى الثالث: يتمثل في تعلق الصد بما قبله وتحققه به، أما المستوى الرابع: فهو عدم الهداية نتيجة للانحراف واستغلاب الشيطان. ينظر: غرائب الصورة القرآنية : أمير سعد: ١٣٨.

[2] إشارة لقوله تعالى :﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ، وقوله: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

حرص سليمان عليه السلام على استقصاء الحقيقة حول ملكة سبأ وقومها، فأرسل المخبِر (الهدهد)وكلفه بالمهمة الآتية: ﴿ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾[1]، والتي أراد من خلالها: أن يتبين صدق المخبِر وصحَّة الخَبَر أولًا، وأن يتخذ قراراته، بالعفو عن الهدهد بعد تبيُّن صدقه، ودعوة بلقيس وقومها بعد تأكده من صحة الخبر ثانيًا، وأن يختار الأسلوب الأمثل لدعوته، بدلالة قوله: (ثم تولَّ عنهم فانظر)، فهو ينتظر ردة فعلهم ليعمل بما يقتضيه حالهم ثالثًا.

فألمح بإرساله الكتاب إلى معنى السلم في دعوته، وبمضمونه إلى الحرب –في حال عدم الخضوع–ثم انتظر ما يكون منهم ، ليعمل بمقتضاه. وهذا المعنى يرجح ما ذكره بعض المفسرين: من أن المقصود من التولي هنا: التنحي إلى مكان قريب بحيث يسمع ما يصدر منهم وما يرجع به بعضهم إلى بعض[2]، وعلى هذا فليس في الكلام تقديم على خلاف ما رأى الفراء[3]، وما قال به السكاكي[4] من أن في الكلام قلبًا [5]، وتبعه في ذلك الزركشي[6]، فالتولي في الآية عندهم يعنى

---

[1] النمل : ٢٨.

[2] ينظر : مدارك التنزيل وحقائق التأويل : ٦٠٢/٢ ، البحر المحيط : ٨/ ٢٣٢ ، نظم الدرر: ١٥٦/١٤ ، روح المعاني : ١٨٨/١٠ ، فتح البيان في مقاصد القرآن : القنَّوجي: ٣٨/١٠ .

[3] قال الفراء: "يقول القائل: كيف أمره أن يتولى عنهم وقد قال:﴿ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴾وذلك في العربية بيّن، أنه استحثه، فقال : اذهب بكتابي هذا وعجّل، ثم أخر﴿ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴾ ومعناها التقديم". معاني القرآن: ٢/ ٢٩١.

[4] ينظر : مفتاح العلوم : ٢١١.

[5] القلب: هو أن يجري حكم أحد جزأي الكلام على الآخر، ومنه: قلب العطف، نحو: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ ﴾ أي: ينظر فتولَّ. ينظر : الكليات : ٧٠٤ ، "والظاهر أن قلب المعطوف هو من باب التقديم و التأخير في غالبه وليس من القلب في شيء؛ لأن القلب يقع بين الوحدات اللغوية في الجملة الواحدة، وما حُمل على قلب المعطوف واقع بين الجمل الصغرى لا المفردات، القلب يؤدي إلى تغير الحركة الإعرابية، وبالتالي تغير الوظيفة النحوية، ولا يحدث مثل هذا في قلب المعطوف". القلب في الجملة القرآنية بين الاستعمال القرآني والتأويل اللغوي: طلال الطويجي: ١٩٧.

[6] يرى الزركشي أنَّ قوله تعالى: ﴿ فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴾من قبيل قلب المعطوف ، وعليه فسر معنى التولِّي بأنه على حقيقته أي: "فانظر ماذا يرجعون ثم تولَّ عنهم؛ لأنه نَظَرَه ما يرجعون من القول غير متأتٍّ مع توليه عنهم، وما يفسر به التولِّي من أنَّه يتوارى في الكوَّة التي ألقى منها الكتاب مجازٌ، والحقيقة راجحة عليه". البرهان : ٢٩٢/٣.

الانصراف[1]والرجوع ، وما ذُكر أولًا هو الرَّاجح، ومن دلالة ذلك تعليم الهدهد الأدب في مقام الملوك[2].

ومما يؤكد هذا المعنى أيضًا توالي الأحداث بعد ذلك، فسليمان-عليه السلام- انتظر رد بلقيس ليرسل إليها جنوده، أمَا هي فقد فضَّلت الردَّ بالمسالمة فأرسلت إليه الهدايا ؛ لتتبين أمرًا قد ساورها، وبه يتحقق مقصودها، فلقد "روي أنها قالت لقومها: إن كان ملكًا دنيويًا أرضاه المال، وعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبيًا لم يرضه المال، وينبغي أن نتبعه على دينه"[3]، ولما كانت على يقين من رده للهدايا جاءت خاضعة لأمره، راغبة في الانتساب إليه، فأعلمه الله بمجيئها [4]، فأرسل من يأتي بعرشها ؛ "ليجعل ذلك حجة عليها في نبوته، ويعرفها بذلك قدرة الله وعظيم شأنه، أنَّها خلَّفته في بيت في جوف أبيات، بعضها في جوف بعض، مغلق مقفل عليها، فأخرجه الله من ذلك كله، بغير فتح أغلاق وأقفال، حتى أوصله إلى وليه من خلقه، وسلمه إليه، فكان لها في ذلك أعظم حجة، على حقيقة ما دعاها إليه سليمان، وعلى صدق سليمان فيما أعلمها من نبوته"[5]؛ ليتحقق بعد ذلك إسلامها.

وتخيُّر لفظ (تولَّى) دون الانصراف مثلًا ؛ لأنَّ أمر التولي يحمل معنى الاقتراب والدُّنوِّ، ويدل على القيام بالأمر وإنجازه بطواعية[6]، والتشديد على ذلك ، فسليمان -عليه السلام- أراد من الهدهد أن يكون قريبًا؛ ليتابع إنجاز مهمته؛ وليرجع بعد ذلك بخبر بلقيس وقومها، يؤيد هذا قوله:﴿ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴾ من رجع الجواب لا غير[7]. أمَّا الانصراف فيكون بالابتعاد كليًا، ولا يشير إلى العودة بالجواب خاصة؛ لأنه يستحيل معه سماع ما يدور بين بلقيس وقومها، وهذا خلاف المقصود.

---

[1] ينظر : المشترك اللفظي في الحقل القرآني: عبد العال مكرم : ٢٢٧.

[2] ينظر : معاني القرآن : النحاس : ١٢٨/٥.

[3] روح المعاني : ١٠/ ١٩٣.

[4] " قال ابن زيد : أعلم الله سليمان أنها ستأتيه فقال:﴿ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾النمل:٣٨، حتى يعاتبها، وكانت الملوك يتعاتبون بالعلم". جامع البيان: ١٩/ ٤٦٣ .

[5] المرجع السابق : الصفحة نفسها .

[6] ينظر: تاج العروس: ٤٠ /٢٤١- ٢٤٨.

[7] ينظر: المفردات: ٣٤٣ .

لفظ (نكِّروا):

من أعجب الأدلة التي امتحن فيها سليمان—عليه السلام- صدق نية بلقيس وسلامة فطرتها وفطنتها، عرشها، الذي تعجب منه الهدهد ابتداءً، وكان حضوره بين يدي سليمان عليه السلام فضلًا وإنعامًا، يستوجب منه شكرًا وإقرارًا ، فجعله لبلقيس اختبارًا وامتحانًا، حيث قال:﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾[1] .

و(نكر) في الأصل: تشير إلى معنى عدم المعرفة، جاء في مقاييس اللغة:" النون والكاف والراء أصل صحيح، يدل على: خلاف المعرفة التي تَسكن إليها القلب، ونَكِر الشيء أَنْكرَه: لم يَقْبَله قَلبه، ولم يعترف به لسانه... ونَكَر الأمر نَكَارةً والإنكار خلاف الاعتراف"[2]، وتنكير الشيء من حيث المعنى، تغيير حاله، وجعله بحيث لا يعرف[3]، قال جميل[4]:

وقالُوا نَرَاهَا يَا جَمِيلُ تَنَكَّرَتْ وَغَيَّرَهَا الوَاشِي، فَقُلْتُ: لَعَلَّهَا[5]

أراد: تنكرت حالة معاشرتها بسبب تغيير الواشين[6].

فسليمان —عليه السلام— طلب تنكير العرش، أي: تغيير شكله وبعض أوصافه، قيل: بالزيادة فيه والإنقاص منه[7]، وقيل: بنزع ما عليه من الجواهر، وقيل: بجعل أسفله أعلاه ومقدمه ومقدمه مؤخره [8]؛ ليَبْرُزَ في معرض الإشكال والاشتباه عند بلقيس[1]، فيتَبَيَّن حالَها، ويحصل مقصوده.

---

[1] النمل : ٤١.

[2] ٥/ ٤٧٦ .

[3] ينظر : المفردات : ٨٢٣ .

[4] أبو عمرو جميل بن عبد الله بن معمر بن صُباح العذري القضاعي، الشاعر المشهور صاحب بثينة، أقل ما في شعره المدح وأكثره الغزل والفخر ، توفي بمصر سنة ٨٢ هـ ،كُتب في سيرته (أخبار جميل) و(جميل بثينة) مطبوع . ينظر: وفيات الأعيان:١/٣٦٦ ، الأعلام: ١٣٨/٢.

[5] ذكر بلفظ (تبدَّلت) بدل (تنكرت) في ديوان جميل بثينة : ٨٥.

[6] ينظر: التحرير والتنوير : ١٩/ ٢٧٢-٢٧٣.

[7] ينظر: جامع البيان: ٤٦٩/١٩ ، روح المعاني: ٢٠١/١٠.

[8] ينظر: روح المعاني: ٢٠١/١٠.

فلفظ (نكِّروا) في الآية أشار إلى أمرين:

أولًا: معنى التغيير الذي قصده سليمان –عليه السلام– والذي يظهر من خلال اللفظ نفسه.

ثانيًا: معنى الاشتباه وعدم الاعتراف، والذي ظهر في قول بلقيس:(كأنه هو) فأنبأت به "عن كمال رجاحة عقلها، حيث لم تقل: (هو هو) مع علمها بحقيقة الحال تلويحًا بما اعتراه بالتنكير من نوع مغايرة في الصفات مع اتحاد الذات"[٢]، قال الفراء (٢٠٧هـ)[٣]: "عرفت وأنكرت"[٤]، وهنا تظهر بلاغة هذا اللفظ.

ومن بلاغته-أيضًا– أنَّ التضعيف فيه يدل على مزيد عناية بالفعل، وطلب تحري الدقة فيه؛ ليكون موطن حيرة وإشكال لصاحبه .

وأمره –عليه السلام -بالتنكير دون التغيير أو التبديل؛ لأن التبديل يكون برفع الشيء ووضع آخر مكانه [٥]، ولا يصح مثل هذا المعنى في سياق الآية ؛ إذ لا يكون معه لجلب العرش من مملكة بلقيس مزية، كما لا يتحقق معه مقصوده عليه السلام.

أما التغيير فقد يكون قليلًا فلا يلحظ ، وقد يكون كثيرًا فلا يعرف معه أصل الشيء، وكلاهما لا يتحقق معهما مراد سليمان –عليه السلام–؛ لذا كان لفظ التنكير أبلغ .

يتبين –ممَّا سبق– القيم الدلالية لتضعيف اللفظ في مقام القصص، فقد ساعدت على الكشف عن الشخصيَّات وإظهار مكنونات النفس الداخلية المتمثلة في الغرائز والعواطف، سواءً أكانت سويَّة أم غير ذلك، كما في قصتي امرأة العزيز وامرأة فرعون، فكلاهما تعلَّق وكلاهما

[١] ينظر: تفسير أبي السعود: ٢٦٥/٤ ، روح المعاني:٢٠١/١٠.

[٢] تفسير أبي السعود : ٤/ ٢٦٥.

[٣] يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلميّ ، المعروف بالفراء ، إمام الكوفيين، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب ، توفي سنة ٢٠٧هـ ، وله عدة مصنفات منها: (المقصور والممدود)، و(معاني القرآن)، و(المذكر والمؤنث) وغيرها. ينظر: الأعلام: ١٤٥/٨-١٤٦ .

[٤] معاني القرآن : الفراء :٢٩٥/٢.

[٥] ينظر: الفروق اللغوية : ٢٣٨.

أحب، ولكن شتان ما بينهما، شتان بين من انحرفت عن الصواب بتضليل الحقيقة وبين من عرفتها وتمسكت بها.

كما عبَّرت عن الحالات الانفعالية الناتجة عن الأحداث، كما في ردة فعل النسوة في قصة يوسف –عليه السلام– وردَّة فعل ملكة سبأ تجاه دعوة سليمان عليه السلام .

ثانيًا : التكرار :

إن تكرار الحرف في المفردة الواحدة قد يحمل أبعادًا دلالية وحسية مختلفة، لها دورها البارز في تصوير دقائق المشهد، وقد ظهر هذا التكرار للحرف في ثلاثة ألفاظ (حصحص–ممرَّد – قوارير) وفي كل واحدة أظهر اللفظ نوعًا من التكرار، سيأتي بيانه في هذا المطلب.

لفظ (حصحص):

لم يرد هذا اللفظ في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في قول الله تعالى:﴿ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ ﴾[1]، قال ابن فارس (٣٩٥هـ)[2]: "حصَّ : الحاء والصاد في المضَاعَفِ أصول ثلاثة: أحدها: النصيب ، والآخر: وضوح الشيء وتمكنه، والثالث: ذهاب الشيء وقِلَّتُهُ، فالأول: الحِصَّة: وهي النصيب، يقال:(أحْصَصْتُ الرَّجُل) إذا أعطيته حصته، والثاني: قولهم:(حَصْحَصَ الشَّيْء) وضح، قال الله تعالى:﴿ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ ﴾ ، ومن هذه الحَصْحَصَة: تحريك الشيء حتى يستمكن ويستقر"[3].

ولقد ذكر الراغب معنى الوضوح والانكشاف في اللفظ، كما أشار إلى أن له دلالتين: حسية بمعنى القطع كقطع الرأس، ومعنوية وهي القطع بالحُكم، وهي المرادة ههنا، فبها يظهر الحق وينكشف[4].

---

[1] يوسف : ٥١.

[2] أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازيّ، أبو الحسين، من أئمة اللغة والأدب ، ولد سنة٣٢٩هـ، وتوفي سنة ٣٩٥هـ ، من تصانيفه : (مقاييس اللغة)، و(المجمل)، و(الصاحبي)، (جامع التأويل) وغيرها من المؤلفات. ينظر: الأعلام: ١٩٣/١.

[3] مقاييس اللغة : ١٢/٢.

[4] المفردات: ٢٣٧.

وقد أضاف ابن منظور إلى ما ذكره ابن فارس معنى الاقرار، إذ قال: "وقوله عز وجل: ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ ﴾ لما دعا النسوة فَبَرَّأْنَ يوسف، قالت: لم يبق إلا أن يُقْبِلْنَ عَلَيَّ بالتقرير، فأَقَرَّت، وذلك قولها: الآن حصحص الحق"[1].

ولقد استثمر المفسرون هذه المعاني في توجيه معنى قوله عزَّ وجلَّ:﴿ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾. فمعنى ذهاب الشيء وانقطاعه أشار إليه الطبري بقوله : "وأصل (الحصِّ): استئصال الشيء، يقال منه:(حَصَّ شعره) إذا استأصله جزًّا، وإنما أريد في هذا الموضع بقوله:﴿ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾، ذهب الباطل والكذب فانقطع، وتبيَّن الحق فظهر"[2] ،أي: أن امرأة العزيز صرحت بحقيقة الحال، فحصل الحق على أمكن وجوهه، وانقطع عن الباطل بظهوره كما فسَّره البقاعي[3].

أمَّا الزمخشري وأبو السعود وابن عاشور فقد ذكروا معنى الثبات والاستقرار في تفسيرهم لمعنى الآية، قال الزمخشري: "﴿ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ ﴾ أي: ثبت واستقر، وقرئ (حُصحص)على البناء للمفعول، وهو من حصحص البعير إذا ألقى ثفناته[4] للإناخة"[5]، والمعنى: " أُقِرَّ الحق في مقرّه ووُضِع في موضعه"[6]، فثبتت براءة يوسف –عليه السلام– مما رمته به امرأة العزيز، وزال عنه القيل والقال باعترافها[7].

كما أشار ابن عطية إلى معنى الحصَّة والنصيب في قوله: "لما سمعت زوجة العزيز مقالتهن، وحيدتهن عن الوقوع في الخزي، حضرتها نية وتحقيق، فقالت:﴿ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ وحَصْحَصَ معناه: تبيَّن بعد خفائه ... وقيل: هو مأخوذ من الحِصَّة، أي: بانت حِصَّتُه من

---

[1] لسان العرب: ١٦/٧.

[2] جامع البيان: ١٤٠/١٦.

[3] ينظر : نظم الدرر: ١٢٧/١٠.

[4] " الثفنة مجتمع الساق والفخذ، وقيل: الثفنات من الإبل ما تقدم، ومن الخيل موصل الفخذ في الساقين من باطنها ". لسان العرب: ٧٩/١٣.

[5] الكشاف: ٢/ ٤٧٨.

[6] تفسير أبي السعود : ٣/ ١٥٧.

[7] التحرير والتنوير : ٢٩١/١٢.

حِصَّة الباطل، ثم أقرَّت على نفسها بالمراودة، والتزمت الذنب، وأبرأت يوسف البراءة التامة"[1]. فرجح المعنى الأول؛ لأنه ذكر الثاني بصيغة التمريض.

فالمدلول اللغوي لكلمة (حصحص) أوجز لنا كل تلك المعاني، وإذا تناولنا الكلمة في مستواها الصرفي فإنها ترمي إلى معان أُخر، فقد أزاحت كل الشوائب المتعلقة بالقضية، فلا مجال للتأوّل بعد ذلك، دل على هذا صيغة الزيادة ، فأصل الكلمة "(حصَّ)و(حصحص)نحو : (كفَّ وكفكف) و(كبَّ وكبكب) "[2]، وعلى قاعدة (زيادة المبنى زيادة في المعنى) التي أشار إليها ابن الأثير[3]؛ فإنَّ (حصحص) آكد من (حصَّ) فيما ذكر من معانٍ[4]، لذا قال البقاعي:" البقاعي:"﴿ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: حصل على أمكن وجوهه، وانقطع عن الباطل بظهوره ... فهذه زيادة تضعيف، دل عليه الاشتقاق"[5].

ويمثل اعتراف المرأة بهذا اللفظ أفضل نهاية للمشهد ، حيث صوَّر يقظة الضمير لديها ، وأبرز مشاعر الندم والاعتراف بالخطأ من قِبَلِها ، والذي ظهر في قولها بعد ذلك:﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، فهي لم ترد مجرد إظهار مطلق نزاهة يوسف—عليه السلام- بشهادة النسوة من غير التعرض لنزاهته في سائر المواطن، خصوصًا فيما وقع في التشاجر بمحضر العزيز، بل أرادت إبراز ما هو متحقق في نفس الأمر وثبوته من نزاهته —عليه السلام — في محل النزاع، وخيانتها[6].

فتكرار صوتي الحاء والصاد إنَّما هو تعبير صوتي دلالي لظهور الحق بعد غياب زمني طويل، فكأن الأمر قد غُيِّب بسجن يوسف —عليه السلام- ثم استرجِعَ بهذا التكرار، فهذه "الكلمة لم تأت في القرآن إلا في هذا الموضع؛ لذا فهي بلا شك قد جمعت أطراف المعنى المراد؛ وذلك أن الطريقة التي ثبتت بها براءة يوسف كانت غاية في العلو والعظمة، إذ المعترِف ببراءة

---

[1] المحرر الوجيز: ابن عطية : ٣/٢٥٣.

[2] المفردات: ٢٣٧ .

[3] ينظر : المثل السائر: ٢/١٩٧.

[4] جماليات النظم : ١١٨.

[5] نظم الدرر : ١٠/١٢٧.

[6] تفسير أبي السعود : ٣/ ١٥٧.

يوسف هو مجموع النسوة لا بعضهن، وكان ذلك أمام الملك، ومن ضمنهن امرأة العزيز، فليس هناك أطراف أخرى لها تعلق بالقضية إلا يوجد من يمثلها في هذا المجلس أعلى تمثيل؛ لذا فقد تجمع الحق، وظهر وبان على أكمل وجه، كما تُعَبِّر عن ذلك هذه الكلمة (حصحص)"[1].

لفظا (مُمَرَّد)و(قوارير):

ورد هذان اللفظان في قوله تعالى:﴿ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَ﴾[2]، ويعود لفظ (ممرَّد) إلى الجذر اللغوي (مَرَدَ) وهو "أصل صحيح، يدل على تجريد الشيء من قشره أو ما يعلوه من شَعره ... و(المِمَرَّد) : البناء الطويل"[3]. و(التَّمريد في البناء): التَّمليس والتَّسوية، و(المارد) المرتفع من الأبنية[4]، قال ابن عطية: "و(المِمَرَّد): المحكوك المملس[5]، ومنه: الأمرد، والشجرة المرداء التي التي لا ورق عليها، و(الممرد) أيضا: المطول، ومنه قيل: للحصن مارد"[6].

وتأتي لفظة (مُمَرَّد) بمعنى: مشيد، قال الطبري: "وقوله:﴿ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَ﴾، يقول جلّ ثناؤه: قال سليمان لها: إنَّ هذا ليس ببحر، إنَّه صرح مُمَرّد من قوارير، يقول: إنما هو بناء مبني مشيد من قوارير"[7].

ووصف سليمان –عليه السلام– للصرح بهذه اللفظة أفاد كل هذه المعاني، فصَرْحُهُ: حصن عال مرتفع، لا يصل إليه أحد، لَبِنَاتُه من قوارير، صُقلت بدقة، وحُكَّت، وسُوِّيَت، حتى أصبحت ملساء لا خدش فيها، ثم رُكِّبَت، ثم أُعِيد صقلها، فأصبحت قالبًا واحدًا، لا ترى بين لَبِنَاته فراغًا أو شقًّا من فرط نعومته؛ لذا حسبته بلقيس لجَّة وكشفت عن ساقيها.

---

[1] جماليات النظم : ١١٨-١١٩.

[2] النمل : ٤٤.

[3] مقاييس اللغة : ٣١٧/٥.

[4] لسان العرب : ٤٠١/٣ ، القاموس المحيط : ٣١٩ ، تاج العروس : ١٦٧/٩.

[5] أشار إلى هذا المعنى الراغب في مفرداته والألوسي في تفسيره: ينظر: المفردات: ٤٨٢، روح المعاني : ٢٠٣/١٠.

[6] المحرر الوجيز : ٢٦٢/٤.

[7] جامع البيان : ٤٧٥/١٩.

والتكرار في لفظ (ممرَّد) صوَر دقة البناء، حيث أشار إلى استمرار الصقل والتمليس والتسوية للزجاج، للوصول إلى نعومة مفرطة، تتلاشى معها أرضية القصر الزجاجية في البحر، فيُظن أن لا حائل دونه، وبذلك يبرز جمال الصرح وعظمته.

وجَعْلُ مادة البناء (قوارير) إشارة أخرى إلى عظمة ذلك القصر وفخامته، فهو ليس كأي قصر رأته بلقيس؛ لذا اعترفت بقولها: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1].

وأصل قوارير (قَوَرَ) قال ابن فارس: " القاف والواو والراء: أصل صحيح، يدل على استدارة في شيء"[2]، وقد تكون من (قرَّ) بمعنى: استقر. فالقارورة: ما قرَ فيه الشراب ونحوه، وقيل: لا يكون إلا من الزجاج[3]. وقيل: القارورة: الطويلة العنق[4]. ويقال: إن القارورة إناء خاص خاص بالسوائل[5].

وعلى هذا فإن وصف سليمان للصرح بأنَّه من قوارير، تصوير دقيق لهيئته وشكله، فيتخيله السامع بأنَّه قصر منيف، واسع من أسفله، ضيق من أعلاه- يشبه في ذلك قارورة الشراب- به استدارة، تقرُّ في أرضيته حيوانات البحر، بلوري اللون، جمع بين شفافية الماء وصفاء الزجاج.

وتكرار صوت الراء أظهر عظمة القصر وبديع الصنع، حيث دل على رقة الزجاج الذي شيِّد منه القصر. ومع تلك الرقة فإنه آمن من الكسر، فهو محكم الصنع، يُذهل الناظر إليه، فيدفعه إلى الإذعان والخضوع، وهذا ما حدث لملكة سبأ.

---

[1] النمل: ٤٤.

[2] مقاييس اللغة: ٣٩/٥.

[3] تاج العروس : ٣٩٤/١٣ ، القاموس المحيط: ٤٦١

[4] المخصص: ٢٠٠/٣.

[5] مقال : الآنية والأوعية المستخدمة في العهد النبوي : مُحَمَّد الجميل :١٢١.

والمتتبع للآيات القرآنية التي ذكر فيها لفظ (القوارير)[1] يلحظ أن ذكره هنا شاهد آخر على قمة الرغد والرفاهية اللذين كان ينعم بهما سليمان –عليه السلام– في الدنيا، فلم يذكر هذا اللفظ في موضع آخر إلا في وصف أكواب أهل الجنة ، قال تعالى:﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾[2] وهذا من تمام النعيم في الجنة، فأهلها يشربون في أكواب هذه صفتها (قوارير من فضة)، فما رأى الناس أبدًا قوارير من فضة، فالأكواب إمّا من فضة، وإمّا من زجاج .أمَا أن تكون فضةً وزجاجًا معًا، فذلك هو الذي لا يقع فى تصوّر أحد، فهي أكواب من فضة فى صفاء الزجاج، وشفافيته، حيث يُرى من ظاهرها لون ما فيها من شراب –وهذا لا يكون إلا لآنية الزجاج وحده– ولغرابة هذه القوارير جاء رسم اللفظ في هذين الموضعين بألف زائدة في آخره، دون تنوين ؛ ليدل على أنها ليست مما للناس عهد به[3].

وذكر الصرح والقوارير فيه إلماحة إلى البعد الاجتماعي والحضاري في عهد سليمان – عليه السلام– الذي أُوتي من الملك ما لم يُعْطه أحد من البشر ، مُلْكٌ تسامق وتعالى على مُلْك فرعون الذي زعم أنه يريد الولوج إلى السماء بصرح من طين !

وفي تخيُّر مثل هذه الكلمات ما ينم عن السياق الثقافي الذي يُصوِّر الحياة الاجتماعية والأبعاد الحضارية للمجتمعات على اختلاف العصور.

وعلى هذا يمكن القول: إنَّ المستوى الصرفي القائم على تكرار الحرف في اللفظ المفرد أبرز الأبعاد التعبيرية له ، حيث أظهر الحقائق المخفاة في لفظ (حصحص)، كما صوَّر الهيكل الحسي للقصر من خلال وصفه بأنَّه (ممرد من قوارير)، ولو أستعمل لفظ غيرهما لن يقوما مقامهما وإن كانا مرادفين لهما. وهكذا يتضح أن تكرار الحروف ليس غاية في حد ذاته، بل له أبعاده الدلالية في تصوير المعاني بصورة حسِّيَّة من خلال الجرس الصوتي للكلمات، وتكثيف دلالتها.

---

[1] ذكر هذا اللفظ في القرآن ثلاث مرات في موضعين: مرة في قوله تعالى:﴿ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ النمل : ٤٤، ومرتين في قوله تعالى :﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ الإنسان : ١٥-١٦.

[2] الإنسان : ١٥-١٦.

[3] ينظر :التفسير القرآني للقرآن: ١٣٥٦/١٥ .

ثالثًا: المفردة بين الاسمية والفعلية:

يتكون الكلام من اسم وفعل ويربط بينهما الحرف، ويختلف التعبير بهما بحسب ما يقتضيه المقام، قال ابن عقيل(٧٦٩هـ)[١]: " الكلم: اسم جنس، واحده كلمة: وهي إما اسم، وإما فعل، وإما حرف، لأنها إن دلت على معنى في نفسها غير مقترنة بزمان فهي الاسم، وإن اقترنت بزمان فهي الفعل، وإن لم تدل على معنى في نفسها بل في غيرها فهي الحرف"[٢].

فالدلالة الزمنية في الفعل هي الفيصل ما بينه وبين الاسم، مما يدل على اختلاف دلالة التعبير فيهما، فما يصلح فيه الاسم لا يصلح فيه الفعل، والعكس صحيح؛ وذلك" أنَّ موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئا بعد شيء، وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء"[٣].

وهذه الدلالة على الثبوت في الاسمية والتجدد في الفعلية تكشف بعضًا من أسرار استعمال أحدهما في موضع دون الآخر، وذلك بما يقتضيه سياق الكلام.

دلالة الأفعال والتناوب فيها بين الأزمنة:

من الملاحظ في قصص نساء القصور الملكية في القرآن غلبة الفعل على الاسم، بل لعله الغالب في مقام القصِّ عامة، فالقصص تحكي أحداثًا وأخبارًا، والفعل هو الحدث مصحوبًا بدلالة الزمن، فتلحظه بشكل لافت في قصة المراودة منذ بدايتها، ولقد حكى القرآن تلك المراودة بقوله تعالى:﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾[٤]، ثم تكرر ذكر هذا الفعل على لسان يوسف حين دافع عن نفسه فقال:﴿ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾[٥]، وعلى لسان النسوة حين

---

[١] عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مُحَمَّد القرشي الهامشي، بهاء الدين ابن عقيل، من أئمة النحاة، ولد بالقاهرة سنة ٦٩٤هـ ،وتوفي بها سنة ٧٦٩هـ، وله عدة مصنفات منها: (شرح ألفية ابن مالك)، و(المقدمة الحضرمية في فقه الشافعية)، و(الحجج القواطع في الواصل والقاطع). ينظر : الأعلام : ٤/٩٦-٩٧.

[٢] شرح ابن عقيل: ١/ ١٥.

[٣] دلائل الإعجاز: ١٧٤.

[٤] يوسف : ٢٣

[٥] يوسف : ٢٦.

تناقلن الخبر، فقلن:﴿ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾[1]، وعلى لسانها حين اعترفت بقولها:﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾[2] وقولها:﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾[3]، وعلى لسان العزيز حين سأل النسوة ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾[4].

" والمرَاوَدَةُ: أن تنازع غيرك في الإرادة ، فتريد غير ما يريد، أو ترود غير ما يرود"[5]، وقيل: "المرَاوَدَةُ :الطلب مرة بعد مرة فنسبوها إلى شدة العشق، وشدة الحرص على الفاحشة"[6].

الفاحشة"[6].

" قال الليث: وتقول: راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هي عن نفسه، إذا حاول كل واحد من صاحبه الوطء والجماع، ومنه قوله تعالى:﴿ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾، فجعل الفعل لها "[7].

ولكون سياق الحكاية قائمًا على تحقق الفعل جاء ذكره بصيغة الماضي (رَاوَدَتْهُ – رَاوَدَتْنِي– رَاوَدْتُهُ – رَاوَدْتُنَّ)، أي: أن الفعل قد حصل منها، وعلى الرغم من وقوعه فقد تناقلته النسوة بفعل المضارعة الدال على الاستقبال والديمومة، فقصدن إلى "استحضار الحالة العجيبة لقصد الإنكار عليها في أنفسهن ولومها على صنيعها"[8].

قال ابن الأثير: "اعلم أن الفعل المستقبل إذا أتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي؛ وذاك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة، حتى كأن السامع يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي"[9]،

---

[1] يوسف : ٣٠.

[2] يوسف : ٣٢.

[3] يوسف : ٥١ .

[4] يوسف : ٥١.

[5] المفردات : ٣٧١.

[6] التفسير القيم : ٣٢٨.

[7] لسان العرب : ١٩١/٣.

[8] التحرير والتنوير : ١٢/ ٢٦١.

[9] المثل السائر: ١٤٥/٢.

وهذه الدلالة للفعل المضارع جعلته أنسب ما يكون لمقام القصص، لِما فيه من إحياء المشاهد واستحضار الأحداث وتجسيم الشخوص، ولهذا كثر مجيئه في القصص القرآني.

كما أنَّ دلالة المضارع على استمرار الحدث وتجدُّده شيئًا بعد شيء جعل تخيُّره ملائمًا لصنيع امرأة العزيز، وأنَّ ذلك الفعل أصبح "سجية لها، تخادعه دائمًا عن نفسه ... [لذا] لم يقلن: (راودت فتاها)، ثم نبهن على علة ديمومة المراودة وهي كونه (قد شغفها حبًا) أي: بلغ حبه شغاف قلبها"[1]. فاستخدام المضارع هنا جاء للأمرين جميعًا[2].

وقد يكون في الديمومة دليل على إصرارها وتخطيها جميع العقبات للوصول إلى مبتغاها، كما أنَّ فيه تنبيهًا للمرأة بشكل عام والتي تتميز طبيعتها بتغليب العاطفة على العقل؛ لأنها متى ما تملَّكتها العاطفة أذهبت عقلها، وأفقدتها السيطرة على نفسها، فأنْسَتْها مكانتها، وأوقعتها في المحظور.

وبالنظر لهذا التعبير القرآني يظهر لي أن الفعل الماضي فيه قد احتشد لإبراز براءة يوسف-عليه السلام- فظهر في سياق الحكاية منسوبًا لامرأة العزيز (ورَاوَدَتْهُ التي هو في بيتها) ليدل على تحقق حدوث الفعل منها، ثم عرَّفها بالموصول (التي) "وفي ذلك من دلالات اللوم لها والتبرئة لساحة يوسف ما فيه ، فهي صاحبة البيت فحقها ألَّا تنظر إلى مثله"[3] .

كما جاء الماضي في سياق الأحداث بعد ذلك في ثلاثة مواطن، وكلها تشير إلى تلك البراءة:

- في دفاع يوسف-عليه السلام- عن نفسه بقوله: (هي رَاوَدَتْنِي) فنسب الفعل لها، وشهد شاهد من أهلها على ذلك.
- واعتراف امرأة العزيز أمام النسوة بقولها: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ وعند الملك حين قالت:﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فنسبت المراودة لنفسها في الحالين

[1] البحر المحيط: ٦/ ٢٦٦ .

[2] ينظر: جماليات النظم: ٦٧.

[3] المرجع السابق: ٦٣.

كليهما، وأسندت إلى يوسف –عليه السلام– العصمة والصدق، أي: صدقه في دفاعه عن نفسه.

- وفي سؤال العزيز للنسوة فجاء الرد عليه بما يشير إلى براءة يوسف–عليه السلام– إذ قلن:﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾ " فكان جوابهن إقرارًا منهن ليوسف بالعفة والطهارة"[1] مما يدل على تبرئتهن له، فلا يكون منه الفعل أبدًا.

وعلى هذا يمكن القول: إنَّ الفعل الماضي جاء ليفيد تحقق وقوع فعل المراودة من المرأة، وعلى ذلك نفيه ضمنًا عن يوسف–عليه السلام– إذ أن نسبة الفعل لها وحدها دليل على انتفائه عنه، أضف إلى ذلك إشارة المراودة إلى جِبِلَّة المرأة العاطفية، والتعبير عنه بالفعل الماضي صوَّر لحظات الإعجاب الشديد من قِبَل المرأة، والذي أفقدها السيطرة على نفسها فطلبت فعل المنكر، أمَّا العدول عن الماضي إلى المضارع على لسان النسوة فإنما كان لأسرار بلاغية اقتضاها السياق كما سبق.

ومثل هذا العدول من الماضي إلى المضارع يبدو جليًا في قصة بلقيس أيضًا، وذلك حين وصف الهدهد ما رآه من بلقيس وقومها ، قال تعالى:﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾[2].

ففي سياق الآية تجد دالات الأفعال في الماضي (وجدت– أوتيت– وجدتها– زيَّن– صدَّهم)؛ للدلالة على تحقق الحدث، ثم حدث تحول من الماضي إلى المضارع في (تملكهم) و(يسجدون)؛ لتصوير الحدث بكل أبعاده، فالملك والتدبير للمملكة قائم إلى زمن الإخبار عنه[3]، وكذلك السجود مستمر منهم لاستغلاب الشيطان لهم.

فمن دلالة المضارع في هذا المقام آنية الحدث فحتى لحظة إخبار الهدهد لسليمان بخبرها لازالت في ملكها لهم، وهذا دليل على أنَّ ما أتى به الهدهد هو خبر الساعة، الذي لم يصل

---

[1] التفسير القرآني للقرآن: ٦/١٢٨٥.

[2] النمل: ٢٣-٢٤.

[3] غرائب الصورة القرآنية : ١٣٨.

إليه أحد، فصحت حجة غيابه، بدلالة قوله قبل ذلك: (وجدت) فغيابه كان بسبب استقصائه واجتهاده في البحث ليأتي لسليمان –عليه السلام– بهذا الخبر العجيب، فصار "هذا الخبر للهدهد عذرًا وحجةً عند سليمان، درأ به عنه ما كان أُوعد به؛ لأن سليمان كان لا يرى أن في الأرض أحدًا له مملكة معه، وكان مع ذلك– ﷺ– رجلًا حبّب إليه الجهاد والغزو، فلما دلَّه الهدهد على ملك بموضع من الأرض هو لغيره، وقوم كفرة يعبدون غير الله له في جهادهم وغزوهم الأجر الجزيل والثواب العظيم في الآجل، وضمّ مملكة لِغَيْرِهِ إلى ملكه، حقَّت للهدهد المعذرة، وصحّت له الحجة في مغيبه عن سليمان"[1]. ولغرابة الخبر ونكارته جاء هذا التحول بين الأزمنة، فقلَّما تملك النساء، فكيف إذا كان هذا الملك عظيمًا كدولة سبأ؟! وكيف إذا كان الرجال الأشداء يدينون بالولاء والطاعة لامرأة؟! وكيف إذا كانت عبادتهم لغير الواحد الأحد ﷻ؟ !كل هذه المعاني كانت مثار استغراب الهدهد ولذلك جاء التعبير عنها بالمضارع.

كما دلَّ السياق على قوة ذلك الملك وعظمته، حيث أوضح شدة ولاء القوم وطاعتهم لتلك الملكة، بذكره لـ (تملكهم– وأوتيت من كل شيء– ولها عرش عظيم)[2] أولًا، ومن خلال قوة الأسلوب الذي بنى عليه خبره ثانيًا، إذ جاء بالفعل المبني لما لم يسمَّ فاعله، وعبَّر بالإيتاء، وصيغة العموم، ثم عبَّر بالجملة الاسمية، فقدَّم المسند على المسند إليه؛ مما أضفى على الأسلوب قوة وفخامة تتناسب مع مقصوده.

ثم جاء التحول من المضارع (تملكهم) إلى الماضي (أُوتي) منبئًا بعظم مُلْكِها، والدليل على ذلك بناؤه لما لم يسم فاعله؛ "إذ لا يتعلق الغرض بتعيين أسباب ما نالته، بل المقصود ما نالته، على أن الوسائل والأسباب شتى: فمنه ما كان إرثًا من الملوك الذين سلفوها ، ومنه ما كان كسبًا من كسبها واقتنائها ، ومنه ما وهبها الله من عقل وحكمة"[3]، وقد يكون المحذوف هو الفاعل وليس الأسباب، فالأصل أن المؤتي هو الله عز وجل، يؤتي الملك من يشاء، وهذه الأسباب إنما هي تسخير من الله تعالى، فمن الأغراض البلاغية لحذف الفاعل أن يكون متعيِّنًا،

---

[1] جامع البيان: ١٩/ ٤٤٦.

[2] المرجع السابق: ١٣٦.

[3] التحرير والتنوير: ١٩/ ٢٥٣.

أو أن الفعل لا يصلح إلا له، أو لا يتعلق بمعرفته كبير فائدة [1]؛ لأن المقصود التركيز على الفعل أو الحدث، فموضع الغرابة هاهنا أن صاحب الملك العظيم امرأة !! وأن من أُوتي مُلكًا عظيمًا كهذا حقه أن يعبد الله تعالى مالك الملك الذي آتاه من فضله، لا أن يشرك به، ولعل حذف الفاعل كان لهذا السبب. ثم إن من خصائص القصص الإيجاز وعدم الاستطراد في ذكر التفاصيل الثانوية، فالمهم هو بيان عظمة الملك وليس كيف حصلت عليه أو وصل إليها كما ذكر ابن عاشور، والله أعلم.

أما قوله: ﴿ يَسۡجُدُونَ ﴾ ففيه أيضًا "استحضار لمشهد الانحراف للقوم، واستمرارهم فيه يتجاوز خبره الماضي إلى الحاضر، واحتمال استمراره في المستقبل، وفي هذه الصفة إدانة للقوم أمام النبي، فلو تكلم بصيغة الماضي(سجدوا) لأفاد تحققه في الماضي دون الحاضر فلا يتحقق مفهوم الإدانة لهؤلاء"[2].

أما قوله: ﴿ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾ في نهاية آية تزيين الشيطان وصده، فهو دليل واضح على أن عدم هدايتهم مرهون باستمرار التزيين والصد[3]، فمتى زال السبب حصلت الهداية، فقابلية رجوعهم إلى الحق ممكنة عند ظهور الدليل، ولقد تحقق ذلك لبلقيس حين قالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[4]، فعبَّرت عن ظلمها لنفسها بالماضي؛ لأن كل ما كان منها في ظل عبادتها لغير الله داخل في هذا الظلم، فظلمها لنفسها حاصل منذ عبادتها للشمس، وفي هذا اتهام منها لذاتها، فهي من أوقعت نفسها في هذا الظلم، ومن ثم أمكنها إجلاؤه برجوعها عنه؛ لذلك أعلنت استسلامها وأقرَّت بالدين الذي جاء به سليمان—عليه

---

[1] قال القزويني في حذف المسند إليه: " أما حذفه : فإما لمجرد الاختصار والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر، وإما لذلك مع ضيق المقام، وإما لتخييل أن في تركه تعويلًا على شهادة العقل في ذكره...وإما لاختبار تنبه السامع له عند القرينة أو مقدار تنبهه، وإما لإيهام أن في تركه تطهيرًا له عن لسانك، أو تطهيرًا للسانك عنه ، وإما ليكون لك سبيل إلى الإنكار إن مست إليه حاجة، وإما لأن الخبر لا يصلح إلا له حقيقة أو ادعاء ،وإما لاعتبار آخر مناسب لا يهدي إلى مثله إلا العقل السليم والطبع المستقيم ". الإيضاح:٢/٤-٥، وجاء في عروس الأفراح: أن الحذف قد يجيء لتعينه أو ادعاء التعيُّن .١/١٥٩.

[2] غرائب الصورة القرآنية : ١٣٨- ١٣٩.

[3] ينظر : المرجع السابق : ١٣٨.

[4] النمل: ٤٤.

السلام– فقالت:(أسلمت) فعبَّرت بالماضي الدال على تحقق وقوع الفعل، فقد وقع الظلم منها قديمًا، تم تحقق إسلامها بدخولها في دين سليمان عليه السلام.

وكما عبَّرت بلقيس عن استسلامها بالماضي الدال على زمن النطق بقولها:﴿ وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ ﴾ فقد عبَّرت امرأة العزيز بالماضي﴿حَصۡحَصَ ﴾ المقرون بالظرف الدال على الحال﴿ ٱلۡـَٰٔنَ ﴾؛ لتكشف حقيقة القضية في قصة يوسف–عليه السلام–حيث أوضحت به زمن وقوع الحدث وربطته بلحظة اعترافها، فكما كان الاعتراف منها في الماضي أمام النسوة جاء اعترافها هنا صراحة أمام العزيز ومن في حضرته؛ لتتجلى براءة يوسف–عليه السلام– ليبدأ بعد ذلك مرحلة جديدة من العز والسلطة في ظل العزيز، قال ابن عاشور: "والتعبير بالماضي مع أنه لم يثبت إلا من إقرارها الذي لم يسبق ؛لأنه قريب الوقوع ، فهو لتقريب زمن الحال من المضي. ويجوز أن يكون المراد: ثبوت الحق بقول النسوة:﴿ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾، فيكون الماضي على حقيقته"[1]، فدلائل ثبوت براءة يوسف كثيرة وهي سابقة، وما ستقوله الآن امرأة العزيز نهاية الأمر، كما "أن في التعبير بالماضي لفعل لم يقع بَعَدُ إشْعَارٌ بحصوله وتأكيد لوقوعه حتى كأنه واقع حاصل من قبل، وهذا مناسب لحالها"[2].

ويلاحظ أيضًا تكثيف الفعل لحركة الزمن في قول امرأة فرعون :﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾، مما أعطى تصورًا لاستمرار الحدث واستحضار المشهد، فجاء طلبها﴿ لَا تَقۡتُلُوهُ ﴾ موحيًا بطلب عدم قتله لا في لحظة التقاطه ولا بعد ذلك؛ لذا عقبت بقولها :﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾[3].

وتعاقب الأفعال المضارعة في كلام آسية (لا تقتلوه–ينفعنا–نتخذه–يشعرون) ساعد على استحضار الحدث في الزمن الحالي مع امتداده إلى المستقبل ، فاتسعت بذلك مساحة الحدث واكتسب صفة التجدد والاستمرار، فالنفع حاصل في الحاضر وممتد للمستقبل، فما رأته

[1] التحرير والتنوير : ٢٩١/١٢.

[2] جماليات النظم : ١١٩.

[3] ينظر: البحث نفسه :٤٨–٥٠

آسيا في موسى–عليه السلام–من مخايل اليمن والنجابة لم تزل تظهر علاماته حتى صار نبيًا مرسلًا فآمنت به وحصلت لها النجاة.

قال ابن كثير في تفسيره: "وقوله:﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ وقد حصل لها ذلك، وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه. وقوله:﴿ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾أي: أرادت أن تتخذه ولدًا وتتبناه، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه"[1]، فأظهرت بذلك عاطفة الأمومة التي لا تنطفئ لدى كل أنثى مهما كان وضعها الاجتماعي، فكونها امرأة فرعون المعروف بالقسوة والشدة لم يمنعها من الوقوف أمامه، والمطالبة بما رأت أنه قد يكون من حقها فقالت:﴿ لَا تَقۡتُلُوهُ ﴾ بعد أن استعطفته بقولها: ﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ ﴾، ثم عللت ذلك بالنفع وجعله ولدًا لهما ليكون ذلك أدعى لاستجابته لمطلبها .

وقوله تعالى:﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾مرتبط بقوله:﴿ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾[2]، فعدم الشعور مرتبط بما سيكون منه–عليه السلام–في المستقبل، فهم "لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة"[3].

دلالة الاسم:

من دلالة التعبير بالاسم ما نجده في قصتي امرأة العزيز وامرأة فرعون، فقد جاء التعبير عن (الظلم) بالاسم فيهما، قال تعالى على لسان يوسف–عليه السلام–:﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[4]، وقال عز وجل على لسان امرأة فرعون:﴿ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[5]؛ وذلك لأن المقصود ثبوت تلك الصفة ودوامها فيهم حتى صار الظلم سمة لهم لا تنفك عنهم فلا سبيل للرجوع عنه، لما سبق من دلالة الاسم على الثبوت، والمقام يقتضي ذلك، فيوسف–عليه السلام–أدرك أن إجابته لمراودة المرأة فيه ظلم من جانبين: ظلم لكليهما بارتكاب معصية

[1] تفسير القرآن العظيم : ابن كثير: ٦/٢٠٠.

[2] القصص : ٨.

[3] تفسير القرآن العظيم : ٦/٢٠٠.

[4] يوسف : ٢٣.

[5] التحريم : ١١.

اتفقت الأديان على أنها كبيرة، وظلمٌ لسيده الذي آمنه على بيته، وآمنها على نفسها إذ اتخذها زوجًا[1]، فرفض الانصياع لها ابتداءً وقال:﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ ثم أعقبه بقوله:﴿ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ؛ ليبرئ بذلك ساحته من الدخول في فئة الموسومين بالظلم لأنفسهم ولغيرهم حتى لا يخسر دنياه وآخرته.

ومن بلاغة التعبير بالاسم في هذا الموضع – أو بعبارة أخرى: وضع الاسم الظاهر موضع المضمر– عموم الحكم بنفي الفلاح عن كل ظالم ، وليس المذكورون في القصة فقط، وهذا يقتضي التحذير من الظلم لعاقبته الوخيمة، وهو متقرر في جميع الشرائع. وهنا يبدو السياق المقصدي الذي هو من خصائص البيان القرآني، فالقصة فيه لا تأتي لمجرد التسلية، بل لأخذ العبرة واستنباط الأحكام الشرعية منها.

أما امرأة فرعون فقد قصدت إلى النجاة من فرعون أولًا، ثم ممن تبعه في كفره وطغيانه، فهم ظالمون لأنفسهم بالكفر، ولغيرهم بالتعذيب والقتل امتثالًا لأمر سيدهم، فهم لا يملكون الإرادة للرجوع عن ظلمهم فوصفتهم بهذه الصفة الثابتة في حقهم.

العدول عن الفعل إلى الاسم:

كما وقع التحول في الفعل من زمن لآخر، فقد جاء أيضًا في الآيات العدول من الفعل إلى الاسم، من أجل تأدية فكرة المشهد ورسم أبعاده، وقد جاء ذلك في مواضع عدة.

ففي مشهد الاستباق ضمَّنت امرأة العزيز كلامها اتهامًا ليوسف–عليه السلام– فقالت:﴿ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا ﴾[2]، فلم تصرح باسمه، "وإنما استخدمت الموصول العام (مَنْ)؛ وذلك لأنها تريد تخويف يوسف تخويفًا يثنيه عن ثباته في موقفه الرافض للانصياع لإرادتها، تريد أن تخوفه ذلك التخويف الذي لا يصل إلى حد قطع رجائها في استمالته لها، فهي تلوح بالعقوبة دون أن تصرح باسمه، فلربما يُهَزْهِز هذا التلويح عصمته ويجعله يومئ لها بما يعبر عن رضوخه لإرادتها ، وهذا يعكس أن امرأة العزيز مع صدود يوسف عنها وانجراح كرامتها

[1] ينظر : التحرير والتنوير : ١٢/ ٢٥٢.

[2] يوسف : ٢٥.

وتعقد الموقف بظهور زوجها، مازالت تملك الأمل في انقياده لها ومازالت تتشبث بالرغبة في إيقاعه في شَرَكها"[1]؛ لذا صرحت بتلك الرغبة أمام النسوة حين قالت: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[2].

ومن الملاحظ أن تهديدها له بقولها: ﴿ إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾فيه تخيير واختيار، فخيَّرت العزيز ما بين سجن يوسف—عليه السلام— وبين تعذيبه، واختارت له السجن، فقدمته وعبَّرت عنه بالمضارع المسبوق بأنْ؛ إذ لم تقصد إيلامه، بل سعت إلى سجنه يومًا أو أقل على سبيل التخويف، ولو أرادت الحبس الدائم لعبَّرت عنه بالاسم الدال على الدوام[3]، كما في تهديد فرعون لموسى—عليه السلام-بقوله: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾[4]، فوصفه بلفظ ﴿ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ أي: من الذين أقحموا في السجن سنين عددًا حتى وسموا به، ففيه إشعار بالتأبيد[5].

ومن المعروف أن "لفظ السجن يطلق على البيت الذي يوضع فيه المسجون، ويطلق على مصدر (سَجَنَ)، فقوله: ﴿ أَن يُسْجَنَ ﴾ أوضح في تسلط معنى الفعل"[6]، فالمقصود تحقق معنى الفعل؛ لأنه الذي فيه النكاية، فهي أرادت تخويفه —عليه السلام-[7]، ومن الممكن أن يكون السِجْنُ في ذلك الزمن حبسًا داخل القصر؛ لذا فضلته امرأة العزيز لتجعل يوسف-عليه السلام-تحت ناظريها وقريبًا منها فأعادت هذا الخيار في قولها: ﴿ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[8]، ومما دعاني إلى مثل هذا الاعتقاد؛ أن السياق القرآني أشار إلى دخول يوسف السجن وفي صحبته فتيان، قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾[9] "والفتى هو الخادم، أو

---

[1] لغة الحوار: ١٦.

[2] يوسف : ٣٢ .

[3] ينظر : مفاتيح الغيب : ٤٤٥/١٨.

[4] الشعراء : ٢٩.

[5] غرائب القرآن : ٨٠/٤.

[6] التحرير والتنوير : ٢٥٧/١٢.

[7] ينظر: جماليات النظم: ٤٩.

[8] يوسف : ٣٢.

[9] يوسف : ٣٦.

المملوك الذي يكون في يد سيده، ويعمل في خدمته، وسمي الخادم المملوك فتى؛ لأنه يظل في خدمة سيده ومالكه ولو شاخ، وتقدم به السن"[١]، وبالنظر في تفسير هذه الآية تجد أن الفتيان هما ساقي الملك وخبازه[٢]، فهما ممن سكن القصر وعمل به، فالأحداث في السجن لم تنقطع عن القصر، وعودة الساقي للعمل عند الملك ثم طلبه ليوسف –عليه السلام– للعمل عنده، إشارة إلى أنه سجن خاص بمن لهم صلة بالقصر، والله أعلم. ولعله يبدو –هاهنا –أثر السياق الثقافي والعُرفي في تخيُّر ألفاظ بعينها لها دلالاتها في هذا المجتمع أو ذاك.

وأمَّا العذاب فهو أنواع، فقد يكون بالضرب أو الإيلام بالنار، أو بقطع الأعضاء[٣]، وقد وقد يفسر بالضرب بالسياط[٤]وغير ذلك مما قد يؤذي البدن ويترك أثرًا لا يمكن محوه، كما أن مجيئه بلفظ الاسم فيه "إشعار بالمواصلة والثبات وهذا آلم"[٥]، وهو ما لم تقصد إليه امرأة العزيز؛ "لأن المحب لا يريد ألم المحبوب ما أمكن"[٦]، أضف إلى ذلك أن العقاب بالسجن أخف من حيث إنه عقاب معنوي أكثر من كونه حسيًا، بخلاف التعذيب فهو عقاب حسي ومعنوي في الوقت ذاته.

أمَّا في مشهد الشهادة فقد جاءت المقابلة في شهادة الشاهد مشعرة بالعدل في إعطاء الحقوق ، فهي قائمة على عدم الانحياز، فجعل موضع (قدِّ القميص) هو دليل البراءة أو الاتهام لكليهما على السواء، وبما أنَّ المقام مقام تهمة وردٍّ لها، " لزم أن أحد المتخاصمين كاذب؛ لذا دار الاحتمال بينهما وتكرر الوصف معهما"[٧]، فاتهام أحدهما بالكذب يقتضي صدق الآخر

---

[١] القصص القرآني في منطوقه ومفهومه : عبد الكريم الخطيب : ٤٤٢.

[٢] التحرير والتنوير : ٢٦٨/١٢.

[٣] ينظر : المرجع السابق : ٢٥٧/١٢.

[٤] ينظر : غرائب القرآن: النيسابوري: ٨٠/٤.

[٥] جماليات النظم: ٤٩.

[٦] غرائب القرآن : ٨٠/٤.

[٧] جماليات النظم : ٥٣.

في هذا المقام فـ "زيادة (وهو من الكاذبين) بعد (فصدقت) وزيادة (وهو من الصادقين) بعد (فكذبت) تأكيد لزيادة تقرير الحق كما هو شأن الأحكام"[1].

" والتعبير عن حالها صدقًا وكذبًا بالجملة الفعلية (صدقت-كذبت) وعن حاله بالجملة الاسمية (وهو من الكاذبين-وهو من الصادقين) فيه إشعار بأنه أُريد أن أوصافها كانت عارضة في الصدق والكذب ، بينما[2] أوصافه هو متأصلة صدقًا أو كذبًا "[3]، ولهذا الأمر قيمة دلالية لما لما سيؤول إليه حال يوسف—عليه السلام— بعد خروجه من السجن؛ إذ استخلفه الملك على بيت المال بعد تبين صدقه.

ثم إنَّ الجملة الفعلية أظهرت ما في اتهام امرأة العزيز ليوسف—عليه السلام— من تخبط واضطراب، فلم تذكره صراحة بل عرضت به[4]، فكان احتمال الصدق والكذب في قولها مرجحًا مرجحًا على السواء، وفي المقابل أبرز الاسم ثباتًا في قول يوسف—عليه السلام— فقد أسند إليها الفعل صريحًا في دفاعه عن نفسه﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾[5]، مما رجَّح صدقه؛ لذا جعله جعله الشاهد من زمرة الصادقين؛ إذ تأكد كذبها فور رؤية القميص.

ولقد كان التحول من الفعل إلى الاسم في قول سليمان-عليه السلام-: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[6]مناسبًا لسياق الإخبار، فورود الخبر من أي جهة يحتمل الصدق الصدق والكذب على السواء، إلا أن يكون ناقله معروفًا بأحدهما؛ ولأجل ذلك فقد أرجأ سليمان —عليه السلام— عقاب الهدهد إلى أن يتبين الخبر، فعبَّر عن احتمال صدقه بالفعل الماضي (صدقت)؛ ليفيد وقوع الفعل؛ ولأن الأصل في الخبر الصدق إلى أن يقوم دليل على خلافه، ومن هنا جاء التعبير بالصدق أولًا، ولكن لغرابة الخبر شكَّ سليمان —عليه السلام— في صحته، فعبَّر بالجملة الاسمية (كنت من الكاذبين)؛ لأن المقام يقتضي ذلك؛ ففيه تهديد ووعيد

---

[1] التحرير والتنوير : ١٢/ ٢٥٨.

[2] (بينما) تعبير غير فصيح .

[3] جماليات النظم : ٥٣.

[4] ينظر: البحث نفسه : ٧٥

[5] يوسف : ٢٦.

[6] النمل : ٢٧.

للهدهد لوقوعه بين أمرين هما: غيابه عن سليمان –عليه السلام– بغير إذنه، والثاني: كذبه، وهذا يستلزم أشد الوعيد، فعدل "عن الفعل الذي هو: (أم كذبت) وعن مجرد صفته في قوله: (أم كنت كاذبًا) إلى جعله واحدًا من الفئة الموسومة بالكذب، فهو أبلغ في مقصود سياق الآية من التهديد"[1]؛ لأنه يؤذن بأن الكذب عادة له ، فيستحق التوبيخ والتأديب[2].

على أن هناك من رأى أن تقديم سليمان –عليه السلام– الصدق في خطابه:﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ دليل على رجحان صدق الهدهد عنده، كما أنَّ مواجهته بالصدق وعدم مواجهته بالكذب ودمجه في جملة الكذابين[3] دليل آخر على ذلك، فلو أنه كان معروفًا بالكذب لكان متهمًا في كل أخباره[4].

وهكذا تتضح القيم البلاغية للفعل في مقام القصص، ذلك أن البناء القصصي يقوم على حكاية الحدث، فلهذا كثرت الأفعال في القصص موضع الدراسة، وعَمِلَت على إحياء الأحداث وحضورها في ذهن المتلقي، كما أسهمت في تصوير الشخصيات بكل أبعادها الدلالية والنفسية، وظهر ذلك جليًا في قصتي امرأة العزيز وملكة سبأ بوجه خاص، كما بدت بعض التحولات بين أزمنة الأفعال وبين الاسم ؛وذلك لتنبيه القارئ والسامع إلى تحولات في المعاني، يرمز إليها دلالتا كل من الاسم والفعل، فما يعنيه الفعل من زمن وتجدد واستمرار لا تجده في الاسم، وكذلك الأمر في الاسم فما يشير إليه من ثبوت ودوام قد لا يُتحصل بالفعل، ولذا كان لكل منهما مقام.

رابعًا : **المفردة بين الترادف والتضاد:**

يرى الخطابي أن عمود البلاغة قائم على وضع كل نوع من الألفاظ موضعه الأخص الأشكل به الذي لو أبدل مكانه غيره لتبدل المعنى وفسد الكلام؛ و"ذلك أن في الكلام ألفاظًا

---

[1] خالف ابن المنير صاحب الكشاف حيث رجح جانب الكذب في حق الهدهد . الانتصاف فيما تضمنه الكشاف : ٣٦٣/٣.

[2] ينظر: التحرير والتنوير: ١٩ / ٢٥٦.

[3] ينظر: البرهان :٦٣/٤ .

[4] ينظر: الكشاف : ٣٦٣/٣ ، غرائب القرآن: ٥/ ٣٠٢-٣٠٣ .

متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، كالعلم والمعرفة والحمد والشكر... والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء اللغة بخلاف ذلك؛ لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها، وإن كانا قد يشتركان في بعضها"[١]، وإذا كان هذا من سمات الكلام البليغ عامة فإنه من خصائص البلاغة القرآنية المعجزة، فالقرآن "دقيق غاية الدقة في الاستعمال، وهو لا يستعمل لفظتين بمعنى واحد تمامًا وإن كانتا مترادفتين أو مبدلتين"[٢].وهنا سأتناول شيئًا من خصائص تلك المفردة القرآنية ممثَلًا في الترادف والتضاد.

- الترادف :

لقد بدأ الاهتمام بالمترادفات مذ شرع اللغويون بجمع اللغة والنظر في ألفاظ القرآن الكريم وتفسيره، وقد كان الاهتمام فيه بالكلمات التي تدل على معنى واحد دون التدقيق في تحري هذا النوع من الألفاظ؛ مما قاد إلى توسع دائرة المترادف فيما بعد، إذ بالغ بعض اللغويين في جمع تلك الألفاظ فحشد طائفة كبيرة لا تمت إليها بصلة [٣].

ولقد انقسم العلماء في هذا الأمر إلى فريقين: فريق يثبت وآخر ينكر وجوده، فمن أنكره "زعم أن كلَّ ما يظن من المترادفات فهو من المتباينات، إما لأن أحدَهما اسمُ الذات والآخر اسمُ الصفة "[٤]، ومن أثبته ذهب إلى أنه ظاهرة معروفة في اللغة نشأت عن تعدد اللهجات العربية القديمة، وشواهدها في المعاجم وكتب اللغة أكثر من أن تحصى، فللعسل ثمانون اسمًا، وللسيف خمسون اسمًا، فوجود الترادف في نظرهم يعين على بيان المقصد؛ وذلك لاحتياج أهل اللغة إلى الشرح والتفسير، فلو كان لكل لفظة معنى غير الأخرى لما أمكن التعبير عن شيء بغير عبارته[٥].

ويمكن تلخيص القول في هذا الأمر بقول الدكتور أحمد قدور: "ومهما يكن من أمر فلا مناص من الإقرار بوجود الترادف بوصفه ظاهرة لغوية عامة، مع الاحتراز من الزعم بأن الألفاظ

---

[١] بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٢٩.

[٢] بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : ٤٤ .

[٣] ينظر : مدخل إلى فقه اللغة العربية : ٣٣٢.

[٤] المزهر : ٣١٦/١.

[٥] ينظر : المرجع السابق : ٣١٩/١-٣٢١ ، مدخل إلى فقه اللغة العربية : ٣٣٣.

المترادفة متطابقة في المعنى في جميع الحالات. فالتماثل التام في الاستعمال نادر الوقوع؛ إذ لابد من وجود فروق معنوية تجعل كل لفظ يستقل بجانب من الجوانب المختلفة للمدلول الواحد"[1].

وذِكْرُ الخطابي للترادف على أنه من الألفاظ المتقاربة في المعنى، والتي يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان المخاطب[2]، هو ما دعاني إلى دراسته للكشف عن جماليات التعبير بلفظ دون غيره في السياق.

مفردتا (بيت)و(صرح):

لا يخفى على الناظر في حال أهل القصور ما يعيشه أصحابها من رغد وترف عيش، فهم أصحاب القوة والمال والسلطة، ومع كل ذلك فقد تُسلب منهم راحتهم النفسية، فيسعون جاهدين لاستجلابها ولو دفعوا كنوز الدنيا ثمنًا لها ، تلك الراحة التي لا توجد إلا في القرب من الله والإذعان له.

ففي دعاء امرأة فرعون﴿ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ ﴾ صوَّر النظم الكريم علو همَّتها وترفُّعها عن الدنيا من كنوز وأهلها، فآثرت التخلّي عن ملك فرعون وجاهه وقصره، ودعت ربَّها أن يبدلها بيتًا في الجنة، والتعبير بكلمة (بيت) له دلالته في هذا المقام، فـ "أصل البيت: مأوى الإنسان بالليل، لأنه يقال: بات: أقام بالليل، كما يقال: ظلَّ بالنهار، ثم قد يقال للمسكن: بيت من غير اعتبار الليل فيه"[3].

وطلب امرأة فرعون للبيت خاصة صوَّر معنى الراحة والطمأنينة اللتين طمحت إليهما، ولم تجدهما لا في القصور ولا في الكنوز، فلم تعد تَهْتَم لمكان عيشها، فقصور الدنيا في نظرها لم تعد تساوي شيئًا أمام بيت في جوار الرحمن، حيث الأمان والسكينة. وفيه إشارة إلى يقينها بأنَّه لا مآب[4] ولا مآل إلا إلى الله.

---

[1] مدخل إلى فقه اللغة العربية : ٣٣٦.

[2] ينظر : بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٢٩.

[3] المفردات : ١٥١.

[4] قال ابن فارس: "بيت : الباء و الياء و التاء أصل واحد، وهو المأوى والمآب ومَجْمَع الشَّمل" مقاييس اللغة : ٣٢٤/١.

كما أبرز لفظ (البيت) في طلبها معنى الشرف[1] الذي نالته في كنف خالقها، حتى وُسِمَتْ بالكمال، قَال رسول الله – ﷺ–: (كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلا مَرِيمُ بِنْتُ عِمْرانَ وَآسِيةُ امْرَأَةُ فرعونَ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ)[2]، فأصبحت مثالًا يحتذى به للمرأة على مر الأزمان، واستحقت أن تكون مضربًا للمثل للذين آمنوا عامة رجالًا ونساءً، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ ﴾[3].

وإيثار البيان القرآني لمفردة (بيت) يوحي بنوع من التقابل بين بناءين: قصر وبيت، قصر يهيمن عليه طاغية جبَّار آثرت المرأة الفرار منه، وبيت يموج بأنداء الرضا والسكينة، فابتهلت إلى ربها ليعوضها به عن قصر فرعون.

أمَّا البيت في قصة امرأة العزيز فقد جاء في قوله تعالى:﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ ودلَّ على معنيين:

- الأول: تسلط امرأة العزيز على يوسف—عليه السلام— فهي مالكة الدار، وهي الآمرة الناهية فيه، وهذا أدعى لاستجابته لرغباتها، وعلى الرغم من ذلك فقد استعصم وقال: (معاذ الله).
- الثاني: خيانتها لزوجها واستهانتها بشرفها، وقد قيل: "بيت الرَّجُل: داره وقصره وشَرَفه قال العباس ﷺ[4] يمدح سيدنا رسول الله – ﷺ –:

حَتَّى احْتوَى بَيْتُكَ المهَيْمِنُ مِنْ خِنْدِفَ[1] عَلْيَاء[2] تَحْتَهَا النُّطُقُ[3] [4]

---

[1] جاء في تاج العروس: " والبيت : الشَّرف، والجمع البيوت ... والبيت من بُيُوتات العرب : الذي يضم شرف القبيلة ". ٤٥٧/٤.

[2] شرح صحيح البخاري لابن بطال: ٩/ ٤٨٤ ، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج : ١٩٨/١٥.

[3] التحريم : ١١.

[4] العبّاس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشيّ الهاشميّ. عمّ رسول الله ﷺ، أبو الفضل. أمه نتيلة بنت جناب بن كلب، ولد قبل رسول الله صلّى الله عليه وسلم بسنتين ،وحضر بيعة العقبة مع الأنصار قبل أن يسلم، وشهد بدرا مع المشركين مكرها، فأسر فافتدى نفسه، ورجع إلى مكّة، فيقال: إنه أسلم، وكتم قومه ذلك، وصار يكتب إلى= =النّبي ﷺ بالأخبار، ثم هاجر قبل الفتح بقليل، وشهد الفتح، وثبت يوم حنين، أوكلت إليه السقاية والعمارة في الجاهلية، كان أعظم الناس عند رسول الله ﷺ والصّحابة يعترفون للعباس بفضله ويشاورونه، ويأخذون رأيه. توفي سنة ٣٢هـ . ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر: ٥١١/٣-٥١٢.

أراد ببيته: شرفه[٥][٦].

وكما استضافت امرأة العزيز يوسف—عليه السلام— في قصرها المعَبَّر عنه بالبيت، فقد استضاف سليمان –عليه السلام— بلقيس في قصره وعُبِّر عنه بالصرح، فقال لها: ﴿ ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَ﴾، والفرق بينهما واضح جلي؛ ذلك أنَّ مقام المراودة استوجب نوعًا من الخصوصية يَشعر معها الطالب بالأمان والاستقرار؛ فلهذا كان تخيُّر لفظ (البيت) هو الأنسب لذلك المقام، أمَّا لفظ (الصرح) فقد أتى ليصوِّر فخامة القصر وعظمته، فسليمان —عليه السلام– أراد أن يُدهِش ملكة سبأ بما هو أعظم من قصرها وملكها وسلطانها [٧]، فجعل من قصره تحفة معمارية لا يضاهيه أي بناء، فهو بناء ضخم عال مرتفع مُزوَّق[٨] من قوارير له ساحة واسعة، فالبناء مختلف ومادته كذلك، فأُوثِر التعبير عنه بلفظ مختلف أيضًا، وقد أراد سليمان–عليه السلام– بهذا اللفظ لفت انتباه الملكة إلى علو القصر خاصة ؛ ليُظهر لها مدى فخامته وضخامته. ومما يقوي هذا المعنى قول الله تعالى:﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴾[٩]، فهو يطلب من وزيره أن يبني له بناءً عاليًا يصل به إلى السماء، وفي هذا ما يدل على اغتراره بقوته وسلطته وجبروته.

---

[١] الخندفة: مشية كالهرولة، ومنه سميت ، خندف امرأة إلياس بن مضر بن نزار واسمها ليلى بنت عمران بن إلحاف بن قضاعة ، لقبت بذلك و سميت قبيلتها بها . ينظر : النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير : ٨٢/٢ ، لسان العرب ٩٨/٩.

[٢] " علياء : اسم المكان المرتفع كاليفاع " لسان العرب : ٩٠/١٥.

[٣] " النُّطُقُ : جمع نِطَاق ، وهي أعراض من جبال ، بعضها فوق بعض: أي نواح وأوساط منها، شُبِّهَت بالنُّطُق التي يُشَدُّ بها أوساط الناس، ضَرَبَه مثلًا له ؛ في ارتفاعه وتوسطه في عشيرته ، وجعلهم تحته بمنزلة أوساط الجبال. وأراد ببيته شرفه، والمهَيْمِن نَعْتُه: أي حتى احتوى شرفك الشاهد على فضلك أعلى مكان من نسب خندف". النهاية في غريب الحديث والأثر : ٧٥/٥.

[٤] ذكره صاحب اللسان : ١٥/٢، ٩٠/١٥.

[٥] ينظر : النهاية في غريب الحديث والأثر: ١٧٠/١، ٢٧٥/٥.

[٦] تاج العروس : ٤٥٨/٤.

[٧] ينظر : جامع البيان : ٦٣٠٠/٨.

[٨] ينظر : المفردات : ٤٨٢ ، لسان العرب : ٥١١/٢.

[٩] غافر: ٣٦.

مما تقدم يتضح تنوع التعبير القرآني عن المساكن الملكية بما يلائم السياق والمقام، فقد جاء بلفظ (البيت) في موطن طلب الشعور بالطمأنينة والسكينة كما في دعاء امرأة فرعون، وطلب الخصوصية والاستتار كما في قصة المراودة. أمَّا في موطن إبراز القوة وإظهار الملك والسيطرة والجبروت، فقد جاء بلفظ (الصرح)، وفي هذا غاية التناسب والانسجام بين اللفظ وسياقه .

مفردة (عرش)[1]:

من عجيب التعبير القرآني الحديث عن الصرح الذي أدهش ملكة سبأ في مقابل عرشها الذي دُهِشَ الهدهد عند رؤيته حتى ذكره لسليمان –عليه السلام– فقال:﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، فعبَّر عن الكرسي أو سرير الملك بلفظ (العرش) ووصفه بـ (عظيم) لا لسعته بل لعظم قدره وخَطره[2].

و"العرش في الأصل: شيء مسقَّف، وجمعه عروش...وسمي مجلس السلطان عرشًا اعتبارًا بعلوّه، قال:﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[3]،﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾[4]،﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا ﴾[5]،﴿ أَهَٰكَذَا أَعَرْشُكِ﴾[6]، وكنّي به عن العز والسلطان والمملكة "[7].

وفي مختار الصحاح: "العرش: سرير الملك . وعرش البيت: سقفه . وقولهم: ثُلَّ عرشه ، على ما لم يسم فاعله أي: وَهَى أمره وذهب عِزُّه"[8].

فالتعبير بالعرش أضاف إلى معنى السرير والكرسي معنى العزة والسلطة ، فمتى ما زال ذلك العرش سقطت المملكة، ولهذا المعنى طلب سليمان – عليه السلام – إحضار عرش

---

[1] ذكرت هذه المفردة في المترادفات لأنها جاءت في مقابل الصرح سليمان –عليه السلام– فالهدهد حين وصف مُلْك ملكة سبأ لم يتطرق إلى قصرها، وإنما ذكر عرشها ؛ لذا آثرت أن أشير إلى هذه المفردة ؛ لأنها دليل المُلْك ، متى ما سقط سقطت المملكة، ولما لها من أثر بارز في مجريات القصة .

[2] ينظر : جامع البيان : ٨/٦٢٨٠.

[3] يوسف : ١٠٠.

[4] النمل : ٣٨.

[5] النمل : ٤١.

[6] النمل : ٤٢.

[7] المفردات : ٥٥٨.

[8] ٢٠٥.

الملكة، ثم أمر بتغيير العرش فقال: ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ ليكون موضع امتحان لها فقال: ﴿ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾، فإذا ما أيقنت في ذاتها أنه عرشها تبيَّن لها عظيم مُلْك سليمان، وأن ما أوتي من مُلْك إنما هو معجزة من الله عز وجل، فلا يُتَصوَّر في العقل أن يسبقها عرشها إلا أن يكون في الأمر شيء خارق للعادة، ولا يكون ذلك إلا لنبي مرسل، فكانت هذه أول إشارات الهداية التي فطنت لها الملكة.

قال الباحث فايز الخطيب: "إن في قوله :﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾تذكرة وموعظة: أما التذكرة فتتجلى في أن ما يؤتاه الإنسان ولو كان مُلكًا قد يؤتاه غيره في عظمته وفخامته، فلا ضرورة للتكبر والعنجهية. وأما العظمة فتتجلى في أن ما يؤتاه الانسان من نعيم الدنيا لا يساوي شيئًا من متاع الآخرة ... فلا ضرورة للاغترار والبطر وكفر النعم، والتعالي على عباد الله"[1]؛ لذا تعجب الهدهد من عدم سجودها وقومها لله الذي يخرج الخبء ، ويعلم ما يخفون وما يعلنون، وهو رب العرش العظيم، فهو "مالك العرش العظيم الذي كل عرش –وإن عظم– فدونه، لا يشبهه عرش ملكة سبأ ولا غيره"[2].

قال ابن عاشور: " وقوله :﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[3]... تعريض بأنَّ عظمة مُلك بلقيس وعِظَم عرشها ما كان حقيقًا بأن يغرها بالإعراض عن عبادة الله تعالى؛ لأن الله هو رب الملك الأعظم، فتعريف (العرش) ؛للدلالة على معنى الكمال، ووصفه بـ (العظيم)؛ للدلالة على كمال العظم في تجسم النفاسة" [4].

مفردتا (الكيد) و(المكر):

مما يثير الدهشة في الاستعمال القرآني للألفاظ المترادفة استعماله للفظ (المكر) و(الكيد) في قصة المراودة ، فجاء (المكر) ؛ لوصف كلام النسوة وجاء (الكيد)؛ لوصف فعل امرأة العزيز خاصة، وعلى الرغم من ذلك نسب الكيد إلى جنس النسوة، فقال:﴿ إِنَّهُۥ مِن

[1] الإعجاز القرآني البياني في آيات قصة سليمان : فايز الخطيب : ٣١٢.

[2] جامع البيان : ٦٢٨٣/٨.

[3] النمل : ٢٦.

[4] التحرير والتنوير : ١٩ / ٢٥٦.

كَيۡدِهِنَّۖ إِنَّ كَيۡدَهُنَّ عَظِيمٞ ﴾ [1]؛ إشعارًا "بأن ما حصل مصدره كيد النساء ومكرهم[2]، أو أنه بعض ذلك الكيد"[3].

والاختلاف في استعمال هذه الألفاظ إنما هو تابع للمقام الذي جاء فيه، فكل لفظة منهما تختلف عن صاحبتها في دقائق المعنى، يقول صاحب تاج العروس: " فَرَّق بينهما [يقصد المكر والكيد] بعض فقهاء اللغة، فقال: الكيد: المِضَرَّة ، والمكر: إخفاء الكيد وإيصال المضرة، وقيل: الكيد: الأخذ على خفاء، ولا يعتبر فيه إظهار خلاف ما أبطنه، ويعتبر ذلك في المكر"[4].

فلفظ (المكر) يشير إلى معنى الاحتيال والخداع في خفية[5]دون تدبر وتفكر، وفيه إظهار لخلاف الباطن لإرادة اجتلاب الضر، وهذا المعنى يتناسب مع اغتياب النسوة لامرأة العزيز، فحديثهن عنها بالسوء لو لم يصل إليها لفَاجَأَهَا، فهي لم تتوقع أن يصدر منهن مثل هذا القول عنها؛ لذا سمى القرآن مقالهن مكرًا، قال صاحب الكشاف: "وسمي الاغتياب مكراً؛ لأنه في خفية وحال غيبة، كما يخفى الماكر مكره. وقيل: كانت استكتمتهنّ سرّها فأفشينه عليها " [6] .

.

أما (الكيد) ففيه نوع من التدبر والتفكر والنظر[7]والتخطيط والاجتهاد في الاحتيال، جاء في لسان العرب: "الكيد: الخبث والمكر، كاده يكيده كيدًا ومكيدة، وكذلك المكايدة. وكل شيء تعالجه، فأنت تكيده ... والكيد: الاحتيال والاجتهاد"[8].

ومثل هذا المعنى يتناسب مع فعل امرأة العزيز، ففي مراودتها ليوسف خططت لكل شيء، فتحيَّنت الفرصة المناسبة؛ لتنفرد به في بيتها، ثم هيأت المكان، وغلَّقت الأبواب، وطالبته بالفعل المنكر، وعندما صدَّها يوسف وحاول الهرب منها، وانكشف بعد ذلك أمرها، حاولت

---

[1] يوسف : ٢٨.

[2] ذكره الباحث هكذا (مكرهم) ولعله خطأ مطبعي فالأولى أن تكون الكلمة (مكرهن).

[3] جماليات النظم : ٥٥.

[4] تاج العروس : ١٢٢/٩-١٢٣.

[5] ينظر : مقاييس اللغة : ٥/ ٣٤٥ ، لسان العرب : ١٨٣/٥ ، تاج العروس : ١٤٧/١٤.

[6] الكشاف : ٤٦٣/٢.

[7] ينظر : الفروق اللغوية : ٢٥٨ .

[8] لسان العرب: ٣/ ٣٨٣.

تخليص نفسها باتهام يوسف–عليه السلام–، فكل هذه الأمور لم تكن ببديهة من غير فكر ونظر، وإنما كان بتخطيط وتدبير؛ لذا سُمي فعلها (كيدًا).

وتكرار (الكيد)؛ "للعناية بإبراز شأن كيدهنَّ، وليمكن التوصل بذكره لإجراء وصف العظم عليه (عظيم)، وفي الوصف بالعظم الذي هو في الأصل للمحسوسات تجسيد لشأن الكيد الذي هو مِنَ المعنويات؛ ليشعر السامع بضخامة ذلك الكيد؛ لأن تصور الإنسان للحسيات أسرع من المعنويات وأعمق"[1].

- التَّضاد:

اختلف علماء اللغة المحدثون في نظرتهم للأضداد عن القدماء، حيث رأوا أنه يعني وجود لفظين يختلفان نطقًا ويتضادان معنى؛ كالقصير في مقابل الطويل، والجميل في مقابل القبيح، بينما قصد القدماء بها اللفظ المستعمل في معنيين متضادين[2].

وبالنظر إلى هذه الأضداد من المنظور البلاغي تجد أنها تندرج تحت فن (الطباق)، وهو أحد الفنون البديعية القائمة على ما أسماه اللغويون (بالمصاحبة المعجمية)[3]، والتي تربط بين ألفاظه علاقة تباين.

ولقد قصدت من دراستي للتضاد هنا ما عُرف عند البلاغيين بالطباق أو المطابقة. قال السكاكي: "المطابقة...أن تجمع بين متضادين"[4]، وقال القزويني: "الطباق الجمع بين معنيين متقابلين في الجملة، سواء كان التقابل على جهة التضاد أو السلب والإيجاب أو غير ذلك"[5].

وإيثاري لتسمية هذا الفن البديعي بالتضاد دون غيره؛ أن الألفاظ التي ورد فيها هذا الطباق –في القصص الموضوعة للدراسة–لا تخرج عن نوع واحد منه وهو ما يعرف بـ (طباق

---

[1] جماليات النظم : ٥٥.

[2] ينظر : علم الدلالة : ١٩١.

[3] يُقصد بها العلاقة الرابطة ما بين زوج أو أكثر من الألفاظ ، فثمة أزواج من الألفاظ متصاحبة دومًا، بمعنى أن ذكر أحدهما يستدعي الآخر فيظهران دومًا معًا ، وتتعدد هذه العلاقة، فقد تكون علاقة تباين كما في الأضداد ، أو الاندراج تحت صنف معين، أو علاقة الكل بالجزء، أو الدخول في سلسلة ترتيب معين . ينظر: البديع بين اللغة العربية واللسانيات النصية: جميل عبد المجيد: ١٠٧–١٠٨.

[4] مفتاح العلوم : ٤٢٣.

[5] الإيضاح : ١٨٥/٣.

الإيجاب)، فالتقابل بين اللفظين فيها لم يأتي إلا على جهة التضاد، كما أن دراسة هذا الفن ضمن هذا المطلب اقتضى اختيار هذا المسمى دون غيره.

ولقد برز التضاد في قصة المراودة بشكل لافت في شهادة الشاهد؛ ليَظْهَرَ بذلك ميزان العدل في الشهادة[1]، قال تعالى:﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فجعل موضع (قد القميص) هو دليل الصدق أو الكذب.

كما ظهر أيضًا في قول سليمان—عليه السلام— للهدهد:﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾، فذكر(الصدق والكذب) دليل على عدم ترجح أحدهما على الآخر، واحتمالية كليهما في الأخبار الواردة بغض النظر عن قائله[2]؛ لذا لابد على المرء من استثبات الخبر بالبحث والتقصي الذي لا يترك مجالًا للشك والريبة.

أما التضاد في قول بلقيس:﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[3] فقد جاء ليُبْرِزَ عِظَم جبروت الملوك، وشدة بأسهم في حال الحرب، وعدم اكتراثهم بمكانة من أمامهم، فلا يهمهم إلا السيطرة وإخضاع الخصم وإذلاله بالقتل والأسر والإجلاء.

فبلقيس لما أحست بميل قومها للمحاربة في قولهم:﴿ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾[4]، أرادت ثنيهم عن هذا الميل إلى الصلح ، فذكرت لهم عواقب الحرب وسوء مغبتها.

قال ابن عاشور: "فعلمت بقياس شواهد التاريخ وبخبرة طبائع الملوك إذا تصرفوا في مملكة غيرهم أن يقلبوا نظامها إلى ما يساير مصالحهم...فأول ما يفعلونه إقصاء الذين كانوا في الحكم؛ لأن الخطر يتوقع من جانبهم حيث زال سلطانهم بالسلطان الجديد، ثم يبدلون القوانين والنظم التي كانت تسير عليها الدولة ، فأما إذا أخذوها عنوة فلا يخلو الأخذ من تخريب وسبي ومغانم وذلك أشد إفسادًا "[5].

---

[1] ينظر : البحث نفسه : ٧٧

[2] ينظر : البحث نفسه : ٧٨-٧٩

[3] النمل : ٣٤.

[4] النمل : ٣٣.

[5] التحرير والتنوير : ٢٦٥/١٩

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ تأكيد على ذلك الأمر، فهذه عادت الملوك الظلمة مستمرة ثابتة لا تتغير[1].

فعلى هذا يمكن القول: إن الجمع بين المتضادين في الكلام إنما يأتي ليخدم السياق؛ لأن عدم ذكر أحدهما يُخِل بالمعنى المراد، فبلقيس حين أرادت ثني قومها عن الحرب، أثارت في نفوسهم مشاعر العزة التي يعيشونها حاليًا، وقرنتها بمشاعر الذل التي سيعيشونها بعد ذلك في حال الحرب، فأوضَّحت لهم البون الشاسع ما بين الخضوع بالسلم والصلح والخضوع بالحرب، وعللت بذلك ما عزمت عليه من التزلف لسليمان—عليه السلام— بإرسال الهدايا له، فجاءها رده بما يؤيد كلامها حيث قال: ﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُمۡ بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾[2]، فذكر عاقبة الحرب التي سيشُنُها عليهم، بأنه سيخرجهم من سبأ أذلة بعد أن كانوا في عزٍّ وتمكين، دون ذكر لتلك العزة التي كانوا عليها؛ وذلك لأن المقام مقام تخويف وترهيب لهم؛ لذا جاء ذكر الذل مع الصَّغَارِ .

فذكر المترادفات في مقام دون آخر والجمع بين الأضداد في التعبير القرآني أبرز لنا دقائق المعاني ، فلو أبدِل لفظ مكان آخر أو حُذِف أحد الضدين لم يُسْتَوفَ المعنى المراد ، والله أعلم.

---

[1] الكشاف : ٣/٣٦٥

[2] النمل : ٣٧

الفصل الثاني

أثر السياق في البنية التركيبية

- المبحث الأول : السياق وأساليب الطلب

المطلب الأول : الأمر والنهي

المطلب الثاني : النداء

- المبحث الثاني : السياق واستعمال المصطلحات الثنائية

المطلب الأول : التقديم والتأخير

المطلب الثاني : الذكر والحذف

المطلب الثالث : الفصل والوصل

المطلب الرابع : الإيجاز والإطناب

الفصل الثاني

أثر السياق في البنية التركيبية

مما لا شك فيه أن السياق يتبوَّأ منزلة في التحليل التركيبي، فهو لا يقتصر على اللفظة المفردة بل يتجاوزها ليشمل التركيب، وصولًا إلى النص الكلي، فدراسة التركيب من خلال السياق يثري البحث البلاغي، ويزيد من حيويته، حيث يُسْتَخْلَصُ من خلاله معانٍ بلاغية ودلالات إضافية منطوية داخل تراكيب الجمل.

قال عبد القاهر: "أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة، وإن الفضيلة وخلافها، في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، مما لا تعلق له بصريح اللفظ"[1]، فلا تظهر مزية اللفظ إلا من خلال ضمه إلى غيره بوضعه في مكانه الأليق به، ولا يكون ذلك إلا تبعًا للمعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، فلا تجد أحدًا يصف اللفظة بالفصاحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعنى جاراتها[2].

ولأهمية استخلاص تلك المعاني للوصول إلى المقصود جاء هذا الفصل؛ ليدرس البنية التركيبية من خلال مبحثين:

المبحث الأول: السياق وأساليب الطلب.

المبحث الثاني: السياق واستعمال المصطلحات الثنائية .

[1] دلائل الإعجاز: ٤٦.

[2] ينظر : المرجع السابق : ٤٣-٤٦، ٨٧.

المبحث الأول

السياق وأساليب الطلب

لقد "اهتم البلاغيون بدراسة الإنشاء الطلبي، ووجههم في ذلك أنه كثير الاعتبارات، وتتوارد عليه المعاني التي تجعله من الأساليب الغنية ذات العطاء والتأثير"[1].

ولقد تعددت أساليب الإنشاء الطلبي في الحديث عن نساء القصور الملكية ، وأبرزها ثلاثة هي: (الأمر ،والنهي ،والنداء)، والتي خرجت في مجملها عن معانيها التي وضعت لها إلى معانٍ أخرى بلاغية تسهم في بيان المقصود من خلال السياق الذي وردت فيه.

ولإبراز تلك المعاني جاء هذا المبحث مقسمًا إلى مطلبين:

المطلب الأول: الأمر والنهي.

المطلب الثاني: النداء.

[1] دلالات التراكيب : مُحَمَّد أبو موسى : ١٩٧.

المطلب الأول

الأمر والنهي[1]

أسلوب الأمر:

يأتي الأمر إمَّا بمعناه الأصلي، وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والوجوب [2]، وإما أن يخرج إلى معان أخرى يقتضيها السياق من الدعاء والالتماس والندب والإباحة والتهديد على اعتبار القرائن[3].

أسلوب الأمر في قصة المراودة:

لقد برز هذا الأسلوب على لسان العزيز حين تلطف مع يوسف في الخطاب ونصح امرأته بقوله:﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ﴾[4]، فأَمَرُ العزيز ليوسف بالإعراض عن الأمر، وكتمه ،وعدم التحدث به[5] ؛مخافة أن ينتشر الخبر، وتكثر التساؤلات حول القضية. فَيُفتضحُ الأمر، وأما أمرُه لامرأته بالاستغفار والتوبة عما فعلت، ففيه توبيخ لها على ما اقترفت، وفيه نصح وإرشاد[6] لها؛ لترجع إلى الحق والصواب بعد تَبَيُّن خطئها،

---

[1] قال صاحب الطراز: "اعلم أن الأمر والنهى يتفقان في أن كل واحد منهما لابد فيه من اعتبار الاستعلاء، وأنهما جميعا يتعلقان بالغير، فلا يمكن أن يكون الإنسان آمرا لنفسه، أو ناهيا لها، وأنهما جميعًا لابد من اعتبار حال فاعلهما في كونه مريدًا لهما، إلى غير ذلك من الوجوه الاتفاقية، ويختلفان في الصيغة؛ لأن كل واحد منهما مختص بصيغة تخالف الآخر، ويختلفان في أن الأمر دال على الطلب، والنهى دال على المنع، ويختلفان أيضا في أن الأمر لابد فيه من إرادة مأمورة، وأن النهى لابد فيه من كراهية منهية ". العلوي : ١٥٧/٣.

[2] ينظر: مفتاح العلوم: ٣١٩ ، الطراز: ١٥٥/٣.

[3] ينظر: مفتاح العلوم: ٣١٩، وذكر السبكي خمسة وعشرين معنى يخرج إليها الأمر. ينظر: عروس الأفراح: ١/ ٤٦٢-٤٦٨.

[4] يوسف : ٢٩ .

[5] ينظر: الكشاف : ٤٦١/٢ ، المحرر الوجيز : ٢٣٧/٣، البحر المحيط : ٢٦٢/٦.

[6] يأتي الإرشاد على معنيين : حكم شرعي وهو الندب لمصالح الدنيا والآخرة ؛ وذلك إن كان قسرًا على المندوب، وآخر غير شرعي وهو إن كان إشارة أو إخبار بمصلحة دنيوية . ينظر:عروس الأفراح : ٤٦٦/١.

وإردافه أمره بقوله:﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ﴾ جواب لسؤال قد يخطر ببالها[1] ، فهي قد أنكرت المراودة ورمت بها على يوسف عليه السلام، ولم تشعر مع ذلك بالذنب، فلِمَ يأمرها بالاستغفار؟ فجاء قوله هذا تعليلًا لأمره السابق ، وتلميح منه إلى رجاحة كذبها عنده في اتهامها ليوسف –عليه السلام – ، وعلى الرغم من ذلك لم يواجهها بخطئها بل "جعلها من زمرة الذين خَطِئوا تخفيفًا في مؤاخذتها " [2].

وفي هذين الأمرين ما يشير إلى القطع ببراءة يوسف وتجريم المرأة لدى العزيز، وعلى الرغم من ذلك فقد حَكَم على يوسف بالسجن دون الأخذ بالدليل (القميص)، واكتفى بتوبيخ امرأته بالقول دون الفعل، إما جبنًا وإما حكمة.

ومجيء أسلوب الأمر(أعرض) للتعبير عن النهي[3]– أي: (لا تتحدث)– فيه فضل مزية؛ إذ يشعر بتسلط الآمر على المأمور والذي يستلزم معه الخضوع، كما أنه يحمل معنى التهديد في حال عدم الانصياع ثانيًا، "فيكون تصرف يوسف –عليه السلام– بحسب ما فهم من هذا القول، فإن فهم التهمة والتهديد له بهذا القول ، فذلك ما يريده العزيز، وإن فهم الإعراض عن ذكر الحدث ، فهذا كسب له أيضًا "[4].

فمع ظهور دليل البراءة ودفاع يوسف – عليه السلام – عن نفسه إلا أن العزيز ما تزال نفسه غير مطمئنة تجاه ما حدث، مما دعاه لاتخاذ أسلوب الأمر محذرًا ومهددًا، فهذا الأسلوب عند العزيز يمثل موقفًا محوريًا في القصة، فلينه في هذا الموقف كان له أثره فيما حدث ليوسف – عليه السلام – وما ترتب عليه من دخوله السجن مبالغة في التكتم على القضية .

---

[1] أشار عبد القاهر الجرجاني إلى أن من لطيف مواقع (إن) أنها تقع في جواب سائل إذا كانت وحدها، جاء في الدلائل : " ثم إن الأصل الذي ينبغي أن يكون عليه البناء، هو الذي دوّن في الكتب، من أنها للتأكيد، وإذا كان قد ثبت ذلك، فإذا كان الخبر بأمر ليس للمخاطب ظن في خلافه البتة، ولا يكون قد عقد في نفسه أن الذي تزعم أنه كائن غير كائن، وأن الذي تزعم أنه لم يكن كائن فأنت لا تحتاج هناك إلى (إن)، وإنما تحتاج إليها إذا كان له ظن في الخلاف، وعقد قلب على نفي ما ثبت أو إثبات ما ننفي". ٣٢٥.

[2] التحرير والتنوير : ٢٥٩/١٢.

[3] يرد الأمر للنهي . ينظر: الإيضاح:٨٧/٣.

[4] جماليات النظم : ٥٦.

وعطف جملة﴿ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ على جملة ﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا﴾في كلام العزيز، من قبيل "عطف أمر على أمر والمأمور مختلف...وهذا الأسلوب من الخطاب يسمى بالإقبال ، وقد يسمى بالالتفات"[1]. وهذا الأسلوب لا يدخل في الالتفات البلاغي[2]؛ لأن الكلام لم ينقل من صيغة إلى أخرى، فالكلام كله بصيغة الخطاب، ولأن الالتفات البلاغي يشترط أن يكون مرجع الضمائر واحد، فيتحول الكلام من صفة إلى أخرى، وهنا الجملة الأولى: الخطاب فيها لسيدنا يوسف عليه السلام ، والجملة الثانية: الخطاب فيها لامرأة العزيز، وعلى هذا فالعطف هنا من عطف القصة على القصة. وفي هذا العطف أيضًا إشعار من العزيز لامرأته بأنه يتهم يوسف –عليه السلام– ليكون توبيخه لها أخف عليها، "قال المفسرون: وكان العزيز قليل الغيرة وقيل: كان حليمًا عاقلًا. ولعله كان مولعًا بها، أو كانت شبهة المِلْك تخفف مؤاخذة المرأة بمراودة مملوكها"[3].

ومجيء أسلوب الأمر على لسان العزيز ينم عن شخصية رخوة من الداخل وإن كانت متماسكة في الظاهر، فهذا الأسلوب التسلطي جاء لحفظ ماء وجهه أمام الناس، أما في بيته فلا يستطيع فعل شيء، وإلا لما تمادت زوجه في تلك المحاولات البائسة، ويبدو –هاهنا– البعد السياقي الذي يكشف طبيعة المجتمع آنذاك، مجتمع الأكابر الذي انغمس في الترف والميوعة، وتضاءلت فيه المبادئ والأخلاق الفاضلة.

كما جاء هذا الأسلوب على لسان امرأة العزيز حين طالبت يوسف –عليه السلام– بالفعل المنكر، فعبرت عن رغبتها تلك بقولها:﴿ هَيۡتَ لَكَ﴾ أي: هلم وتعال وأقبل[4]، ومطالبتها له وإن كانت على الحقيقة إلا أنها عدلت عن الطلب بفعل الأمر إلى هذا اللفظ الدال على

---

[1] التحرير والتنوير : ١٢/ ٢٥٩.

[2] يرى السكاكي: أن الالتفات هو نقل كل من الحكاية والخطاب والغيبة في الكلام على الآخر. ينظر: مفتاح العلوم : ١٩٩. وذكر الخطيب القزويني مثل هذا المعنى حيث قال: " الالتفات: هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها، أي: بشرط أن يكون التعبير الثاني على خلاف ما يقتضيه الظاهر ويترقبه السامع". الإيضاح:٢/٨٦.

[3] المرجع السابق : ١٢/٢٥٨ .

[4] ينظر: البحث نفسه:٢٨-٣٠.

الرقة واللطف في الطلب، وهنا يظهر أثر السياق المقامي في تخير اللفظ، فالمقام مقام مراودة وإغراء يقتضي التلطف في الخطاب، والبعد عن صيغة الأمر الجازمة، علَّها تظفر ببغيتها.

وتكرر هذا الأسلوب على لسانها بصيغة الأمر حين أرادت الكيد للنسوة فأمرت يوسف بالدخول عليهن فقالت:﴿ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾، أي: ابرز إليهن، والتعبير عن الدخول بالخروج "يقتضي أنه كان في بيت آخر، وكان لا يدخل عليها إلا بإذنها، وعدي فعل الخروج بحرف (على)؛ لأنه ضُمِّن معنى (ادخل)؛ لأن المقصود دخوله عليهن لا مجرد خروجه من البيت الذي هو فيه"[1].

وطلبها الخروج بفعل الأمر دليل على شدة تسلطها عليه، حتى إنها لم تدع خيارًا له سوى الانصياع لرغبتها، والدخول على أولئك النسوة على ما فيه من خطرٍ وفتنةٍ، ولو كان له من الأمر شيء لم يوافقها على ذلك، ولقد رأى ابن حيان: أن "خروجه يدل على طواعيتها فيما لا يعصي الله فيه "[2]؛ لأن دخول المملوك على سيدته مما لا حرج فيه عرفًا في ذاك الزمن، بدلالة قول العزيز:﴿ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾[3].فاتخاذ الصبي ولدًا مستمرٌ باستمرار حياته ولا يختص بفترة زمنية.

وأمرها ليوسف بالدخول هنا من باب المكر بأولئك النسوة ؛لإيقاعهن فيما تحدثن به عنها، ولتسويغ فعلتها، قال الألوسي: "والظاهر أنها لم تأمره بالخروج إلّا لمجرد أن يرينه فيحصل مرامها "[4]، لذا قالت بعد أن رأت ردة فعلهن عند رؤية يوسف:﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ ولا يبعد أن تقصد الجمع بين المكر به وبهنّ "[5].

كما جاء هذا الأسلوب أيضًا في قول يوسف-عليه السلام- لرسول الملك:﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾[6]، فطلب من الرسول أمرين:(ارجع-فاسأل)،ف

---

[1] التحرير والتنوير : ٢٦٢/١٢.

[2] البحر المحيط : ٢٦٨/٦.

[3] يوسف : ٢١.

[4] روح المعاني : ٤١٩/٦.

[5] الكشاف : ٤٦٣/٢.

[6] يوسف : ٥٠.

"جعل طريق تقرير براءته مفتتحة بالسؤال عن الخبر لإعادة ذكره من أوله، فمعنى﴿ فَسْـَٔلْهُ ﴾ بلِّغ إليه سؤالًا من قِبَلي ، وهذه حكمة عظيمة تُحَقُّ بأن يؤتسى بها. وهي تطلب المسجون باطلًا أن يبقى في السجن حتى تتبين براءته من السبب الذي سجن لأجله، وهي راجعة إلى التحلي بالصبر حتى يظهر النصر"[1]، وهنا يظهر مقصد من مقاصد القصص القرآني، وهو التوجيه التربوي للفرد من خلال الأحداث، إذ على المرء عدم الاستسلام للظلم، وانتهاز الفرصة المناسبة للكشف عن الحقيقة بالمحاورة السلمية ودون الحاجة إلى الخصام والجدال ورفع الأصوات، فسؤال يوسف–عليه السلام– كان كفيلًا بأن يلفت نظر الملك للتقصي عن ذنبه وتبيُّن أمره ، وهل سجن بحق أو بظلم[2].

فالأمر بالسؤال هنا دعوة للتفتيش والبحث والاستقصاء عن حدث قديم قد يكون اندثر مع مرور الزمن فهو "مستعمل في التنبيه دون طلب الفهم؛ لأن السائل عالم بالأمر المسؤول عنه، وإنما يريد السائل حث المسؤول عن علم الخبر"[3]؛ لأن السؤال مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث عما سئل عنه[4]، ولو كان ذلك بدافع الفضول فما بالك بمن يعلم حقيقة قد أخفيت ؟!

وتبدو هنا ملامح من شخصية يوسف–عليه السلام– الحكيم الحصيف الواثق بربه، الذي لم يزده مكثه في السجن إلا ثباتًا على المبدأ، فلم يتعجل الخروج، بل سعى إلى إظهار براءته، وهو بذلك يقدم درسًا عمليًّا في الحرص على أن يكون المسلم نقيًّا طاهر الذيل، لا تعلق به شائبة ما، ولو كانت مجرد شبهة، حتى تكون صورته مشرقة أمام الآخرين، فلا يُنال من الدين بسببه.

---

[1] التحرير والتنوير : ١٢ /٢٨٨.

[2] ينظر: المحرر الوجيز : ٢٥٢/٣، البحر المحيط :٢٨٧/٦.

[3] التحرير والتنوير : ٢٨٩/١٢.

[4] الكشاف : ٤٧٨/٢.

أسلوب الأمر في قصة ملكة سبأ :

لقد برز هذا الأسلوب في قصة بلقيس في ثلاثة مواطن: في محاورة بلقيس لقومها بعد وصول كتاب سليمان إليها، وفي موقف سليمان–عليه السلام– من هدايا الملكة، وعند مقدمها إليها، وفي خطابه لها.

أما الموطن الأول فقد ظهر في طلب ملكة سبأ المشورة من قومها، حين قالت:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى ﴾، "الفُتْيَا والفتوى: الجواب عما يشكل من الأحكام"[1]، ومعنى ﴿ أَفْتُونِى ﴾ هنا: أي أجيبوني في أمري بما عندكم من الرأي والمشورة[2] ، فهي تستشير قومها بلفظ (الفتوى)؛ تهويلًا للأمر، ورفعًا لمكانة قومها بإشعارهم بأنهم قادرون على حل المشكلات الملمة[3]؛ لذا بدأت طلبها بالنداء أولًا، للتنبيه على تلك الأهمية.

فعلى هذا يمكن القول إن أمر بلقيس لهم لم يكن على سبيل الاستعلاء أو القسر، بل كان لاستعطافهم واستمالتهم وإشراكهم في الأمر رفعًا لشأنهم[4]؛ لأن ذلك "دأبها وعادتها معهم، فقد كانت امرأة عاقلة حكيمة مستشيرة لا تخاطر بالاستبداد بمصالح قومها، ولا تعرّض مُلْكَها لمهاوي أخطاء المستبدين" [5]؛ لذا أتبعت قولها السابق، بقولها:﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾، "أي: بمحضركم وبموجب آرائكم ...لئلا يخالفوها في الرأي والتدبير"[6].

ثم جاءها جواب قومها بمنطق الرجال أصحاب القوة الجسدية فقالوا:﴿ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ، "وهذا الجواب تصريح بأنهم مستعدون للحرب للدفاع عن ملكهم، وتعريض

---

[1] المفردات : ٦٢٥ .

[2] ينظر: الكشاف:٣٦٤/٣، روح المعاني:١٩٢/١٠، وقد ذكر السبكي من المعاني التي يخرج إليها أسلوب الأمر (المشورة)، ومثّل لذلك بقول الله تعالى :﴿ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾الصافات : ١٠٢. ينظر: عروس الأفراح :٤٦٨/١.

[3] ينظر: تفسير أبي السعود : ٤/ ٢٥٩.

[4] ينظر : الكشاف: ٣٦٤/٣.

[5] التحرير والتنوير: ٢٦٣/١٩.

[6] تفسير أبي السعود : ٢٥٩/٤.

بأنهم يميلون إلى الدفع بالقوة ...ومع إظهار هذا الرأي فوَّضوا الأمر إلى الملكة؛ لثقتهم بأصالة رأيها ، لتنظر ما تأمرهم فيمتثلونه"[1]، فأكملوا مقولتهم بـ ﴿ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾.

ولما أحست الملكة من قومها الميل إلى الحرب والعدول عن سنن الصواب شرعت في تزييف مقالتهم[2]، فاستدلت بأحداث واقعية، وشواهد تاريخية فقالت:﴿ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾، فعرَّضت بما سيحدث لهم إن غزاهم سليمان –عليه السلام– عنوة، فخوَّفتهم من التسرع في المواجهة واستفزاز الخصم، وساقت قولها عامًا؛ لئلا يجبّنوها؛ ولئلا تروعهم، فجعلت قولها حكْمًا يمكن القياس عليه، دون التعرض للهزيمة؛ حفاظًا على روح القتال عندهم[3]. فبيَّنت بهذا سبب عدم أخذها بمشورتهم وتفضيلها لجانب السلم بإرسال الهدايا لسليمان –عليه السلام–.

ويبدو من كلام الملكة الاستئناس بالسياق التاريخي لإقناع القوم، والتذييل في قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾يشير إلى سياق المقصد الذي يدعو إلى الاعتبار بقصص الأولين.

وجوابهم بأسلوب الأمر﴿ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾ فيه تفويضٌ[4]منهم لها؛ فمهما كان رأيها فهم سيمتثلون له، وإشارة منهم إلى تمام الطواعية والانصياع.

فأسلوب الأمر على لسان ملكة سبأ كشف عن شخصية قوية، ومتزنة، وغير متسلطة، ومتسامحة، تتسم بالحكمة والعقلانية في اتخاذ القرار، قادرة على امتلاك زمام الأمور.

أمَّا الموطن الثاني فقد برز في موقف سليمان—عليه السلام– من الهدايا، حيث جاءت ردة فعله تحمل الكثير من معاني الوعيد والتهديد التي ابتدأها بالأمر وأكدها بالقَسَم فقال: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُمۡ بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾[5]، فسليمان—عليه

---

[1] التحرير والتنوير : ١٩/٢٦٤-٢٦٥.

[2] ينظر : تفسير أبي السعود : ٤/٢٥٩.

[3] ينظر : تحليل الخطاب : محمود عكاشة: ٣٢٦.

[4] يرى السبكي أن أسلوب الأمر يمكن أن يخرج إلى معنى التفويض ، كقوله تعالى:﴿ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٖ﴾ طه: ٧٢. ينظر: عروس الأفراح : ١/٤٦٧.

[5] النمل: ٣٧.

السلام– لم يقصد من الفعل﴿ ٱرۡجِعۡ ﴾ مجرد عودة الرسول لملكة سبأ، بل حمَّله معاني التهديد والوعيد المضمَّنة في الفعل المؤكد والقَسَم .

كما برز هذا الأسلوب على سبيل الالتماس[1] حين طلب–عليه السلام–من بلقيس دخول الصرح ؛ ليدهشها بملك لم تر له مثيلًا من قبل ، فقال لها:﴿ ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَ﴾ فإذا كان الآمر ملكًا فالمأمورة به ملكة، ولا يتصور مع ذلك إلا الالتماس، حيث راعى فيه سليمان عليه السلام– مكانة الملكة الاجتماعية؛ تقديرًا لها وحفزًا لها للدخول في دين الله، فكان أن استاجبت له قائلة :﴿ وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

والموطن الثالث ظهر في كتابه –عليه السلام–﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾، فالأمر هنا يحمل معنى الترغيب والتحضيض.

أسلوب الأمر في قصة امرأة فرعون:

لم يظهر هذا الأسلوب على لسان امرأة فرعون إلا مرتبطًا بالنداء في دعائها[2]:﴿ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3]، فالتجأت إلى الحي القيوم الذي يرى مكانها، ويسمع كلامها فنادت ثم طلبت بفعل الطلب (ابن–نجّني) على سبيل التضرع والخضوع والتوسل لاعتقادها الجازم ويقينها التام بحصول الإجابة .والدعاء والتضرع من أكثر الأغراض البلاغية لصيغ الأمر في القرآن الكريم[4]؛ لأن صيغة الأمر توحي بالقرب من الله، وشدة الإقبال عليه.

[1] الالتماس: استعمال الأمر على سبيل التلطف لمن يساويك في الرتبة. ينظر: مفتاح العلوم: ٣١٩، الإيضاح: ٨٦/٣ ، عروس الأفراح : ٤٦٦/١.

[2] الأمر إن استعمل على سبيل التضرع يكون من قبيل الدعاء . ينظر: مفتاح العلوم : ٣١٩ ، عروس الأفراح: ٤٦٦/١.

[3] التحريم : ١١.

[4] كقوله تعالى:﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ المؤمنون:١١٨، وقوله:﴿ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴾طه:٢٥.

أسلوب النهي :

النهي هو طلب الكف على جهة الاستعلاء[1]، وقد يفيد معاني أخر-غير طلب الكف أو الترك- تفهم من السياق، منها الدعاء والالتماس والإباحة والتهديد وغيرها[2].

وبالنظر في التعبير القرآني عن نساء القصور الملكية تجد أن هذا الأسلوب لم يظهر فيها إلا في موضعين:

الأول: في رسالة سليمان—عليه السلام—لملكة سبأ، في قوله تعالى:﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾،والمعنى: "لا تمتنعوا من الإجابة لي، والإذعان لأمري، كما يفعل الملوك، بل اتركوا علوهم، لكوني داعياً إلى الله... فيجب الخضوع له؛ لكونه رب كل شيء﴿ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ أي: منقادين خاضعين بما رأيتم من معجزتي في أمر الكتاب"[3].

ففي النهي "تحذير لملكة سبأ من أن تحاول الترفع على الخضوع إلى سليمان والطاعة له كما كان شأن الملوك المجاورين له"[4]، وتهديد لها[5].كما ظهر التحذير والتهديد من طريقة وصول الكتاب أولًا، وكون حامله مجهولًا ثانيًا، مما أثار مشاعر القلق والخوف لدى ملكة سبأ مما سيحدث بعد ذلك؛ لذا طلبت المشورة من قومها.

أمَّا الأمر بقوله:﴿ وَأْتُونِى ﴾ ففيه تبليغ ودعوة لعبادة الله وحده، ونبذ الشرك والاعتراف بالوحدانية لله تعالى.

والجمع بين النهي والأمر في مقام الدعوة هنا جاء ليُلخِّص قواعد تلك الدعوة القائمة على التحذير من مغبة عدم الانصياع والخضوع، والاعتراف بالألوهية والوحدانية لخالق هذا الكون سبحانه وتعالى.

---

[1] ينظر: مفتاح العلوم : ٣٢٠ ، الإيضاح : ٣ / ٨٨ ، الطراز : ٣ / ١٥٦ ، عروس الأفراح : ٤٧٠/١ .

[2] ينظر: مفتاح العلوم : ٣٢٠ ، الإيضاح : ٨٨/٣ ، عروس الأفراح : ١/ ٤٧٠.

[3] نظم الدرر : ١٥٨/١٤.

[4] التحرير والتنوير : ٢٦٠/١٩.

[5] قال ابن عاشور : " و﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ ﴾ نهي مستعمل في التهديد ؛ولذلك أتبعته ملكة سبأ بقولها:﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى ﴾". التحرير والتنوير : ١٩/ ٢٦٢.

- الثاني: في قول آسيا:﴿ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾

النهي (لا تقتلوه) يفيد معنى الاستعطاف بدلالة قولها السابق:﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ ﴾ وتعليلها اللاحق﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾.

وبالنظر إلى الآيات الموضوعة للدراسة يتضح أن صدور أساليب الطلب جاءت من جهة العلو إلى الأدنى أو المساوي في الرتبة –وعلو الرتبة قد يكون من جهة الملك أو السيادة ، وقد يكون من جهة النبوة والرسالة– بما يتناسب مع الجهة العليا (الآمرة أو الناهية) في كل موقف؛ وذلك لأغراض تُفهم من السياق كالتهديد والوعيد، وإظهار السلطة، والتنبيه على الأمر، وتهويل الحدث طلبًا للمشورة، والالتماس، وكل هذه المعاني والأغراض التي أبرزها أسلوب الطلب قد عُبِر عنها بالصيغة الأصلية له، ما عدا لفظ (هيت)[1] في قصة المراودة فقد جاء بصيغة (اسم فعل الأمر) على الرغم من أن الطلب فيه على الحقيقة؛ وذلك لإبراز معنى التلطف فيه.

وأما صدور الطلب من الجهة الأدنى إلى الأعلى فلم يرد إلا في سياق الدعاء ؛ تيقنًا بالإجابة ، وفي سياق تفويض الملأ لملكتهم؛ إظهارًا لكمال الخضوع والطاعة .

[1] (هيت) اسم فعل الأمر، يدل على معنى الإقبال، أي : هلمَّ وتعال . ينظر : الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل : بهجت عبد الواحد: ٢٨٧/٥.

المطلب الثاني

النداء

عرف البلاغيون النداء بأنه:" طلب الإقبال بحرف نائب مناب (أدعو) لفظًا أو تقديرًا، أي: طلب المتكلم إقبال المخاطب حسًّا أو معنى"[1]، والأصل في النداء هو الإقبال الحسيُّ من المنادى على المنادي، لكن غلب مجيئه في النصوص البليغة لغايات معنوية تُدرَك من السياق الذي ورد فيه. وكثر مجيئه في القرآن الكريم مقترنًا بالأوامر والنواهي، حتى يحفز النفس على الإقبال والإصغاء لما سيُلقى إليها، قال أبو موسى: "النداء يوقظ النفس ويلفت الذهن؛ لأنه طلب ودعاء، فإذا ما جاء الأمر صادف نفسًا مهيأة يقظة، فيقع منها موقع الإصابة، حيث تتلقاه بحس واع وذهن متنبه، وهذا دليل على عناية الآمر بأمره ورغبته في إعداد النفوس لتلقيه"[2].

ولقد ورد أسلوب النداء في الآيات الموضوعة للدراسة محذوف الأداة في ثلاثة مواطن :

أولًا: في نداء العزيز ليوسف –عليه السلام–باسمه، قال تعالى:﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا﴾، وفي ندائه–عليه السلام– وحذف حرف النداء دليل على قربه من قلبه وتلطيف لمحله[3]، فهو أراد التلطف معه في الخطاب حتى يكون ذلك أدعى للاستجابة، كما أشار هذا الحذف إلى ما صار إليه حال العزيز، إذ لم تسعفه الكلمات ليتم النداء، وقد رأى براءة يوسف –عليه السلام– وترجح أن امرأته هي التي أرادت السوء، فحذف حرف النداء وأجمل القصة كلها في اسم الإشارة (هذا)؛ لأن المقام مقام ضيق وحزن، فاقتضى الإيجاز[4].

ثانيًا : على لسان بلقيس حين قالت :﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ إذ جاء النداء هنا من بلقيس لرب العزة والجلال؛ إظهارًا منها لكمال الخضوع

[1] الإيضاح : ٣/٩١.

[2] دلالات التراكيب: ٢٥٦.

[3] ينظر: مدارك التنزيل: ٢/١٠٦، البحر المحيط : ٦/٢٦٢، نظم الدرر: ١٠/٧٠ .

[4] ينظر : علم المعاني : بسيوني فيود : ١٠٣.

فاعترفت ثم أسلمت[1]، فأعلنت التوبة ورجعت إلى الحق، وقد حذفت ياء النداء؛ للقرب النفسي والتوسل[2]، ولإظهار كمال الانكسار منها .

ثالثًا : على لسان امرأة فرعون حين دعت ربها فقالت:﴿ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ ﴾. النداء هنا متضمن معنى الدعاء بدلالة الطلب بعده (ابن لي-نجني)[3]، فنادت ثم طلبت فكان سبحانه ملاذها وملجأها [4].

وكون المنادى هو رب العزة والجلال يجعل لهذا النداء خصوصية؛ إذ "لا يكاد يُستخدم حرف النداء مع (الرب)، بل ينادى مجردًا من حرف النداء، ولعل في ذلك تعبيرًا عن شعور الداعي بقربه من ربه"[5]، فالسرُّ في حذف أداة النداء (يا) مع (رب) هو المبالغة في تصوير قرب المنادى[6]، يؤيد هذا المعنى قوله تعالى:﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [7].

كما ورد النداء مقترنًا بالأداة على لسان ملكة سبأ في موضعين هما : قوله:﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴾[8]، وقوله:﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي ﴾[9]، فعندما أرادت جمع جمع قومها لإطلاعهم بأمر كتاب سليمان –عليه السلام– لجأت لأسلوب النداء واستخدمت (يا) التي لنداء البعيد؛ لأن الأمر عجيب يقتضي التأهُّب والاحتشاد له، فالكتاب ومحتواه وكيفية وصوله فيه غرابة وخروج عن المألوف، فحين قالت:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ ﴾نبهت قومها وأيقظت أذهانهم ليلتفتوا إلى قولها : (إني ألقي إلي كتاب كريم) ، وبعد أن بيَّنت مضمونه أعادت النداء

---

[1] ينظر : البحث نفسه : ٣٥-٣٦.

[2] ينظر : تحليل الخطاب : ٣٢٠.

[3] ينظر: البحث نفسه : ٩٩.

[4] ينظر: البحث نفسه : ٣٤.

[5] من بلاغة النظم القرآني: أحمد بدوي: ١٣٠، ينظر : المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم: عبد الفتاح لاشين: ١٣٨.

[6] ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : عبد العظيم المطعني: ٧/٢.

[7] البقرة : ١٨٦.

[8] النمل : ٢٩.

[9] النمل : ٣٢.

عناية منها بالأمر الذي يليه، فقالت:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي ﴾، فما يهمها في هذا المقام هو استشارتهم في هذا الأمر الجلل[١]، كما أن في استدعائها للمنادين تعظيمًا لشأنهم [٢].

ذكر الزمخشري أن النداء بـ (يا أيها) أبلغ؛ لِما فيه من التدرج من الإبهام في (أي) إلى التوضيح في الوصف الذي يأتي عقبها، ففيه "ضربٌ من التأكيد والتشديد "[٣]، ومجيء (ها) التنبيه فيه فائدتان: "معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه، ووقوعها عوضًا عما يستحقه، أي: من الإضافة"[٤]. ولهذا يأتي في مقامات تقتضي التوكيد والمبالغة .

كما بيَّن فائدة أسلوب النداء وكثرته في كتاب الله مع (يا أيها) "لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة؛ لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه، وعِظاتِه وزواجره ووعده ووعيده...أمور عِظام، وخطوبٌ جِسام، ومعانٍ عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون. فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ "[٥].

ولقد جاء نداؤها هنا للاستدعاء والدعوة للمشورة لطلب النصح والرأي من قومها، وهذا دليل على حكمتها ورجاحة عقلها في الاسترشاد بالرأي الجماعي في الخطب الجلل المحدق، ومثل هذا الأمر يرصد للقارئ نموذجًا سياسيًا نسائيًا متقدمًا في حقبة تاريخية [٦]غابرة.

والمتأمل لقصص نساء القصور الملكية يلحظ قِلَّة هذا الأسلوب فيها؛ وذلك لأن سياق القصص لم يستوجب هذا النوع من الأساليب إلا في مواضع محدودة اقتضاها مقام التهديد في قصة المراودة، ومقام المشورة في قصة ملكة سبأ، ومقام الدعاء في قصتي ملكة سبأ وامرأة فرعون.

---

[١] ينظر: البحث نفسه : ٩٧.

[٢] ينظر : تحليل الخطاب : ٣٢٢.

[٣] الكشاف : ٨٩/١.

[٤] المرجع السابق : ٩٠/١.

[٥] المرجع السابق : الصفحة نفسها.

[٦] ينظر : تحليل الخطاب : ٣١٩.

المبحث الثاني

السياق واستعمال المصطلحات الثنائية

إن المتأمل في النَّظْم القرآني يلحظ تفرُّدًا في أساليبه التعبيرية، إذ يتميز بنمط خاص في التركيب وإن كان يجري على أساليب العربية وطرائقها، ولا غرو في ذلك، فالقرآن معجزة الله الخالدة لنبيه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ومن وجوه إعجازه بلاغته التي ألجمت أفواه البشر، فعجزوا عن معارضته والإتيان بمثله .

ويبدو ذلك التميُّز في البناء التركيبي في حديث القرآن عن نساء القصور الملكية، وما ينطوي فيه من لطائف وقيم بلاغية جاء هذا المبحث لإبراز جانب منها، وذلك من خلال المطالب الآتية :

المطلب الأول : التقديم والتأخير .

المطلب الثاني : الذكر والحذف .

المطلب الثالث : الفصل والوصل.

المطلب الرابع : الإيجاز والإطناب.

ومما دعاني إلى إدراج هذه المطالب تحت اسم (المصطلحات الثنائية) ما قرأته في كتاب مُحَمَّد الصامل، الذي عدَّ هذه الموضوعات البلاغية وغيرها من المصطلحات الثنائية المقترنه بمقابلها، فكل واحد منهما مصطلح لوحده ، ولكنهما يمثلان لونًا من المصطلحات المقترنة التي تُدرس فيها الظواهر الأسلوبية المتقابلة ، فلا يدرس كل واحد على حدة، وهذا توجه يُلحظ في الدراسات اللغوية بعامة، والبلاغية بخاصة، ولعل هذا من الإيجابيات في الدراسات البلاغية ؛ لكونها تجمع المتقابلات في حيز واحد، فتتضح الصورة، ويتجلى المفهوم، ويسهل استيعاب الموضوع[1].

[1] ينظر : قضية الفصل والوصل بين المفردات عند البلاغيين : مُحَمَّد الصامل : ١٤.

المطلب الأول

التقديم والتأخير

لكل كلمة في الجملة مكانها الخاص بها بحسب وضعها اللغوي، فالمبتدأ مقدم على الخبر ، والفعل مقدم على فاعله، ولكن قد يطرأ للمتكلم ما يجعله يعدل عن هذا الترتيب، فيُقَدم ما هو موضع العناية والاهتمام ؛ ليشير إلى معان أخرى ، فالتقديم والتأخير "باب كثير الفوائد، جَمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يَفْتَرُّ لك عن بديعة، ويُفْضِي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شِعْرًا يروقك مَسْمَعُه، ويَلْطُف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطُف عندك، أن قدم فيه شيء، وحُوِّلَ اللفظ عن مكان إلى مكان"[١].

وحصر الغرض من التقديم في العناية والاهتمام [٢]، مما يقلل من شأنه، ويُهوِّنه في النفوس، ومما يصرف الناس عن معرفة البلاغة ومقاديرها[٣]؛ لذا قال الشيخ عبد القاهر: "واعلم أن من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين، فيجعل مفيدًا في بعض الكلام، وغير مفيد في بعض وأن يعلل تارة بالعناية، وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب، حتى تطرد لهذا قوافيه ولذاك سجعه؛ ذاك لأن من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى"[٤]، فهو يرى أن التقديم لا يكون من أجل حلية لفظية كإقامة الوزن أو السجع ، أو التوسعة على الشاعر إذا أعوزه التعبير، بل يأتي من أجل المعنى وتأدية مراد المتكلم، فكل تقديم لابد له من غرض معنوي[٥].

التقديم والتأخير في قصة المراودة :

يهدف التقديم إلى تحقيق معان بلاغية تضفي قيمة جمالية على النص بما تحققه من تفاعل نفسي وشعوري، وتقديم الفاعل في المعنى، أعني تقديم المسند إليه على خبره الفعلي

[١] دلائل الإعجاز: ١٠٦.
[٢] ينظر: المرجع السابق: ١٠٨.
[٣] ينظر: نظرية النظم: ١٣١.
[٤] دلائل الإعجاز :١١٠.
[٥] ينظر: نظرية النظم: ١٣١.

يحقق أغراضًا بلاغية كالاختصاص، والتوكيد، والإيجاز، ولهذا تكرر مجيئه في قصة المراودة لملاءمة سياق الأحداث، خاصة أن القصة فيها تهمة ظالمة، وبريء دخل السجن بغير ذنبٍ جناه ، فكان لهذا الأسلوب أثر في تجلية الحقائق، لنلحظ قول يوسف:﴿ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾[1] وما يفيده التقديم فيه من الاختصاص، وما يضفيه من شعور نفسي بالخوف على النفس والعرض، والرغبة الشديدة في إظهار الحقيقة ودفع التهمة فجاء قوله:﴿ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي ﴾؛ "لتنزيه نفسه عما أسند إليه من الخيانة وعدم معرفة حق السيد، ودفع ما عرضته له"[2]، فجاء التقديم مناسبًا لرد الشبهة عن نفسه، وتأكيدًا على أن امرأة العزيز هي الفاعلة لا هو، فإذا كان من الجائز أن يتقدم بعض أجزاء الجملة على بعض، فقد أشار التقديم في الجمل القرآنية إلى مغزى، حيث نقلت المشاهد النفسية والتي يتقدم عندها ما تجد النفس تقديمه أفضل من التأخير، فيكون هو المقصود والمعني[3].

ولأن محور الاتهام يدور حول يوسف –عليه السلام– كان لابد له من دفع ذلك الاتهام بما يشير إلى الفاعل حتى تثبت براءته، قال الطبري في تفسيره: "قال يوسف لما قذفته امرأة العزيز بما قذفته من إرادته الفاحشة منها، مكذِّبًا لها فيما قذفته به ودفعًا لما نسب إليه: ما أنا راودتها عن نفسها، بل هي راودتني عن نفسي" [4]، ولم يسبق إلى القول أولًا؛ لأنه أراد الستر عليها [5]، وإشارته إليها في كلامه بضمير الغيبة (هي) رغم أنها ماثلة أمامه "مراعاة لحسن الأدب الأدب مع الإيماء إلى الإعراض عنها "[6] وهكذا، "وفي كلمات قليلة وادعة وداعة النور، قوية قوة قوة الحق، عرض يوسف صفحة دفاعه، ومنطق براءته ! (هي راودتني عن نفسي) !.. هذا أقل ما يمكن أن يدفع به يوسف هذه الفرية التي تفتريها امرأة العزيز عليه .. إنه لم يكشف للعزيز

[1] يوسف : ٢٦.

[2] تفسير أبي السعود : ١٣٢/٣.

[3] ينظر : من بلاغة القرآن : ٩٠ .

[4] جامع البيان: ٤٥١٣/٦.

[5] ينظر : البحر المحيط : ٢٦٠/٦.

[6] تفسير أبي السعود : ١٣٢/٣.

عن محاولاتها العديدة معه ، ولم يحدثه عن إغرائها له ، وعرض مفاتنها عليه"[1]، إنه خلق الأنبياء وحسب.

كما ورد التقديم في اعتراف امرأة العزيز بمراودتها ليوسف حين قالت:﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ [2] فقدمت المسند إليه (أنا) لإفادة القصر ولتنفي أدنى شك قد يساور المتلقي في حدوث المراودة منه ، وذلك بإقرار الانفراد بالمراودة والاستبداد بها [3]، ولقد جاء اعترافها هذا في سياق سؤال الملك للنسوة:﴿ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ ، حيث إنها المعنيَّة أوَّلًا بالسؤال، ولعلَّ الملك لم يسألها مباشرة تلطُّفًا بها وتقديرًا لمكانتها الاجتماعية، وردُّ النسوة:﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾ قد يجعل السامع يشك في أنهن راودن يوسف مع امرأة العزيز، فأرادت المرأة بالتقديم إبراز الحقيقة كاملة بانفرادها بالفعل. ولا شك أن مجيء التقديم بهذه الصورة يعطي هذه الدلالة، وذلك ـ كما يقول عبد القاهر ـ عندما " يكون الفعل فعلًا قد أردت أن تنصَّ فيه على واحد فتجعله له، وتزعُمُ أنه فاعله دون واحد آخر، أو دون كل أحد"[4]، وهذا ما أرادته المرأة، "وزادت فأكدت صدقه بـ (إن) واللام"[5]، ففي قولها:﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إشارة إلى قوله:﴿ هِيَ رَٰوَدتۡنِي ﴾ [6].

هذا وتقديم المسند إليه في هذا التركيب﴿ هِيَ رَٰوَدتۡنِي – أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ يفيد التوكيد[7] أيضًا؛ أيضًا؛ لما فيه من تكرار الإسناد فيكون الضمير مبتدأ من جهة وفاعلًا معنويًا من جهة أخرى،

---

[1] القصص القرآني : ٤٣١.

[2] يوسف :٥١.

[3] ينظر : لغة الحوار: ١٧.

[4] دلائل الإعجاز : ١٢٨.

[5] التحرير والتنوير :١٢/٢٩٢.

[6] ينظر : مدارك التنزيل: ٢/١١٧ ، تفسير القرآن العظيم : ٤/٣٣٨.

[7] ذكر بسيوني فيود: "أن إفادة الاختصاص تقتضي إفادة التوكيد ، فكل ما يفيد الاختصاص يفيد التوكيد لا العكس". دراسات بلاغية :٦٩، كما ذكر عبد الفتاح لاشين: أن كل تركيب يفيد الاختصاص هو بالضرورة يفيد التقوي ؛وذلك لتكرار الاسناد الناشئ من تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي. ينظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن:١٦٤.

فـ"يكون المقصود حينئذ تأكيد وقوع المراودة منها ليوسف أمام النسوة والملك، وهذا ما لم يتحقق في قولها من قبل:﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ ﴾" [1].

ويُلحظ –ها هنا– أن تقديم الفاعل المعنوي في كلام كل من يوسف –عليه السلام– وامرأة العزيز ينسجم تمامًا مع السياق المقامي، حيث إن موقفه يقتضي أن يستخدم أقوى أساليب الإقناع للدفاع عن نفسه ضد تهمةٍ هو بريء منها، كما أن الحدث الآخر (موقف المرأة) يستلزم أن تستخدم –أيضًا– أقوى الأساليب لتبرئة ساحته وتعترف بأنها صاحبة الجرم.

كما يبدو سياق المقصد جليًا؛ إذ تلوح بعض القيم التي يسعى القصص القرآني إلى تعزيزها وهي انتصار الحق على الباطل ولو بعد حين ، ونصرة المظلوم، وبيان طبيعة النفس البشرية التي تتأرجح بين الخير والشر، غير أن الخير ينتصر في النهاية. كما أن السياق يؤكد على أن المرأة في القصص القرآني "لا تُستجلَب لغايةٍ غير العبرة والعظة، ولا تأخذ مكانًا في القصة إلا حيث تكون درسًا مستفادًا في الدعوة إلى الخير والعدل والإحسان، وفي التنفير من الشر والبغي والعدوان "[2].

وقد يفيد تقديم الفاعل المعنوي مجرد تأكيد الخبر وتحقيقه كقول النسوة :﴿ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾،وذلك لغرابته، قال عبد القاهر: "وكذلك[3] في كل شيء كان خبرًا على على خلاف العادة، وعما يُستغرب من الأمر نحو أن تقول: (ألا تَعْجَبُ من فلان؟ يدَّعي العظيم، وهو يعيا باليسير، ويَزعم أنه شجاعٌ ،وهو يَفزع من أدنى شيء"[4]، فالنسوة لم يتوقعن أن أن يحصل مثل هذا الفعل من تلك المرأة خاصة، نظرًا لعلو مكانتها ومكانة زوجها، فلما حصل الفعل منها وأردن نشر الخبر أكدن قولهن بذكرها بوصفها﴿ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ﴾وقدَّمْنَها في كلامهن ليؤكدن ذلك الخبر بإسناد الفعل لها مرتين، مرة بالاسم الظاهر، وأخرى بالضمير المستتر في

[1] جماليات النظم : ١١٩-١٢٠ .

[2] القصص القرآني: ٣٩٧.

[3] إشارة إلى قوله: "ويشهد لما قلنا من أنَّ تقديم المحدَّثِ عنه يقتضي تأكيد الخبر وتحقيقه له ، أنا إذا تأملنا وجدنا هذا الضرب يجيء فيما ... " دلائل الإعجاز: ١٣٣.

[4] المرجع السابق : ١٣٤.

الفعل﴿تُرَٰوِدُ ﴾، كما جاء الفعل مضارعًا؛ ليحكي استمرار المراودة من قبل المرأة. وهذا الحديث يشير إلى طبيعة المجتمع الراقي آنذاك والذي تتناقل فيه الأخبار وتكون مادة للسَّمر والتسلّي.

ولا تقتصر بلاغة التقديم على ركني الإسناد، فثمة لطائف وأسرار تُلحَظ من تقديم المعمولات بعضها على بعض، وهي كثيرة في القصص القرآني، من ذلك قول امرأة العزيز:﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا ﴾فقدمت الجار والمجرور﴿ بِأَهۡلِكَ ﴾على المفعول﴿ سُوٓءًا ﴾ لتفيد معنى التخصيص بربط شبه الجملة بالفعل أولًا، وإعظامًا للخطب لكونه مسلطًا على من هم تحت حماية العزيز وإغراءً له لتحقيق ما تتوخاه منه بحكم الغضب والحمية[1] ثانيًا.

وعدولها عن جعل إرادة السوء منصبَّة عليها حيث لم تقل:(من أراد بي سوءًا) إلى جعله موجَّهة إلى أهل العزيز بقولها:﴿ بِأَهۡلِكَ ﴾ "لتصرف العدوان من أن يكون عليها هي إلى أن يكون عليه هو؛ استدرارًا لغضبه من أجل كرامته، ولو قالت: (من أراد بي) لتركت له الفرصة للتأمل في صدق قولها أو كذبه، أو لكان له أن يقول لها: (ولماذا تركت له الفرصة حتى أراد بك السوء ؟"[2].

والناظر في الآيات يقطع يقينًا ببراءة يوسف – عليه السلام – من الوقوع في الخطيئة وهذا بيّن واضح في قوله تعالى:﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾[3]، فالله صرفهما عنه وصرفه عنهما، فهو لم يتلبس بهما ابتداءً، ولا أرادهما ولا خطر بباله شيء منهما، والتقديم في هذه الآية له مدلول عظيم ؛ فتقدّم الظرف﴿ عَنۡهُ ﴾ على المفعول والمعطوف﴿ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ على الاعتناء والاهتمام بأمره –عليه السلام–، فهو محور القصة وصاحب الحدث، فبدأ الله به؛ اهتمامًا بأمره وإظهارًا لعفته وتنويهًا بمنزلته وكرامته[4] .

وهناك صور أخرى من التقديم هي في غاية البلاغة، ومجال البحث فيه أرحب، خاصة في القصص وما فيها من تقديم بعض الأحداث على بعضها لاعتبارات عدة .

---

[1] ينظر : تفسير أبي السعود : ١٣٢/٣.

[2] البيان في روائع القرآن: تمام حسان: ٣٢٠.

[3] يوسف : ٢٤.

[4] ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم: منير المسيري: ٤٣٥.

ومن ذلك التقديم والتأخير في هذه القصة تبعًا لمقتضيات السياق المقامي،كتقديم (السجن) على (العذاب) في مقام تهديد امرأة العزيز ليوسف–عليه السلام – وتقديم (السجن) على (الصغار)، فجاء ترتيب الألفاظ موافقًا لترتيب المعاني في نفس المرأة، ومعبرًا أدق تعبير عن حالتها النفسية، ومنبئًا عن مشاعرها تجاه يوسف–عليه السلام– فحبها الشديد له والذي وصل شغاف قلبها حملها على تخير أخف الضررين من (السجن والقتل) فقد صرفت نظر العزيز من الانتقام بالقتل إلى الانتقام بالسجن، إبقاءً عليه في الحياة أملًا في الظفر به؛ لذا هددت بقولها:﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾، ثم أعادت تهديدها بقولها:﴿ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾، فذكرها (العذاب) في الآية الأولى و(الصَّغَار) في الآية الثانية جاء مناسبًا لحالها، فحين هددت بالسجن أو العذاب أرادت التغليظ في العقوبة ؛ لأنها في موقف الغاضب المتنصل من المراودة ، ثم لما رَجَت وطمعت في طواعيته رقَّت عليه فتوعدته بالسجن دون العذاب[1]، وقد يكون سبب تقديمها للسجن على العذاب أنها من فرط محبتها ليوسف–عليه السلام– لم تسع لإيلامه[2].

التقديم والتأخير في قصة ملكة سبأ :

بعد أن ذكر الهدهد خبر ملكة سبأ وما كان منها ومن قومها من انحراف في العبادة ختم خبره بقوله:﴿ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾ فقدَّم الفاعل المعنوي﴿ فَهُمۡ﴾ فكان أقوى في نفي الهداية عن الملكة وقومها؛ لِمَا في التقديم من تكرار الإسناد كما سبق، فعدم اهتدائهم إنما هو نتيجة انحرافهم في السجود لغير الله تعالى واستغلاب الشيطان لهم[3].

وكما يتقدم المسند إليه لغرض كذلك قد يتقدم المسند؛ ليفيد معنى التشويق إلى المسند إليه، والتشويق غرض أصيل في الفن القصصي، وهذا ما نجده في قول الهدهد واصفًا مُلكَ ملكة سبأ:﴿ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴾، أي: "نالت من كل شيء حسن من

[1] ينظر : البحر المحيط :٦/٢٧٣.

[2] ينظر : دلالات التقديم والتأخير في القرآن : ٤٣٥.

[3] ينظر : غرائب الصورة القرآنية : ١٣٨.

شؤون الملك، فعموم (كل شيء) عموم عرفي من جهتين[1] يفسره المقام...أي: أُوتيت من خصال الملوك ومن ذخائرهم وعُددهم وجيوشهم وثراء مملكتهم وزخرفها "[2]، ثم أردف هذا بقوله:﴿ وَلَهَا عَرْشٌ ﴾ فخص من نفائس الأشياء عرشها تأدبًا في الحديث مع سليمان –عليه السلام– ولفتًا لانتباهه، وقد تمكَّن من ذلك باستخدام أسلوب التقديم، فقدم المسند (لها)؛ ليستثير ذهن السامع ويشوقه إلى سماع ما يكون بعد ذلك ، فيتساءل: ماذا سيكون لها بعد؟ فيأتي بلفظ (عرش) ليلفت الانتباه إليه، مما جعل سليمان –عليه السلام– يأمر باستجلابه فقال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾[3] ويجعله مجالًا لاختبارها.

وأما قول سليمان –عليه السلام–:﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا ﴾[4] فيه تقديم للجار والمجرور ﴿لَهَا﴾على المفعول به﴿ عَرْشَهَا ﴾؛ لتخصيص الفعل لها دون غيرها، إذ كان اختباره خاصًّا للملكة، فبالتقديم نبه العاملين على ذلك إلى العناية والدقة في اختيار مواطنه حتى لا تفطن له صاحبته، التي هي أعرف به من غيرها لتكون في حيرة من أمرها، ويحصل بذلك مقصوده، وهو النظر في حالها أتهتدي إليه أم تكون من الذين لا يهتدون.

والمتأمل بداية خبر الهدهد في قوله تعالى:﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ يلحظ تقديمه للموجود الحسي (كل شيء – عرش) على الموجود المعنوي (السجود للشمس)، وهذا من قبيل تقديم الأليق بالسياق، فالهدهد أراد استثارة سليمان –عليه السلام– فتدرج في الخبر، إذ فاجأه بخبر مُلْكٍ غير ملكه وعرشٍ أكثر عظمة من عرشه؛ ليَلفت انتباهه إلى ما هو أعظم من ذلك وهو انحرافهم في العبادة، فيلمس بذلك قلب سليمان عليه السلام .

---

[1] عموم (كل) وعموم النكرة ، فـ (كل) مستعملة للكثرة ، و(شيء) للأشياء المهمة مما له علاقة بالمقام المذكور فيه . ينظر : التحرير والتنوير : ٢٣٨/١٩.

[2] المرجع السابق : ٢٥٣/١٩.

[3] النمل : ٣٨.

[4] النمل : ٤١.

وأما تقديم (التزيين)على (الصد) فهو من باب تقديم السبب على المسبب، فتزيين الشيطان سبب في الصد عن السبيل الذي نتج عنه عدم الهداية، فترتيبها جاء منطقيًا، إذ بيَّنت خطوات الشيطان في الغواية .

وفي سياق تهديد سليمان للهدهد نجد تقديم (الصدق) على(الكذب) في خبره[1]، وذلك وذلك في قوله عليه السلام:﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾، وحيث إن الصدق هو الأصل في الأخبار كان تقديمه على الكذب، وهو منجاة لصاحبه، فخاطبه سليمان–عليه السلام– بما يضمن نجاته من العقوبة فكان بذلك أحرص على نجاته من معاقبته، وهنا تظهر شخصية الملك العادل الحريص على شعبه ومن هم تحت إمرته، والله أعلم.

أما التقديم في قوله تعالى:﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[2] فقد فسره أبو حيان بقوله: "والظاهر أن بداءة الكتاب من سليمان ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلى آخر ما قص الله منه خاصة، فاحتمل أن يكون من سليمان مقدمًا على(بسم الله) وهو الظاهر، وقدمه لاحتمال أن يندر منها ما لا يليق، إذ كانت كافرة، فيكون اسمه وقاية لاسم الله تعالى، أو كان عنوانًا في ظاهر الكتاب وباطنه فيه (بسم الله)إلى آخره. واحتمل أن يكون مؤخرًا في الكتابة عن (بسم الله) وإن ابتدأ الكتاب باسم الله، وحين قرأته عليهم بعد قراءتها له في نفسها، قدمته في الحكاية، وإن لم يكن مقدمًا في الكتابة"[3]، ولعل الاحتمال الثالث مرجوح والله أعلم، وإن كان يكشف عن اجتهادات المفسرين في استنطاق النصوص والاستنباط منها.

وتقديم النهي على الأمر في خطاب سليمان–عليه السلام– في قوله:﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾فليكون أدعى للاستجابة إلى أمره؛ لأن التعالي والكبرياء قد يمنع الشخص من الانصياع إلى الأمر، فما بالك بمن هي في مثل مكانته؟

---

[1] ينظر : البحث نفسه :٧٧-٧٨.

[2] النمل : ٣٠.

[3] البحر المحيط: ٨/٢٣٤. " وقال أبو بكر ابن العربي: كانت رسل المتقدمين إذا كتبوا كتابًا بدؤوا بأنفسهم، من فلان إلى فلان، وكذلك جاءت الإشارة. وعن أنس: ما كان أحد أعظم حرمة من رسول الله ﷺ، وكان أصحابه إذا كتبوا إليه كتابًا بدؤوا بأنفسهم . المرجع نفسه : الصفحة نفسها .

وأما تقديمها للاعتراف بالظلم لنفسها بإشراكها على الانقياد والاستسلام لله رب العالمين في نهاية الأمر، فهو من باب التدرج في فعل الأمر، فبدأت بالدرجة الأولى في الاعتقاد وهي التخلي عن اتباع الضلال وترك الشرك وذلك باعترافها بالظلم ثم صعدت إلى درجة أعلى منها وهي درجة التحلي بالإيمان كما قال ابن عاشور[1].

التقديم والتأخير في قصة امرأة فرعون:

وجاء تقديم المسند إليه في قصة امرأة فرعون في قوله تعالى:﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾؛ لتقوية الحكم وتأكيده؛ إذ الكلام عن أمر غيبي لا علم للبشر به؛ لأنَّ عدم شعور فرعون وآله متعلق بخطئهم العظيم في التقاطهم لموسى[2] أولًا، فهم "لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة"[3]، وهو مرتبطٌ بما هو كائن من هلاكهم على يديه وفي زمانه[4] ثانيًا .

كما نجد في هذه القصة صور أخرى من التقديم؛ كتقديم جانب المنفعة على المضرة في قولها:﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾، فامرأة فرعون جعلت قرارة العين لها ولزوجها أولًا فقالت:﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ وهذا عين المنفعة، ثم تذكرت بطشه وجبروته فقالت محذِّرة:﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ لما في ذلك من عظيم الضرر للطرفين: الطفل وآل فرعون في نظرها، ومن ثم لجأت إلى إقناعه بقولها:﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ وهذا التقديم في غاية التلاؤم والانسجام مع السياق المقامي؛ فقد جاء مناسبًا لحالة الخوف والرجاء التي تعيشها في تلك اللحظة، فقدمت الوازع الطبيعي عن القتل على

[1] ينظر: التحرير والتنوير : ١٩/٢٧٦.

[2] يشير هذا المعنى إلى قوله تعالى:﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾القصص : ٨ .

[3] تفسير القرآن العظيم: ٦/٢٠٠.

[4] ذكر الطبري أقوال أهل التأويل في هذه الآية ، ثم رجَّح أن يكون الصواب هو عدم شعور آل فرعون بما هو كائن من هلاكهم على يدي موسى عليه السلام، وسبب ترجيحه لهذا القول أنه أتى عقيب قوله تعالى:﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ فهو بيان لهذا القول من باب أولى.ينظر: جامع البيان : ٨/٦٣٤٦.

الوازع العقلي، حتى يكون ذلك أدعى لعدم رفض طلبها، قال ابن عاشور: "نظم الكلام قضى بهذا الترتيب البليغ، بأن جعل الوازع الطبيعي عن القتل وهو وازع المحبة هو المقدِّمة؛ لأنه أشدُّ تعلقًا بالنفس، فهو يشبه المعلوم البديهي. وجُعل الوازع العقلي بعد النهي علةً لاحتياجه إلى الفكر، فتكون مهلة التفكير بعد سماع النهي الممهَّد بالوازع الطبيعي فلا يخشى جماح السامع من النهي ورفضه إياه"[1].

وأما تقديم النفع على اتخاذه ولدًا فقد يكون من قبيل ذكر العام ثم الخاص، فلا يخفى ما لاتخاذهم للولد من النفع لهما، وهذا أقوى في الترغيب والإقناع.

ومن التقديم ما يكون باعتبار الأولى كقول امرأة فرعون:﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ ﴾فمصلحة النفس مقدمة على كل اعتبار، ولهذا كان تقديمها لذاتها من تقديم الدعاء للنفس على الغير، أو "لما تعلم من مزيد حب فرعون إياها وأنَّ مصلحتها أهم عنده من مصلحة نفسه، قدمت نفسها عليه، فيكون ذلك أبلغ في ترغيبه بترك قتله، فلا يقال: إن الأظهر في الترغيب بذلك العكس، وقد يستأنس لكون مصلحتها أهم عنده من مصلحة نفسه" [2].

وأما قول امرأة فرعون:﴿ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فقد قدمت فيه الأهم في نفسها، فهي حين التجأت إلى ربها لم يكن همها أن تستوطن الجنة ببيت أو قصر، فعلى الرغم من أنها عاشت في قصر من قصور الدنيا فلم تشعر بالسعادة والراحة فيه؛ ولذلك جعلت كل اهتمامها جوار ربها؛ لذا "طلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة ؛ فإن الجار قبل الدار"[3].

ويرى الدكتور منير المسيري أن هناك تقديمًا آخر في هذه الآية لم يُلتفت إليه، وهو تقديم النجاة من فرعون على النجاة من القوم الظالمين في قولها:﴿ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ

---

[1] التحرير والتنوير : ٧٩/٢٠.

[2] روح المعاني : ١٠ / ٢٥٨ .

[3] الفوائد: ١٩٧، قال أبو حيان: " وقال بعض الظرفاء: وقد سئل: أين في القرآن مثل قولهم: الجار قبل الدار؟ قال: قوله تعالى:﴿ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي ﴾ف (عندك) هو المجاورة، و(بيتًا في الجنة)هو الدار" البحر المحيط: ٢١٦/١٠.

ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ حيث بدأت بطلب النجاة من الذي ظُلْمُه واقع بها على ما لم يقع بعد، أو بدأت بطلب النجاة من الأشد ظلمًا إذ لم يُعلم من هو أشد ظلمًا منه في عصره[1].

إذن فالتقديم في الكلام وإن كان للاهتمام والعناية فقد جاء مراعيًا للسياق، فكان أبلغ في التصوير وأشد في التأثير، حيث نقل المعاني في ألفاظها إلى المخاطبين كما هي مرتبة في ذهن المتكلم حسب أهميتها عنده[2] .

ولأهمية قصة المراودة وما اشتملت عليه من اتهام، ودفع شبهة، واعتراف، جاء تقديم المسند إليه بشكل ملحوظ في أثنائها بما يخصص ويؤكد ويقوي المعنى المراد، كما جاء تقديم بعض المتعلقات وصور أخرى من التقديم كان لهما دور بارز في الكشف عن ملامح الشخصيات في القصة، وإظهار مكنونات المشاعر المتضاربة في نفس امرأة العزيز، وإجلاء الحقيقة كما في شهادة الشاهد .

ولقد كان لغرابة قصة ملكة سبأ أثر في التقديم فيها، فقد جاء لغرض التشويق، وتقوية المعنى والتأكيد عليه، وللتخصيص، كما أبرزت صور التقديم الأخرى جانبًا من جماليات هذه القصة، ظهرت في تقديم السبب على المسبب، والتدرج في الخضوع للأمر بما يضمن كماله.

أما قصة امرأة فرعون فقد كان للتقديم أثر بارز في الكشف عن مكنونات نفس تلك المرأة، إذ أظهر جوانب الحب المختلفة لديها، من حب ارتقت به أعلى المراتب (الحب الإلهي)، وحب جبلت عليه كل أنثى (حب الأم لابنها).

[1] ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القرآن: ٦٥٨.

[2] ينظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم : ١٥٨.

المطلب الثاني

الذكر والحذف

تتكون الجملة في العربية من المسند والمسند إليه، فالمسند إليه هو الذات والمسند كالوصف له، والأصل في الكلام أن يُذكر بأجزائه كلها لإفهام السامع مراد المتكلم، ولكن قد تُحذف بعض هذه الأجزاء كالمسند والمسند إليه وغيرهما وفق ضوابط قررها البلاغيون، كأن يكون في الكلام ما يدل على المحذوف، ويكون وراء الحذف أغراض بلاغية يقتضيها المقام كما سيتضح في هذا المطلب.

ولقد فضلت في هذا المطلب الدمج ما بين المصطلحين في التحليل بحسب وروده في الآيات الموضوعة للدراسة ؛ وذلك لأن فيه تصويرًا كليًا لمشاهد القصة، على عكس ما لو درست كل مصطلح على حدة فإني حينئذ سأضطر إلى جمع مواضع كل منهما على حدة ثم تصنيفها بحسب قواعد البلاغيين؛ ولأن طبيعة هذا العلم (البلاغة) تتأبى على القواعد الجاهزة والمقولبة، وإن كان الدارس يحتاج إلى التصنيف؛ لإدراك السمات المشتركة بين الأساليب المتماثلة. كما أن طبيعة البلاغة القرآنية تقتضي عدم الالتزام الصارم بقواعد البلاغيين، بل ينبغي أن يُستنبَط من الأسلوب القرآني قواعده الخاصة به، وهذا ما ينبغي مراعاته في التحليل والاستنتاج؛ لذا فضلت دراسة هذا المطلب وما بعده بهذه الطريقة التي تجمع ما بين المصطلحين، حيث نظرت إلى كل آية بحسب ورودها في القرآن، وبيَّنت ما فيها من جماليات ذكر أو حذف، وكما يقال: وبضدها تتميز الأشياء .

الذكر والحذف في قصة المراودة:

إن المسند والمسند إليه هما ركنا الجملة، وتمام المعنى مفتقرٌ إليهما، فذكرهما هو الأصل، ومع ذلك فإننا نستطيع أن ندرك أسرارًا بلاغية لهذا الذكر، وخاصة إذا كان المقام يُسوّغ حذف أحدهما لقيام الدليل عليه.

وبيان ذلك ما نجده في ذكر المسند إليه في قوله تعالى عن امرأة العزيز:﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ فأسند الفعل إلى فاعله وأوقعه على صاحب السبب؛ مراعاةً لجانب

الحقيقة وقصدًا لزيادة تقرير وقوع المراودة من قِبَلِها، وإظهارًا لكمال نزاهة يوسف- عليه السلام- فعدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها وتأبِّيه عليها مع كونه تحت امرتها يجعله في أعلى مراتب العفة والنزاهة [1].

والتعبير عن امرأة العزيز بالموصول (التي) فيه "زيادة تقرير للمسند إليه وهو (التي) وتأكيد أنها هي الفاعلة دون غيرها، ...فالتعبير بالاسم الموصول نفى أي احتمال يحتمل، وأكد أنها هي الفاعلة للمراودة"[2] كما أنَّ فيه استهجانًا للتصريح باسمها في هذا الموطن حيث ارتبط بالفعل القبيح منها بدلالة الصيغة المفردة لكلمة (راودته) ؛"لأن من تُقبل على فعل الفاحشة تنفر منها النفوس وتكره الألسن التفوه باسمها، وتأبى الطِّباع نسبتها إلى زوجها وهو ذو الشأن في الدولة ، إنه العزيز ، وهي بفعلها صارت لا تستحق أن تنسب إليه"[3]، وفيه ستر عليها إذ لم يذكرها صراحة، وإنما أومأ إليها حتى لا يرتبط هذا الفعل باسمها، وهذا يشير إلى مقاصد الشريعة الإسلامية في التربية بالحسنى، والستر على المذنب وعدم التشهير به؛حفزًا له على التوبة، خاصة إذا كان الجاني امرأة كزوجة العزيز، فصون الحرمات وعدم التعرض للمحارم من مقاصد الشرع الحنيف، ولنوازن بين هذا التعبير:(التي راودته) وبين عبارة النساء الصريحة الفاضحة:﴿ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا ﴾[4]؛ استقباحًا منهن لفعلها، وهي تكشف عن طبيعة المجتمع المترَف الذي يتسلَّى بلَوْك أعراض الناس.

" ومجيء صلة الموصول مشتملة على ضميره (هو) دون أن يقال: (التي تملكه) أو (التي يسكن في بيتها) وما شابهه؛ للعناية بإبراز شأنه في هذه القضية؛ لأنه هو المعني بها، فكان لا بد من إظهار شخصه فيها "[5].

---

[1] ينظر : تفسير أبي السعود : ١٢٦/٣

[2] علم المعاني : بسيوني فيود: ١١٨

[3] المرجع السابق : ١١٩

[4] ينظر البحث نفسه : ١٠٩.

[5] جماليات النظم : ٢٣-٢٤.

كما برز ذكر المسند إليه في سياق إثبات الحقيقة بشكل لافت فيوسف–عليه السلام– دفع عن نفسه الشبهة بذكرها أولًا [1] حين قال:﴿ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي ﴾، ثم جاء ذكر المسند إليه في شهادة الشاهد:﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ؛ لزيادة إيضاحه، وليستقر في النفس مرتبطًا بخبره؛ إذ تقرر صِدْقَ يوسف—عليه السلام– بعد رؤية القميص.

ولا يخفى على المتأمل ما لذكر متعلق الفعل مِن ﴿ قُبُلٖ- مِن دُبُرٖ ﴾ من أثر بارز في إظهار الحقيقة، إذ كان نقطة التحول في مجرى الشهادة، حيث أثْبِتَت براءة يوسف—عليه السلام— وصدقه بمجرد النظر إلى مكان الشق، مما جعل العزيز لا يزيد عن قوله:﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾، ولهَوْل الموقف الذي وضع فيه بعد تبينه للحقيقة، ولرغبته الشديدة في سرعة احتواء الحدث لجأ إلى حذف حرف النداء[2]؛ ليومئ "بأن ما حدث يجب أن يضمر في السرائر فلا ينطق به إنسان ولا يجري به لسان"[3].

ثم جاء قول امرأة العزيز:﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ و﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ مجلِّيًا لتلك الحقيقة، حيث اعترفت بذنبها عن طريق التلميح أولًا، إذ "أشارت إليه بالبعيد وهو قريب؛ لتظهر علو منزلته في الحسن، ولتبرز عذرها في الافتتان به"[4]، وبالاعتراف ثانيًا، ثم أكدت ذلك الحكم على نفسها بنسبته إليها حين قالت:﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾[5]، فزادت بهذا الأمر إيضاحًا وتقريرًا، وهنا تظهر بلاغة النظم في اعتذار المرأة لنفسها بعد اتهامها لها، وفي هذا إشارة إلى إعجاز القرآن في الكشف عن طبيعة النفس البشرية ومكنوناتها مما لا يدركه إلاَّ خالقها جلَّ وعلا.

---

[1] ينظر البحث نفسه : ١٠٨–١٠٩.

[2] ينظر البحث نفسه : ١٠٢.

[3] من بلاغة النظم القرآني : ٩٦.

[4] علم المعاني: بسيوني فيود : ١٢٧.

[5] يوسف : ٥٣.

وقد يجيء ذكر المسند إليه لتحديد المقصود وتمييزه، كما في قول النسوة:﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[1]، فذِكْرُ اسم الإشارة (هذا) في سياق نفي البشرية وتَكْرَاره في سياق إثبات الملكية دليل على أن المراد التحديد الدقيق للمقصود ؛لأن التعريف باسم الإشارة خاصة يميز المسند إليه أكمل تمييز ؛ لصحة إحضاره في ذهن السامع بوساطة الإشارة حسًّا [2] ، وفي ذكره أيضًا تعظيم للمشار إليه، قال البقاعي: "﴿وَقُلْنَ حَاشَ﴾أي: تنزيهاً عظيماً جداً ﴿لِلَّهِ﴾ أي: الملك الأعلى الذي له صفات الكمال التي خلق بها مثل هذا. ولما كان المراد بهذا التنزيه تعظيمه بيَّنَهُ بقولهن:﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾؛لأنه فاق البشر في الحسن جداً، وأعرض عن الشهوة من غير علة نراها مانعة له؛ لأنه في غاية القوة والفحولية...وأعدن الإشارة دفعاً لإمكان الغلط" [3].

وحذف الألف في قولهن:﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ صوَّر اللحظة الأولى لاستبداد الذهول بألسنتهن بعد أن استبد بعقولهن –حين قطَّعن أيديهن دون أن يشعرن– وقلن:﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ فعبَّرن بقولهن جميعًا بكلمة واحدة من غير ترتيب سابق بينهن، "وهي كلمة تنزيه تقال في هذا الموضع تعبيراً عن الدهشة بصنع الله "[4]، وقد يراد بها هنا تنزيه ليوسف–عليه السلام– عن البشرية وكأنها وصف يحطُّ من شأنه لفرط جماله، فعنايتهن منصبة على الصورة الجمالية لخلقة يوسف–عليه السلام – على خلاف قولهن في سؤال الملك:﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾[5] فقد صوَّر الحذف الوهلة الأولى لإجابة النسوة عن السؤال حيث سارعن بالدفاع عن يوسف – عليه السلام – وذلك بتنزيهه عن الوقوع في السوء ، فقولهن:﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ "أي: تنزيهًا لله عن كلّ نقص، وكما ننزّه الله عن كل عيب ونقص، ننزِّه يوسف عن كل منكر وقبيح"[6]، فأشرن بذلك الحذف في الأول إلى جماله الظاهر، وبالثاني إلى جماله الباطن، فجمعن له بينهما.

---

[1] يوسف : ٣١.

[2] ينظر: الإيضاح : ١٨/٢.

[3] نظم الدرر: ٧٣/١٠.

[4] كذا في الأصل، والصواب (من صنع). في ظلال القرآن : ١٩٨٤/٤.

[5] يوسف : ٥١.

[6] التفسير القرآني للقرآن : ١٢٨٥/٦.

كما جاء ذكر المسند الفعلي في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾؛ للإشارة إلى المغايرة في (الهمّ) بينهما، فلقد اختلف المفسرون في توجيه الآية لاختلافهم في جواب (لولا) على أقوال:

الأول: إثبات جواب (لولا) وتقدمه عليها ، أي: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، وهذا القول أثبت وجود (الهمّ) من يوسف عليه السلام[1].

الثاني : كسابقه، ولكنه ينفي وجود (الهم) من يوسف عليه السلام، وممن ذهب إلى هذا ابن عاشور، وجعل التقديم للاهتمام بالمقدَّم، ثم ليبرز استقلال جملة﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾عن قوله:﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾قال باستحسان الوقف عليها؛ ليظهر معنى الابتداء في﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾[2].

الثالث: حذف جواب (لولا) لدلالة ما قبله عليه، مع نفي (الهم) عنه عليه السلام، وقد اختار أبو حيان هذا القول، فذكر "أن يوسف –عليه السلام– لم يقع منه همّ بها ألبتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان كما تقول: لقد قارفت لولا أن عصمك الله، ولا تقول: إن جواب (لولا) متقدم عليها...بل نقول: إن جواب (لولا) محذوف لدلالة ما قبله عليه، كما يقول جمهور البصريين في قول العرب: أنت ظالم إن فعلت، فيقدرونه: إن فعلت فأنت ظالم، ولا يدل قوله: (أنت ظالم) على ثبوت الظلم، بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل، وكذلك هنا التقدير: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فكان موجدًا الهمَّ على تقدير انتفاء رؤية البرهان ، لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهمُّ" [3]، ويُلحَظ ـ هاهنا ـ استئناس أبي حيان بالسياق اللغوي في الترجيح، فقد رجع إلى الاستعمال الوارد في كلام العرب لبعض الأساليب ليصل منه إلى القول بحذف جواب (لولا) في الآية؛ مشيرًا بذلك إلى أن السر البلاغي للحذف هو نفي الهمِّ عن يوسف–عليه السلام– نفيًا كليًا.

وعلى هذا يمكن القول إن ذكر جواب (لولا) وتقدمه أو حذفه إنما جاء لغرض واحد هو نفي الهمِّ عن يوسف–عليه السلام– وإن كان في الحذف أظهر، حيث فرَّق ما بين (همّ امرأة العزيز) و(همّ يوسف) من حيث الوقوع وعدمه[4]، فقد "كانت جادة فيما راودته لا مخبرة،

---

[1] ينظر مثلاً: جامع البيان : ٦ / ٤٥٠١ – ٤٥٠٤.

[2] ينظر : التحرير والتنوير : ٢٥٣/١٢.

[3] البحر المحيط : ٢٥٧/٦–٢٥٨.

[4] ينظر: جماليات النظم : ٣٦.

مخبرة، والمقصود من ذكر همّها به التمهيد إلى ذكر انتفاء همه بها لبيان الفرق بين حاليهما في الدين فإنه معصوم"[1]، وهكذا برئت ساحة يوسف—عليه السلام- من الوقوع في المنكر.

ولقد تراءى هذا الأمر للعزيز فأقبل على امرأته، "لا ليداينها وحدها في شخصها، بل ليجعل التهمة مشاعة في بنات جنسها جميعًا،﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾ أيتها النساء﴿ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾، إنه يتهمها بأنها المديرة لهذا المنكر، والداعية إليه، ولكنه يُغَلف هذا الاتهام بتلك الكياسة السياسية التي هي صنعة الملوك، ومن في صحبة الملوك!"[2].

قال تعالى:﴿ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾، فذكر الجار والمجرور (في المدينة) يتعلق بأمرين :

الأول: متعلق بالنسوة فيكون المعنى أنهن ساكنات في المدينة التي حصل فيها الحدث، ووُصِفْن بذلك؛ "لأن إغاظة كلامهن بهذا الاعتبار لاتِّصافهن بما يقوي جانب الصدق أكثر. فإن كلام البدويات لبعدهن عن مظان الاجتماع والاطلاع على حقيقة أحوال الحضريات القصريات لا يلتفت إلى كلامهن، فلا يغيظ تلك الإغاظة "[3].

الثاني: متعلق بـ (قال) فيكون المعنى ذيوع الخبر وانتشاره في المدينة التي يسكنها العزيز وامرأته[4]، وانحصاره فيها فلم يتجاوزها إلى غيرها، قال البقاعي: "لما كانت البلدة كلما عظمت كان أهلها أعقل وأقرب إلى الحكمة، قال:﴿ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ أي: التي فيها امرأة العزيز ساكنة "[5].

فالتعبير بهذا القيد﴿ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ في هذا السياق أبرز جانبًا من طبيعة المرأة المحبة للبحث عن أسرار البيوت وفتح مغاليقها وكشفها[6] وإن كانت ممن ترتاد القصور، فعلى الرغم من قلة (النسوة)[7] فقد انتشر الخبر في أرجاء المدينة التي كنَّ يسكنَّها . كما كان للقيد أثر في

---

[1] التحرير والتنوير: ٢٥٢/١٢.

[2] القصص القرآني: ٤٣٣.

[3] روح المعاني: ٤١٦/٦.

[4] ينظر: المرجع السابق : الصفحة نفسها.

[5] نظم الدرر: ٧٠/١٠.

[6] ينظر: التفسير القرآني للقرآن : ١٢٦٦/٦.

[7] جاء وزن (نسوة) على (فِعْلة) كـ (شِيْخة)و(فِتْية) وهو من أوزان جموع القلة. ينظر: معاني الأبنية في العربية : ١١٨-١١٩. كما ذكر فاضل السامرائي بأن تذكير الفعل يستعمل مع جمع التكسير ليفيد القِلّة كما جاء في الآية في سورة يوسف؛ لأن النسوة كنَّ قِلّة وهذا بخلاف تأنيث الفعل فإنه يفيد الكثرة. ينظر: لمسات بيانية (محاضرات مفرغة للشاملة):

تصوير الحدث وإحياء المشهد القصصي بما يحضره إلى مخيلة القارئ، فيكون أكثر تأثيرًا، ومن جانب آخر فإنه يشير إلى ثراء اللفظ القرآني واحتماله أكثر من معنى مما يستنبط من سياق الحدث.

ثم انظر إلى روعة النظم القرآني في تصويره المخادعةَ التي وقعت في مراودة امرأة العزيز والتي تجلت في ذكر الجار والمجرور﴿ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ وتكرره من أول المراودة، قال تعالى:﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ وقال يوسف مدافعًا:﴿ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾ وقال النسوة: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾واعترفت امرأة العزيز بقولها:﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾،﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾.

فتعدية المراودة بـ "(عن) لتضمينها معنى المخادعة، فالمعنى خادعته... أي: فعلت ما يفعله المخادع لصاحبه عن شيء لا يريد إخراجه من يده، وهو يحتال أن يأخذ منه، وهي عبارة عن التمحل في مواقعته إياها "[1].

"وقد يكون معنى المخادعة الذي ذكره أبو السعود هو صورة المجاوزة المعروفة من دلالة حرف الجر (عن)، وبما أن مادة (رود) تدل على الحركة، فهذا يعني أنها أرادت بكل حيلها وأنوثتها تجريده من نفسه ليكون لها وحدها"[2]، أشار إلى هذا ابن عاشور بقوله: "و(عن) للمجاوزة، أي: راودته مباعدة له عن نفسه، أي بأن يجعل نفسه لها، والظاهر ان هذا التركيب من مبتكرات القرآن، فالنفس هنا كناية عن غرض المواقعة قاله ابن عطية [3]، أي: فالنفس أريد بها عفافه وتمكينها منه لما تريد، فكأنها تراوده عن أن يسلم إليها إرادته وحكمه في نفسه"[4].

أما قول يوسف:﴿ رَٰوَدتُّنِي عَن نَّفۡسِي﴾ ففيه زيادة تبرئة لذاته إذ دلَّ بذلك على أن إرادته مخالفة لإرادتها، قال الراغب: "والمراودة: أن تنازع غيرك في الإرادة، فتريد غير ما يريد، أو ترود غير ما يرود "[5].

٧١٤، وجاء في البحر المحيط: ونسوة جمع قلة ، فقد ذكر أنهن خمس نسوة: (امرأة الخباز– امرأة الساقي– امرأة البواب– امرأة السجَّان– امرأة صاحب الدواب) في القصر. ينظر : ٢٦٦/٦.

[1] تفسير أبو السعود: ١٢٦/٣.

[2] جماليات النظم: ٢٤.

[3] ينظر : المحرر الوجيز: ٢٣٢/٣.

[4] التحرير والتنوير: ٢٥٠/١٢.

[5] المفردات: ٣٧١.

وقول النسوة:﴿ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ يشير إلى معنى المجاوزة السابق، فهي أرادت صرفه عن رأيه بشتى الوسائل والصور مما أثار استغراب النسوة فعلَّلن فعلها بقولهن:﴿ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ بذكر (قد) الدالة على تحقق الأمر ووقوعه ليناسب مرادهن في تجريم امرأة العزيز[1]، وللمبالغة في تشنيع فعلها صرَّحن بإضافتها للعزيز[2].

فما كان من امرأة العزيز إلا الاعتراف بقولها:﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ بأسلوب يشعر بالتعالي والتهديد، ثم أعادت اعترافها بأسلوب آخر يشعر بالتعقل فقالت:﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فاختلف الخطابان باختلاف الموقفين " إذ إن للغضب والنزوة والتعالي والتهديد لغته، التي يكرس فيه[3] المتكلم كل قواه البيانية للتأثير في السامع، كما هي حال امرأة العزيز في خطابها الأول ، وللهدوء والتعقل والرزانة لغتها التي تتسم بالهدوء وإخراج الكلام على قدر المعاني، كما يبدو في خطابها الثاني"[4]، إذ اكتفت فيه بالتقديم؛ لأنها تحكي الحقيقة التي لن ينكرها أحد، وخاصة أنها جاءت على لسانها لتؤكد على أنها الفاعلة، ثم عقبت بقولها:﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ فنفت تبرئة نفسها من الوقوع في الخطأ على سبيل الإقرار والاعتذار عما بَدَرَ منها، وإشارة منها إلى "أن النفس بطبعها كثيرة الميل إلى الشهوات"[5] إذا ما ما أطاعها الإنسان وأعطاها ما اشتهت.

قال ابن عاشور: "ظاهر ترتيب الكلام أن هذا من كلام امرأة العزيز، مضت في بقية إقرارها فقالت: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ وذلك كالاحتراس[6] مما يقتضيه قولها:﴿ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ من أن تبرئة نفسها من هذا الذنب العظيم ادعاء بأن نفسها بريئة براءة عامة، فقالت: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾أي: ما أبرئ نفسي من محاولة هذا الإثم ؛لأن النفس أمارة بالسوء وقد أمرتني بالسوء ولكنه لم يقع"[7].

---

[1] ينظر : جماليات النظم: ٦٩.

[2] ينظر : البحر المحيط : ٢٦٦/٦.

[3] (فيه) هكذا ذكر في الأصل وقد يكون المراد (فيها) إذ الضمير عائد على (التي) .

[4] جماليات النظم: ١٢١.

[5] روح المعاني: ٧٣/٧.

[6] وهو نوع من الإطناب ، ويسمى بالتكميل أيضًا، "وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه". الإيضاح: ٢٠٨/٣.

[7] التحرير والتنوير : ٥/١٣.

وعلى هذا فذكر لفظ (نفس) وتكراره في أثناء القصة أبرز جانبًا من الطبيعة البشرية التي تعتري جميع البشر باختلاف مكانتهم ومقامهم؛ لذا كان من رحمة الله تعالى بعباده أن يُقيّض لهم ما يصرفهم عن فعل السوء، "كما جعل إباية يوسف–عليه السلام– من إجابتها إلى ما دعته إليه حائلًا بينها وبين التورط في هذا الإثم، وذلك لطف من الله بهما"[1]. وهنا تظهر الرعاية الربانية لعباده المخلصين. قال تعالى:﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾، والتعبير عن العصمة بالصرف يشير إلى أن أسباب حصول السوء والفحشاء موجودة ولكن الله صرفهما عنه[2].

ولشعور يوسف–عليه السلام– بعظمة هذه الرعاية الإلهية لجأ إلى ربه بقوله:﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾، فهو يعلم يقينًا أن لا منجى له من هذا الكيد العظيم إلا بذلك الحفظ الرباني، ومحبته للسجن على ما فيه من الألم والشدة على ما يدعونه إليه من الاستمتاع بالمرأة الحسنة على ما فيه من اللذة، هي محبة ناشئة عن ملاءمة الفكر كمحبة الشجاع للحرب؛ إذ إن السجن يخلصه من الوقوع في الحرام[3].

ومما لا شك فيه أن من أعظم الابتلاءات التي قد تصيب العبد أن يبتلى في عرضه وشرفه ؛ لذا جاءت براءة يوسف –عليه السلام – قرآنًا يتلى، قال تعالى:﴿ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ كما جاءت براءة أم المؤمنين السيدة عائشة–رضي الله عنها– من حادثة الإفك كذلك، قال عز وجل:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[4].

والمتأمل لاختيار يوسف–عليه السلام– للسجن يلحظ صعوبة الموقف الذي وضع فيه، فقد وضع حريته في مقابل عدم الوقوع في المعصية، ثم اختار عدم الانصياع لتلك المرأة على الرغم من استمرار تهديدها، ومن هنا تبرز جماليات حذف المسند إليه في سياق وعيدها له حين قالت ﴿ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ وفي قولها:﴿ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ ، إذ بُنِيَ الفعل لما لم يسم فاعله حتى ينصرف الذهن إلى الفعل

[1] المرجع السابق : الصفحة نفسها

[2] التحرير والتنوير : ١٢/٢٥٤-٢٥٥

[3] ينظر : التحرير والتنوير : ١٢/٢٦٥

[4] النور : ١١

دون فاعله، وهذا يتناسب مع "لغة تلك الطبقة الحاكمة، حيث يحذفون الفاعل؛تفخيمًا لشأنهم وإشعارًا بأن الفعل لا ينصرف إلا إليهم"[1]، قال الألوسي: "آثرت بناء الفعل للمفعول جريًا على رسم الملوك...[أو] إيهامًا لسرعة ترتب ذلك على عدم امتثاله لأمرها كأنه لا يدخل بينهما فعل فاعل"[2]. وهذا يتناسب مع لغة الفوقية التي تريد أن تثبت من خلالها سلطتها[3]. وهنا يبرز السياق الثقافي الذي يكشف عن عُرْف المجتمع وتقاليد الطبقة الحاكمة في الحوار والمخاطبات، فالحوار فيه استعلاء وتنفُّخ بالباطل على مملوك ضعيف قُدِّر له أن يكون تحت سيطرة تلك المرأة، التي لم يردعها عن غوايتها كرم الفتى وعزة نفسه وأمانته.

الذكر والحذف في قصة ملكة سبأ:

يلوح من خلال السياق التاريخي للقصة، والتي تحكي حدثًا مضى في غابر الأزمان، إلماحات إلى السياق الثقافي والعُرْفي خاصة فيما يتعلق بمراسم الملك والسيادة، والتواصل السياسي بين الدول والملوك، والمكاتبات فيما بينهم، ولقد كان للنظم الكريم أثر في إبراز هذا السياق خاصة فيما يتصل بالبُنى التركيبية وما طرأ عليها من ذكر أو حذف لبعض عناصرها.

والمتأمل لقصة ملكة سبأ يلحظ جمالياتها الكامنة في غرابتها فهي قصة لم يسبق لها مثيل، فقد حُكيت على لسان الهدهد لتكون عذرًا لغيابه عن سليمان–عليه السلام–قال تعالى:﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾[4]، ليبدأ في سرد أحداث هذه القصة الغريبة بقوله:﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾، ومما زاد في غرابة الحدث أن بطل القصة امرأة، بل ملكة، ولهذا صرَّح السياق بذكر المفعول به (امرأة) ونكَّره؛ ليلفت انتباه سليمان وقومه إليه ويبدي تعجبه منه؛ إذ "حكى أمرًا عجيبًا عندهم، وهو أن تكون امرأة ملكة على قوم "[5]، فقلَّما تملك النساء، فتَمَلُّك المرأة للحكم مما لا يتناسب مع أحوالها فهي عاطفية بطبعها وقد تطغى تلك العاطفة على تفكيرها

[1] جماليات النظم : ٩٦.

[2] روح المعاني : ٤٢٤/٦.

[3] ينظر : جماليات النظم : ٩٦.

[4] النمل : ٢٢.

[5] التحرير والتنوير : ٢٥٢/١٩.

فتؤثر في حكمها، فتصبح غير قادرة على تفقد رعاياها وتولي شؤونهم وقيادتهم في السلم والحرب فتفقد سيطرتها عليهم، ومن هنا كان تعجب الهدهد ملفتًا للانتباه مما جعل سليمان–عليه السلام–يتأنى في عقابه.

ومجيء الفعل﴿ وَجَدتُّ ﴾ في سياق الإخبار فيه إشارة إلى معنى الوجود بإحدى الحواس الخمس[1] إذ رأى الهدهد ملكة سبأ عيانًا، وتكراره في ذات السياق دلَّ على أنه وجد أمرين مختلفين، قال الراغب: "وجود بالبصر والبصيرة فقد كان منه مشاهدة بالبصر، واعتبار لحالها بالبصيرة ، ولولا ذلك لم يكن له أن يحكم بقوله:﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا ﴾ الآية "[2]، فالهدهد استدل على ضلالها وقومها بما شاهده من سجودهم للشمس.

ومما زاد في عجب الهدهد ذلك المُلْك العظيم الذي عبَر عنه بقوله:﴿ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ فبنى الفعل لما لم يسم فاعله لتعيُّنه في نفسه، فلا مؤتٍي لهذا الملك العظيم إلا الله عز وجل[3]، ومتى ما علم الإنسان هذه الحقيقة وجب عليه أن يقيم حقه في إخلاص العبادة له وحده ؛لذا قال الهدهد متعجبًا من عبادتهم لغير الله:﴿ أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾[4]، والمعنى: ما تخفونه وما تعلنونه، فحذف المفعول به، والسر في هذا الحذف هو الدلالة على إثبات المعنى في نفسه للفاعل دون النظر إلى مفعول معين، فالمقصود هو أن الله سبحانه وتعالى كما يخرج كل مخبوء وراء ستار الغيب في هذا الكون العريض، فإنه يعلم خبايا النفوس ما ظهر منها وما بطن[5]، والمطابقة ما بين الفعلين (تخفون–تعلنون) فيه توسيع لدائرة العلم وتنبيه على تساويهما بالنسبة للعلم الإلهي[6].

ومنه أيضًا حذف المسند إليه لتعيُّنه، قال سليمان–عليه السلام–:﴿ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴾[7]؛ شكرًا لله على ما لديه هو وقومه من الحكمة، إذ لهم الفضل والمزية على ملكة ملكة سبأ في ذلك، قال ابن عاشور: "وإن أريد بـ ﴿ مِن قَبۡلِهَا ﴾ القَبْلِيَّة الاعتبارية– وهي الفضل

---

[1] ينظر : تاج العروس : ٢٦١/٩.

[2] المفردات : ٨٥٥.

[3] ينظر: البحث نفسه : ٧٠–٧١.

[4] النمل: ٢٥.

[5] ينظر: في ظلال القرآن : ٢٦٣٩/٥.

[6] ينظر: تفسير أبي السعود : ٢٥٦/٤.

[7] النمل : ٤٢.

والتفوق في المزايا وهو الأليق بالمعنى- كان المعنى: إنَّا أوسع وأقوى منها علمًا، كما قال النبي ﷺ: «نَحْنُ الْأَوَّلُونَ السَّابِقُونَ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا»[1] أي: نحن الأولون في غايات الهدى، وجعل مثلا لذلك اهتداء أهل الإسلام ليوم الجمعة فقال:«وَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللَّهُ إِلَيْهِ»[2]. فكان الأرجح أن يكون معنى﴿ مِن قَبۡلِهَا ﴾ إنَّا فائتونها في العلم وبالغون ما لم تبلغه. وزادوا في إظهار فضلهم عليها بذكر الناحية الدينية، أي: وكنا مسلمين دونها. وفي ذكر فعل الكون دلالة على تمكنهم من الإسلام منذ القدم" [3].

وقد يحذف المسند إليه لعدم تعلق غرض الكلام بالقائل كما في قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِ﴾ والظاهر أنه سليمان -عليه السلام- وقد بُني الفعل لما لم يسم فاعله؛ لأن المقصود هو مفاجأة بلقيس بما لا يخطر على بال، فالمقام مقام استفهام واستعلام يقتضي من المخاطب الإقرار إثباتًا أو نفيًا، فقال لها: (أهكذا) ولم يقل: (أهذا عرشك) "لئلا يكون تلقينًا لها فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير من إبراز العرش في معرض الإشكال والاشتباه حتى يتبين لديه -عليه السلام- حالها"[4].

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى:﴿ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَ﴾ فالغرض هو تسليط الضوء على الطلب المتمثل في الفعل﴿ ٱدۡخُلِي ﴾ بعد ذلك، وإن كنت أرى أن الفاعل قد يكون معلومًا وهو سليمان -عليه السلام- ؛لأن المقام مقام ضيافة واستقبال ودعوة لملكة دولة سبأ، فالحري أن يكون في استقبالها من هو في مكانتها حتى يكون ذلك أدعى لتقبلها الخضوع له بعد ذلك، والله أعلم.

وقد يُبنى الفعل لما لم يسمَّ فاعله لكونه مجهولًا كما في قول بلقيس:﴿ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴾، فقد وجدت كتاب سليمان-عليه السلام- ملقًى على سريرها، ولم تعلم من ألقاه ؟ولا كيف وصل إليها؟، فقالت:﴿ أُلۡقِيَ ﴾ "فأضمرت الفاعل؛ لعدم علمها به؛ ولإظهار خطر الكتاب، فحامله مجهول...وظاهر قولها:﴿ أُلۡقِيَ إِلَيَّ ﴾ أن الكتاب ألقي إليها دون حضور أهل

---

[1] ذكر الحديث بلفظ: «نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ » في صحيح البخاري : حديث رقم (٨٧٦): ٢/٢، وفي صحيح مسلم بلفظ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» حديث رقم (٨٥٥): ٢/٥٨٥.

[2] صحيح مسلم : حديث رقم (٨٥٥) : ٢/٥٨٥-٥٨٦.

[3] التحرير والتنوير: ١٩/٢٧٤.

[4] روح المعاني : ١٠/٢٠٢.

مجلسها "[1]، بل وصل إليها مباشرة، فحتى حامل الرسالة (الهدهد) لم يكن من شأنه أن يعرف محتواها، "وبهذا ظلت الرسالة سرًا محجوبًا، حتى بلغت الجهة الموجهة إليها. وهذا تدبير تقضي به الحكمة والكياسة، وتفرضه أصول الحكم ومقتضيات السياسة "[2].

وفي تجهيل المصدر إيحاء "بأنها الملكة الساهرة على رعيتها، الحافظة لأمن دولتها، وأنها تملك من القوى الخفية التي لا يراها قومها ما يعينها على ضبط أمورها وحياطة شعبها؛ وهكذا يضفى على الملكة بهذه الحركة البليغة البارعة جلال فوق جلالها، وروعة فوق روعة سلطانها "[3].

وفي ذكر (الكتاب) إشارة إلى العُرْف السائد في ذلك الوقت–ولا يزال– من تبادل المكاتبات والرسائل بين الملوك والزعماء، أما وصفه بأنه (كريم) ففيه إشارة أخرى إلى صفات الكتب المِلكيَة –بوجه خاص– ، فالكتاب لا يكون (كريمًا) إلا إذا كان نفيسًا، ومن شخص جليل القدر، وعليه اسمه وخاتمه [4].

ومن بلاغة هذه العبارة ﴿كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ أنها تصور شيئًا من أدب الملوك آنذاك في الإجلال والاحترام المتبادَل فيما بينهم، فضلاً عن كونها تحمل ملامح الخطاب السياسي من وضوح القصد، وإيجاز العبارة، ودقة اللفظ، "فقد كانت الرسالة موجزة العبارة، واضحة المعنى، بيّنة القصد، لا تحمل وعيدًا، ولا تهديدًا، وإنما تحمل دعوة إلى السلام والإسلام" [5]، والذي يظهر لي أن القول بأنها (لا تحمل وعيدًا ولا تهديدًا) يُقصد به عدم تصريح سليمان – عليه السلام – بذلك في رسالته.

ومن الواضح أن ملكة سبأ قد مهَّدت بهذا الوصف لرغبتها في عدم المقاومة والمخاصمة لتَظْهر بذلك شخصية المرأة من وراء شخصية الملكة، تلك المرأة التي تكره الحروب والتدمير، والتي تنضي سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تنضي سلاح القوة والمخاشنة [6].

---

[1] تحليل الخطاب : ٣٢١.

[2] التفسير القرآني للقرآن : ١٠/٢٤٠.

[3] المرجع السابق : الصفحة نفسها .

[4] ينظر : التحرير والتنوير : ١٩ / ٢٥٨.

[5] التفسير القرآني للقرآن : ١٠/٢٤٠.

[6] ينظر: في ظلال القرآن : ٥/٢٦٤٠.

وبعد أن أبلغت الملكة قومها بمضمون الرسالة كان لابد لها من الرد عليها ، فافتتحت خطابها لهم بالنداء ف ﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴾فطلبت المشورة بلفظ﴿ أَفۡتُونِي ﴾ وأكدت عليه بجملة﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴾ ؛ لتشير إلى أن هذه سياستها التي اعتادت عليها، ففعل "﴿ تَشۡهَدُونِ ﴾ هنا مستعمل كناية عن المشاورة؛ لأنها يلزمها الحضور غالبًا إذ لا تقع مشاورة مع غائب"[1].

وفي طيات هذا الموقف يتبدى لنا مقصد إسلامي أصيل هو الشورى، وخصوصًا في الأمور الجِسام كهذا الحدث، فقال سبحانه وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام:﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾[2]، ومدح الله صحابة نبيه عليه الصلاة والسلام فقال:﴿ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾[3][4].

وعلى عادة رجال الحاشية فقد أبدى القوم استعدادهم فقالوا:﴿ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾، فصرحوا بالمسند إليه﴿ نَحۡنُ ﴾ليشيروا إلى تمام إخلاصهم لها، وإخبارهم عن أنفسهم بالقوة وشدة البأس تصريح باستعدادهم للحرب وتعريض بأنهم يميلون إلى الدفع بالقوة إذا ما أكرههم على الدخول تحت طاعته[5]، وحذفهم للمسند إذ المقصود: الأمر متروك إليك؛ ليصلوا بذلك مابين استشارتها ومشورتهم، فكأن لسان حالهم يقول: الأمر منك وإليك، وفي هذا دليل على تمام الطاعة والانصياع لها.

و"حذَفَ مفعول﴿ تَأۡمُرِينَ ﴾ ومتعلقه لظهورهما من المقام، والتقدير: ما تأمريننا به، أي: إن كان رأيك غير الحرب فمري به نطعك"[6]. وسياق الخطاب بلغته الجازمة القوية ينبئ عما عُرفت به دولة سبأ في تاريخ اليمن من القوة والعظمة.

ومع هذا لم تُرِد الملكة أن تقطع برأيها بل عرضت وجهة نظرها، واستدلت بشواهد التاريخ الماضي فقالت:﴿ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾،

---

[1] التحرير والتنوير: ١٩/٢٦٣.

[2] آل عمران: ١٥٩.

[3] الشورى: ٣٨.

[4] ينظر: الإعجاز القرآني البياني في آيات قصة سليمان : ٣١٦.

[5] ينظر: التحرير والتنوير : ١٩/٢٦٤-٢٦٥.

[6] المرجع السابق : ١٩/٢٦٥.

فافتتحت الجملة بحرف التوكيد (إنَّ) للاهتمام بالخبر وتحقيقه[1]، ثم جاءت بالمسند إليه معرفًا (بأل) الدالة على العهد إذ قصدت الملوك الظالمين لذا عقبت بـ﴿ أَفْسَدُوهَا ﴾. وفي هذا إشارة منها إلى الواقع السياسي العالمي الفاسد الذي يقوم على فرض القوة والاستعباد والتخويف، كما كشف الخطاب فساد الحياة السياسية في الأمم الوثنية [2].

وجملة ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ هو تصديق لقولها من جهتين، إذ اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية على قولين: الأول: أنه من كلام الملكة، وقد ذهب إلى هذا الرأي الزمخشري[3]، والرازي[4]، والنسفي[5]، وابو حيان[6]، وابن عاشور[7] فيما يبدو، وعليه فإن هذه الجملة تأكيد لما لما وصفت من حالهم، واستدلال منها على المستقبل بحكم الماضي على طريقة الاستصحاب، وهو كالنتيجة للدليل [8].

والثاني: أنه تعقيب من الله عز وجل على قولها، فـ "قيل: تصديق لها من جهة الله تعالى على طريقة قوله تعالى:﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [9] إثر قوله:﴿ لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾"[10]، وصيغة التمريض(قيل) تؤذن بأن أبا السعود يضعف هذا القول، كما ضعَّفه الزمخشري والرازي والنسفي حيث أوردوه بذات الصيغة، ولكن الطبري وابن عطية أوردا هذا القول منسوبًا إلى ابن عباس، قال الطبري في تفسيره: "قال ابن عباس: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ قال ابن عباس : يقول الله:﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾"[11]، ونِسْبَة القول إلى ابن عباس يقويه ويرجحه، وعليه يمكن القول أن هذه الجملة هي تصديق منه عز وجل لقولها؛ "معرفًا

---

[1] ينظر : التحرير والتنوير : ٢٦٦/١٩.

[2] ينظر: تحليل الخطاب: ٣٣٧.

[3] ينظر : الكشاف : ٣٦٥/٣.

[4] رأى أن الأقرب أنه من كلام ملكة سبأ . ينظر : مفاتيح الغيب : ٥٥٥/٢٤.

[5] ينظر : مدارك التنزيل : ٦٠٤/٢.

[6] ينظر : البحر المحيط : ٢٣٦/٨.

[7] التحرير والتنوير : ٢٦٦/١٩.

[8] ينظر : المرجع السابق : الصفحة نفسها .

[9] الكهف : ١٠٩ .

[10] تفسير أبي السعود : ٢٥٩/٤.

[11] جامع البيان: ٦٢٨٧/٨ .

لمحمد عليه السلام وأمته ومخبرًا به" [1]. وإذا كانت هذه الجملة تذييلًا من كلامه عز وجل، فهو يشير إلى سُنَّة مطردة في تعامل الملوك الظلمة مع غيرهم .

وبعد ذلك العرض قررت رأيها وعزمت عليه فقالت:﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [2]، وقولها هذا يشعر السامع بقمة التواضع الممزوج بالعظمة، فحين تحدثت عن نفسها قالت:﴿ وَإِنِّي ﴾ بصيغة المفرد على الرغم من مكانتها الاجتماعية التي قد تفرض عليها في مخاطباتها تعظيم نفسها وأن يُعظمها مخاطبوها[3]، وهذا دليل على قمة ذكائها وحسن درايتها، فعلى الرغم من تواضعها لم تغفل رسم الملوك في مخاطباتها، إذ عظمت سليمان –عليه السلام– رغم غيبته فقالت:﴿ مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم ﴾ ، فاختارت التعبير باسم الفاعل؛ تقريرًا لرأيها بعدما عدلت عن رأيهم، "وأتت بالجملة الاسمية الدالة على الثبات، المصدَّرة بحرف التحقيق للإيذان بأنها مزمعة على رأيها، لا يلويها صارف، ولا يثنيها عاطف"[4].

وحذفت مفعول﴿ مُرْسِلَةٌ ﴾ لدلالة المقام عليه، "فالتقدير: مرسلة إليهم كتابًا ووفدًا مصحوبًا بهدية، إذ لابد أن يكون الوفد مصحوبًا بكتاب تجيب به كتاب سليمان؛ فإن الجواب عن الكتاب عادة قديمة، وهو من سنن المسلمين، وعدَّ من حق المسلم على المسلم، قال القرطبي: "إذا ورد على إنسان كتاب بالتحية أو نحوها ينبغي أن يرد الجواب؛ لأن الكتاب من الغائب كالسلام من الحاضر"[5] " [6].

ثم طُوي خبر ارتحالها لعدم تعلقه بموضع العبرة، إذ المقصود خضوعها لأمر سليمان– عليه السلام – قال تعالى:﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ فحذف المسند إليه في الآية

---

[1] ينظر : المحرر الوجيز : ٢٥٨/٤.

[2] النمل : ٣٥.

[3] "وليس بمقبول في عرف الخطاب السياسي أن تخاطب الملكة مبعوثها بضمير الجمع (أنتم) ولا أن تتحدث عنه بصيغة الجمع ﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ولا أن تعظمه بضمير الجمع للغائبين (هم) والعكس معمول به تعظِّم بالجمع نفسها : (قررنا نحن إرسال هدية) ويعظمها مخاطبوها، وقد تواضعت الملكة تأثرًا بالموقف، فقالت وهي ليست في حضرة سليمان : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ ﴾، ولم تقل: نحن مرسلون إليه بهدية... فقد]تواضعت، وعظمت سليمان عليه السلام في غيبته". تحليل الخطاب: ٣٣١.

[4] تفسير أبي السعود : ٢٦٠/٤.

[5] الجامع لأحكام القرآن : ١٩٣/١٣.

[6] التحرير والتنوير : ٢٦٦/١٩.

(جاءت- قيل) لدلالة السياق عليه[1]؛ فملكة سبأ هي من جاءت إلى سليمان –عليه السلام- وهو من سألها عن عرشها إذا أخذنا بالاعتبار أنها في ضيافة صاحب الملك، فحريٌّ به أن يكون في استقبالها وبذلك يكون أول من خاطبها، كما لا يُتصوَّر أن يسألها في هذا المقام عن عرشها من هو أقل منها مكانة والله أعلم، ويكثر مثل هذا الحذف في القصص القرآني لتسلسل الأحداث المرتبطة ببعضها فيحذف ما دل عليه دليل للإيجاز والاختصار.

ثم ذكر النظم القرآني أسباب انحرافها عن عبادة الله، قال تعالى:﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فالتزيين والصد من الشيطان أحد تلك الأسباب بدلالة قوله تعالى بعد ذلك:﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فتكرار ذكر المسند الفعلي(صدَّ) مع اختلاف الفاعل[2]دليل على وجود عدة عقبات تمنع من الوصول إلى الحقيقة من أعظمها التمسك بدين الآباء والتعصب له؛ لذا ذُكر منفردًا بخلاف صدّ الشيطان فإنما يكون على مستويات[3] تبدأ بالتزيين ثم الصد وصولًا للانحراف عن جادة الصواب .

ومن الملاحظ في قصة ملكة سبأ تكرار ذكر الفعل (نظر) على اختلاف دلالته بما يتناسب مع سياق المقام، فجاء في خمسة مواطن[4]، حيث جاءت في سياق تحقق سليمان–عليه عليه السلام– من خبر الهدهد بمعنى التأمل والفحص والروية قبل اتخاذ العقوبة، قال الراغب: "النظر: تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وهو الروية"[5]. ويظهر هذا المعنى الأخير في قول سليمان في حق بلقيس:﴿ نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ ﴾ من أجل ذلك لم تشأ بلقيس أن تقطع برأي عندما سئلت: أهكذا عرشك ؟ حيث تروَّت في إجابتها .

---

[1] ينظر : البحث نفسه : ١٢٨.

[2] ينظر البحث نفسه : ٥٥.

[3] ينظر : غرائب الصورة القرآنية : ١٣٨.

[4] على لسان سليمان –عليه السلام – في تحققه من خبر الهدهد: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ وفي أمره له:﴿ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴾، وفي قول قوم ملكة سبأ:﴿ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾، وفي جوابها عليهم:﴿ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾، وفي امتحان سليمان –عليه السلام– لها:﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾.

[5] المفردات : ٨١٢.

أما في قوله:﴿ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴾ فهو بمعنى انتظر وراقب ما يكون من أولئك القوم من قبول أو رفض. ومثل هذا قول بلقيس:﴿ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ قال ابن عاشور: "فناظرة: اسم فاعل من نَظَرَ بمعنى انتظر، أي:مترقبة، فتكون جملة:﴿ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ مبينة لجملة (فناظرة) أو مستأنفة. وأصل النظم: (فناظرة ما يرجع المرسلون به)، فغُيِّر النظم لما أريد أنها مترددة فيما يرجع به المرسلون... ويجوز أن يكون (فناظرة) من النظر العقلي، أي: عالمة "[1].

وقول الملأ:﴿ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾ وإن كان يعني تقليب البصيرة لإدراك الأمر، إلا أنه حمل معنى التفويض والتسليم من أولئك القوم، وهو مثل رجع الجواب عن الكتاب بالقبول أو الرفض[2] في قوله تعالى:﴿ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴾.

وقد لخص مُحَمَّد وهدان استخدامات لفظ (النظر) في القصة بقوله: "والنظر هنا في هذه الآيات الخمس ليس معناه مجرد النظر بالعين، ولكن معناه النظرة الثاقبة، وتقليب البصر وتصويبه لإدراك المعاني ولمعرفة وجه الحق والصواب، فالنظر يعني الفحص والتأمل وإعمال الفكر وعدم الاندفاع في إصدار الأحكام. قال سليمان للهدهد:﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ ﴾ باستخدام السين التي تدل على حدوث الفعل في المستقبل، بينما نجده يقول عن بلقيس:﴿ نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ﴾ بدون السين؛ وذلك لأن الأمر تحت النظر والتجريب، وهكذا تجد أن كل حرف في القرآن الكريم له هدف وغاية "[3].

الذكر والحذف في قصة امرأة فرعون:

من الملاحظ في هذه القصة أن الحديث عن امرأة فرعون جاء في سياقين مختلفين : في سياق الدفاع عن عاطفة الأمومة حين خاطبت زوجها قائلة:﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾، وفي سياق ضرب المثل للمرأة المؤمنة قال تعالى:﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، وفي كلا المقامين كانت مثالًا يحتذى به، فشخصيتها الفريدة دفعتها للوقوف أمام جبروت فرعون؛ لتنقذ ذلك الطفل الذي غدا بعد ذلك نبيًا مرسلًا مستعينة في ذلك برب العزة والجلال.

---

[1] التحرير والتنوير : ٢٦٧/١٩.

[2] ينظر: المرجع السابق: ٢٥٧/١٩.

[3] الإعجاز الإعلامي في القصص القرآني : مُحَمَّد وهدان : ١٠٥-١٠٦.

ولقد جاء ذكرها في قوله تعالى:﴿ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ ﴾ بنسبتها إلى فرعون؛ لأن المراد من الخطاب هو تخصيصها بالقول، وذلك للفت الانتباه إلى أن من تجرؤ على الحديث في هذا المقام الصعب هي امرأة تربطه بها علاقة زوجية، فلم تتكلف خطاب الملوك، ولم تتحرر من كل القيود الرسمية[1]؛ ولهذا استأذنته واستمالته بقولها:﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ ﴾ ثم قدمت طلبها: ﴿ لَا تَقۡتُلُوهُ ﴾فذكرت الفاعل في طلبها بصيغة الجمع؛ لتوجه الخطاب لجنود فرعون وإن كانت تقصده ؛إذ إن الأمر كله بيده، وهم خدم عنده يأتمرون بأمره، ففي أسلوبها تعظيم لفرعون باعتبار مكانته، "وهذا مشهور في مخاطبة ذوي السلطان ويناسب ما ترجوه"[2]، وفيه أيضًا تأدب معه واحترام له لكونه زوجها، فلم ترد أن تتهمه بالقتل صراحة في خطابها، والله أعلم. ثم قدمت مسوِّغين نافعين لبقاء ذلك الطفل؛ "لتغري المخاطب بالاستجابة، وهو طلب مصحوب بحجتين، والحجة الأولى نفعية، والثانية لاستمالة المخاطب واستعطافه بإثارة شعور الأبوة " [3].

ولقد حذف المسند إليه (المبتدأ) في قولها:﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ ﴾ للعلم به ، إذ دلَّ عليه حضور ذلك الطفل بين أيديهم[4]، وظهر في قوله تعالى:﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ للتخصيص والتأكيد[5] على أن آل فرعون لم يشعروا بأن موسى-عليه السلام -هو من سيسلبهم ملكهم[6].

أما في سياق دعائها وتضرعها بقولها:﴿ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ ﴾ فقد جاء حذف حرف (الياء) في لفظ (رب) مُصوِّرًا شوقها ولهفتها لتلك المناجاة وتلذذها بها، حتى إنها كررت ذكر المسند (نجني)؛ لتشير إلى تلك اللذة، وتبرز معنى الاستعانة بالله واليقين التام بالنجاة، كما أبرز حذف حرف النداء مع لفظ الرب في القرآن خصوصية تُشعر بشدة قرب المنادى (رب)[7].

---

[1] ينظر: تحليل الخطاب : ٢٩٣.

[2] المرجع السابق: ٢٩٨.

[3] المرجع السابق: ٢٩٦.

[4] ينظر : التحرير والتنوير : ٧٨/٢٠.

[5] ينظر : تحليل الخطاب : ٢٩٨.

[6] ذكر الفراء أن المقصود بـ (هم لايشعرون) بنو إسرائيل، وقيل :آل فرعون لا يشعرون بأن موسى يسلبهم ملكهم، وقيل: آل فرعون لا يشعرون بأخته حين تبعته . ينظر: معاني القرآن: ٣٠٣/٢.

[7] ينظر البحث نفسه : ١٠٢-١٠٣.

وذكرها لـ (فرعون) أولًا ؛لأنه رأس الظلم والكفر في ذلك العهد، فأرادت النجاة من ذاته المتسمة بالبطش والجبروت، ثم تبرأت من (عمله) بعد ذلك مخافة أن يلحقها من عمله شيء، وهي ألصق الناس به، فوقوفها أمام ضغط المجتمع والملك والمقام الملوكي لم يمنعها من الاستعلاء والاستغناء عن عرض الدنيا الزائف بكل ما فيه من أبهة، حتى غدت نموذجًا يحتذى به في التجرد لله والتنصل من كل المؤثرات والأواصر التي قد تمنعها من الإيمان ودخول الجنة [1].

ومن هنا يمكن القول: إن لكل من الذكر والحذف جماليات لا تظهر إلا من خلال السياق الذي تكون فيه، فقد أبرز الذكر جماليات الدعاء المتسم بكمال الخضوع وتمام اليقين .

وكما أن الذكر يُسهم في الكشف عن المعاني الخفية، فقد أسهم الحذف كذلك في الكشف عن كثير من المعاني العميقة والأسرار الجمالية لما تضمنه من إشغال الفكر وإعماله في تحديد المحذوف ومكانه، "فالمعاني بعد أن كانت تأتي من الألفاظ، اشترك العقل في الدلالة عليها والإشارة إليها"[2].

وإذا كانت ظاهرة الذكر والحذف في المسند والمسند إليه تحقق معاني بلاغية، فإنها كذلك في ذكر أوحذف بعض قيود الجملة ومتعلقاتها، فقد يكون "ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة" [3].

وبما أن الدرس البلاغي يقوم على التحليل والتركيب، وتفكيك النص إلى جزئيات، واستنطاقها للخروج بدلالة كلِّيَّة موحَّدة تكشف عن فكرة النص وصورته الإجمالية، كان للذكر في قصة المراودة سياقات متعددة،كان من أبرزها ذكر المسند إليه في سياق التقرير، والاستهجان، والصون والستر، والدفاع، والتحديد والتمييز، وإظهار الحقيقة وكمال النزاهة، وذكر المسند في سياق المغايرة بين الأفعال تبعًا لطبائع الشخصيات المختلفة، وأما ذكر المتعلق فقد أضفى مزيدًا من التصوير والحيوية على المشهد من خلال إبرازالطبيعة البشرية بشكل عام، وطبيعة المرأة بشكل خاص؛ إذ صوَّر الذكر مخادعتها ومجاوزتها الحد في فعل المنكر،كما كشف عن طبيعتها المحبة للبحث في شؤون الغير، كما كان لذكر المتعلق أثر بارزأيضًا في كشف الحقيقة وإظهار البراءة.

---

[1] ينظر: في ظلال القرآن : ٦/٣٦٢١-٣٦٢٢.

[2] المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم : ١٥١.

[3] دلائل الإعجاز: ١٤٦.

وأمَّا سياقات الحذف فقد ظهرت في حذف المسند إليه في مقام التلطف، والتنزيه، واتباع الاستعمال اللغوي الوارد عند العرب، وفي سياق الوعيد، وفي مقام التركيز على الحدث ذاته وليس الفاعل كما في سياق التهديد.

وفي قصة ملكة سبأ يبرز ذكر المسند إليه في مقام إبراز القوة والبأس، والتقرير على صحة ما ذهبت إليه من رأي، وأما ذكر المسند فقد ظهر في مقام الإخبار والتحقق منه، وفي مقام المشاورة، وذكر المتعلق جاء في مقام التعجب ولفت الانتباه ، والتواضع، والشكر وبيان الفضل.

وكما أن للذكر مقاماته في هذه القصة فقد كان للحذف كذلك، حيث حذف المسند إليه تبعًا للاستعمال اللغوي الوارد عند العرب حيث حذف في مقام الجهل به، وفي مقام تسليط الضوء على الطلب المتمثل في الفعل دون النظر إلى الفاعل للعلم به، وفي مقام الاستعظام. أما المتعلق فقد حذف في مقام توسيع دائرة العلم به؛ لأن المراد إثبات المعنى في نفسه للفاعل دون النظر لغيره.

وفي قصة امرأة فرعون جاء ذكر المسند إليه في مقام التأدب مع المخاطب، والتعظيم له، والإغراء للاستجابة للطلب، كما ظهر في مقام التخصيص والتأكيد. أما المسند فقد برز في مقام التلذذ بالدعاء، وقد ذكر المتعلق في هذه القصة في مقام التخصيص، أما الحذف فقد جاء ليصوِّر الشوق واللهفة من خلال حذف النداء وحرف الياء في لفظ (رب). وبهذا يتضح أن لكل من الحذف والذكر مقامه الذي يقتضيه السياق.

المطلب الثالث

الفصل والوصل

تتكون الجمل من ألفاظ يضم بعضها إلى بعض وفق ضوابط معينة ، كما يتكون الكلام من جمل يتصل بعضها ببعض ، وهناك حروف تستخدم للربط بين تلك الجمل تسمى حروف العطف، وقد يقوى الاتصال بين الجمل وقد تتباعد فلا يحتاج مع شدة الاتصال وقوة البعد مثل تلك الحروف .

وقد عُني علماء البلاغة القدماء بمثل هذه العلاقات حتى جعلوها حدًا للبلاغة فيما أسموه بباب الفصل والوصل، فقد جاء عن بعضهم أنه سُئِل عنها فقال:(معرفة الفصل والوصل)[1] ،و"قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل"[2]، فقصروا بحثهم على العطف بالواو دون حروف العطف؛ "لأن (الواو) هي التي يحتاج العطف فيها إلى لطف في الفهم، حيث إنها لا تفيد سوى الربط بين المتعاطفين، وتشريك ما بعدها في الحكم لما قبلها، أما غير الواو من حروف العطف فإنها تفيد إلى جانب التشريك في الحكم معاني أخرى كالترتيب مع التعقيب في (الفاء)، والترتيب مع التراخي في (ثم)، و (أو) للتردد بين شيئين، فإذا عطفت جملة على جملة بواحد منها، ظهرت فائدة هذا الحرف واضحة جلية" [3].

ولقد حدد البلاغيون خمسة مواطن للفصل[4] وثلاثة للوصل[1]، ذكرها منير سلطان وبيَّن أوجه القصور فيها بقوله:" فن الفصل والوصل في القرآن الكريم يكشف عما في القواعد من قصور،

---

[1] ينظر : دلائل الإعجاز : ٢٢٢.

[2] البيان والتبيين : ٩١/١.

[3] المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم : ٢٢٥.

[4] مواطن الفصل: الأول: كمال الاتصال: وذلك بأن تتحد الجملتان اتحادًا تامًا بأن تكون الثانية بمنزلة الأولى(مؤكدة ، أو موضحة ، أو مبدلة منها). الثاني: كمال الآنقطاع، أن يكون بين الجملتين تباين تام، وذلك باختلاف الجملتين، خبرًا وإنشاء لفظا ومعنى، أو معنى فقط، وألا تكون بينهما مناسبة، بشرط ألا يوهم الفصل خلاف المقصود. الثالث: شبه كمال الاتصال، وذلك بأن تكون الجملة الثانية جوابًا عن سؤال يفهم من الأولى. أما الرابع: فيكون لشبه كمال الانقطاع، بأن تسبق جملة بجملتين يصح عطفها على إحداهما ولا يصح عطفها على الأخرى لفساد المعنى، فيترك العطف دفعا لتوهم أن تكون الجملة معطوفة على التي لا يصح العطف عليها. والخامس : للتوسط بين الكمالين مع قيام المانع من الوصل . ينظر: الفصل والوصل في القرآن الكريم : منير سلطان : ١٦٤-١٦٥.

فهي: أولًا: قد خصت الفصل والوصل بالجمل، والقرآن الكريم قد فصل ووصل بين الجمل وبين المفردات أيضا. ثانيًا: أنها قد حصرت الفصل في أداة واحدة وهي (طرح الواو) بينما فصل القرآن بـ(واو الاستئناف)و(الفاء)و(ثم)و(بل)و(أم المنقطعة)و(ضمائر الفصل)و(الجملة المعترضة) و(الاستثناء المنقطع)، كما حصرت الوصل في (الواو) فقط، بينما وصل القرآن الكريم بجميع حروف العطف وجميع حروف الربط. ثالثًا: أنها سمت الفصل بين الخبرية والإنشائية (كمال الانقطاع) وجعلت الاتفاق بين ركني الجملة خبرًا أو إنشاء مبررًا للوصل، بينما جوز سيبويه وبعض أئمة النحو عطف الخبرية على الإنشائية ... رابعًا: أن ما أطلق عليه كمال الانقطاع مع إيهام الفصل خلاف المقصود، وضربوا له مثلًا:(لا وعافاك الله) يعتبر دليلًا على عطف الإنشائية على الخبرية و(لا) بمعنى(أنفي ذلك) فهي جملة خبرية، و(عافاك الله) جملة خبرية لفظًا إنشائية معنى (دعاء)، هذا بالإضافة إلى أنها تصلح أن تؤدي المعنى بطرح (الواو)، فالمتكلم حين يقول للمخاطب (لا) ثم يتوقف لحظة ثم يستأنف كلامه داعيا له بقوله:(عافاك الله) يكون قد أدى المعنى بلا لبس.

خامسًا: أن هذه القواعد لم تراع المعنى العام ولا السياق الجامع المتجانس الذي اقتضى فصلًا هنا ووصلًا هناك. وانكمشت في أمثلة تعليمية، وشواهد محدودة، غاضة الطرف عن رحاب القرآن الفسيحة، الذي يخضع لوحدة موضوعية فنية، وصورة كلية أجزاؤها السور مجتمعة، ثم كل سورة على حدة لما حوت من آيات، وكل آية بما حوت من ألفاظ، بل وكل لفظة بما حوت من حروف"[٢]. ولهذا رأى أن المقياس الحقيقي لقبول الفصل أو الوصل هو أن تؤدي العبارة-في إطار السياق العام- الغرض من صياغتها، وهو إيصال المعنى دون أي لَبْس.

ولقد كان للمحدثين جهود في دراسة العلاقات والروابط بين أجزاء الكلام، إذ لم يقتصروا على مباحث البلاغيين في باب الفصل والوصل، فالربط بين الكلمات والجمل عندهم قد يكون بالأدوات، وقد يكون بدونها ، فمن مظاهر الوصل ووسائل الربط التي ذكروها الربط

---

[١]= مواطن الوصل: الأول: أن تكون الجملة الأولى لها محل من الإعراب وأريد إشراك الثانية في هذا الحكم الإعرابي مع وجود مناسبة ولا مانع من الوصل. الثاني: ما أسموه بالتوسط بين الكمالين، وهو أن تتفق الجملتان خبرًا وإنشاءً لفظًا ومعنى أو =معنى فقط مع وجود مناسبة بينهما وليس هناك مانع من الوصل. أما الثالث: فأن يكون بين الجملتين كمال انقطاع مع إيهام الفصل خلاف المقصود. ينظر: المرجع السابق: ١٦٥-١٦٦.

[٢] المرجع السابق : ١٦٧-١٦٨.

الإضافي، والعكسي، والسببي، والزمني[1]. فالفصل والوصل وسيلتان من وسائل إبراز الجمال القصصي، له أدواته وطرقه التي تظهر من خلال سياق الكلام.

الفصل والوصل في قصة المراودة:

لقد ابتدأت هذه القصة بذكر المراودة وما تبعها من أحداث متسلسلة قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، فاتصلت أحداثها بالواو لتسلسلها ولكونها مبنية على بعضها فجملتا﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾و﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ مرتبطتان بوصف حال المرأة أثناء المراودة، إذ كشف العطف عن خطواتها العملية التي قامت بها للوصول إلى مرادها، حيث اتخذت جميع الإجراءات الفعلية والقولية فالمسند إليه واحد، فهي من راودت وغلَّقت وقالت فتسلط العامل (الفعل) عليها ليحكي أفعالها المتسلسلة فجاء العطف بينها لاتفاقها في الخبرية.

وتسلسل الافعال ـ هاهنا ـ يشير إلى طبيعة القصص القرآني، والذي تتقدم الأحداث فيه صُعدًا إلى الأمام، حتى تصل إلى النهاية. فالأحداث في قصة يوسف –عليه السلام– تتحرك "حركة مسايرة لحركة الزمن ، حيث ينمو الحدث نموًا طبيعيًا مع سير الأيام والليالي كما ينمو الكائن الحي ويتطور مع مسيرة الزمن"[2] ليصل بالأحداث إلى نهايتها.

وفي مقابل قول المرأة:﴿ هَيْتَ لَكَ﴾ يبرز قول يوسف –عليه السلام–:﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إذ اقتضى قولها ردة فعل من يوسف –عليه السلام– فكأن قائلًا قال –والله أعلم –: فماذا كان ردُّ يوسف ؟ فجاء قوله:﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ جوابًا لقولها السابق؛ "ليتضح [بذلك]الفرق بين لغة الشهوة والخيانة، ولغة العفة والوفاء. وذكر

[1] يتم الربط بالوصل الإضافي بواسطة الأداتين (الواو)و(أو)، وتندرج تحته علاقات أخرى مثل: التماثل الدلالي المتحقق بواسطة التعبير (بالمثل) وعلاقة الشرح مثل: (أعني)، وعلاقة التمثيل كـ (مثلًا، ونحو). أما الوصل العكسي فيتم بواسطة أدوات على عكس ما هو متوقع، مثل: (لكن ،وحتى الآن) أو تعابير مثل (مع ذلك). والوصل السببي يمكن ادراكه من خلال إدراك العلاقة المنطقية بين جملتين أو أكثر، فتندرج تحته علاقات خاصة كالنتيجة والسبب والشرط. ويجسد الوصل الزمني علاقة بين جملتين متتابعتين زمنيًا، وأبسط تعبير لهذه العلاقة استخدام أدوات الربط (الفاء) و(ثم). ينظر: لسانيات النص: محمد خطابي: ٢٣-٢٤.

[2] القصص القرآني: ٣٩٨.

القول دون أي تصرف فعلي كما في حالها هي؛ لأنه السلوك الأسرع في مثل هذه الحالات، ولأن التصرف الفعلي قد لا يكون محمودًا إلا بعد تؤدة"[1].

فقوله:﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ تعظيم لخالقه واستعظام للمنكر، فأول رد فعل له –عليه السلام– كان استحضاره مخافة الله، "وهذا اجتنابٌ منه على أتم الوجوه وإشارةٌ إلى التعليل بأنه منكَرٌ هائلٌ يجب أن يُعاذ بالله تعالى للخلاص منه، وما ذاك إلا لأنه –عليه السلام– قد شاهده بما أراه الله تعالى من البرهان النيّر على ما هو عليه في حد ذاتِه من غاية القُبح ونهايةِ السوء"[2].

ثم ذَكَر لها بعد ذلك علة عرفية لامتناعه عن إجابتها، فقال:﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾؛ لأن مما استقر في الطبائع السليمة أن من المروءة ورفيع الأخلاق أن يحفظ الإنسان حق من أحسن إليه[3]، فما بالك بمن تكفل له بأهم ضروريات الحياة فوفَّر له (المثوى) وما يشمله من مأكل وملبس وغيرهما؟! لذا رأى أبو السعود أنَّ قوله عزَّ وجلَّ :﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجيةِ مما قد يؤثر فيها ويدعوها للاعتبار والرجوع عن طلبها، وذلك بعد أن نبهها يوسف –عليه السلام– إلى سببه الذاتي من الامتناع الذي لا تكاد تقبله لِمَا سوّلتْه لها نفسُها[4].

وسياق الآية دال على أن المراد بـ (ربي) هنا سيدي ومن ربَّاني؛ بدلالة قوله تعالى قبل ذلك:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾[5]، وعلى ذلك يكون الضمير في (إنه) عائد إلى"معلوم من المقام وهو زوج تلك المرأة الذي لا يرضى بأن يَمَسَّهَا غيره، فهو معلوم بدلالة العُرْف،ويكون (ربي) بمعنى سيّدي ومالكي" [6].

ثم جعل وعظه لها علة أخرى للامتناع فقال:﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾؛ فنَفْيُ الفلاح والوصف بالظلم مما يصلح أن يكون واعظًا لتلك المرأة التي عرضت عليه خيانة زوجها[7]؛ لأن الظالم لا يفوز بمطلوب، ولا ينجو من محذور.

---

[1] جماليات النظم : ٣١-٣٢.

[2] تفسير أبي السعود: ٤/٢٦٥.

[3] ينظر: جماليات النظم : ٣٢.

[4] ينظر: تفسير أبي السعود : ٤/٢٦٥.

[5] يوسف : ٢١.

[6] التحرير والتنوير : ١٢/٢٥١.

[7] ينظر: جماليات النظم: ٣٣.

ولاتصال هذه الجمل فيما بينها اتصالًا داخليًا لم تحتج إلى عاطف يربط بينها؛إذ إن الأولى جواب لسؤال قد يرد إلى ذهن السامع، وهذا ما يسمى بالاستئناف عند البلاغيين[1]، أمَّا الجملتان الأخيرتان فبيَّنتا سبب ذلك الامتناع وعلته، فجاء الفصل لما أسماه البلاغيون بكمال الاتصال[2] ؛ إذ إنهما جاءتا مقررتين لجملة﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾.

ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى في مقام تنزيه يوسف-عليه السلام-:﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ ففي هذه الآية موضع من مواضع الفصل بين الجمل، هو شبه كمال الاتصال؛ لأن جملة﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ يثير سؤالًا مؤداه، لماذا صرف عنه السوء والفحشاء؟ فجاءت جملة﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾جوابًا عن هذا السؤال، فوجب الفصل بينهما كما يجب الفصل بين السؤال والجواب؛ إذ لا يعطف أحدهما على الآخر أبدًا. ولقد تعددت القراءات في لفظ﴿ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ فقرئت على أنها (اسم فاعل)، وقرئت على أنها (اسم مفعول)، وفي كل قراءة تزكية ليوسف – عليه السلام – فـ(اسم الفاعل) دلَّ على أنه آتٍ بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص،و(اسم المفعول) دلَّ على أن الله تعالى استخلصه لنفسه، واصطفاه لحضرته[3]، وفي كلا القراءتين دليل على عصمته[4]-عليه السلام- من الوقوع في السوء والفحشاء مما رجَّح القول بانتفاء (همِّه)، ولقوة ارتباط معنى الجملتين استغني عن الوصل بينهما.

فصدق الإيمان وإخلاص النية لله من أعظم صلات العبد بربه، حتى إنَّه ليجد بهما من لطف الله ورحمته ما يُقيل عثرته، ويغفر زلته، فيَصْرِف عنه ما ألمَّ به من السوء والفحشاء [5].

---

[1] وهو تنزيل الكلام "إذا جاء بِعَقِب ما يَقْتضي سؤالًا مَنْزِلته إذا صُرِّح بذلك السُّؤال". دلائل الإعجاز: ٢٣٥.

[2] قال السكاكي: " إن الجملة متى نزلت في كلام المتكلم منزلة الجملة العارية عن المعطوف عليها كما إذا أريد بها القطع عمَّا قبلها أو أريد بها البدل عن سابقة عليها لم تكن موضعًا لدخول الواو ، وكذا متى نزلت من الأولى منزلة نفسها لكمال اتصالها بها مثل ما إذا كانت موضحة لها ومبينة أو مؤكدة لها ومقررة، لم تكن موضعًا لدخول الواو ، وكذا متى لم يكن بينها وبين الأولى جهة جامعة لكمال انقطاعها عنها، لم يكن أيضًا موضعًا لدخول الواو، وإنما يكون موضعا لدخوله إذا توسطت بين كمال الاتصال وبين كمال الانقطاع، ولكل من هذه الأنواع حالة تقتضيه". مفتاح العلوم: ٢٥٢.

[3] ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي: ٢٠٦/٢.

[4] ينظر: البحر المحيط: ٢٥٩/٦.

[5] ينظر: التفسير القرآني للقرآن: ٥٧١/٢.

ولقد عُطف بين مفردتي (السوء) و(الفحشاء) بالواو لدخولهما تحت دائرة الحرام، وإيذانًا بالتغاير الواقع بينهما واكتمال الصرف في كل واحدة منها عن يوسف-عليه السلام-، قال ابن عاشور: "السوء الضر من ساءه سوءًا...والفحشاء اسم مشتق من (فَحُشَ) إذا تجاوز الحد المعروف في فعله أو قوله واختص في كلام العرب بما تجاوز حد الآداب وعظم إنكاره؛لأن وساوس النفس تؤول إلى مضرة كشرب الخمر والقتل المفضي للثأر أو إلى سوأة وعار كالزنا والكذب، فالعطف هنا عطف لمتغايرين بالمفهوم والذات لا محالة بشهادة اللغة وإن كانا متحدين في الحكم الشرعي لدخول كليهما تحت وصف الحرام أو الكبيرة"[1]. والسوء هنا القبيح وهو خيانة من ائتمنه، والفحشاء المعصية وهي الزنا [2].

وكما يفصل بين الكلام لكمال اتصال الجملتين كذلك يسقط الرابط للتوسط بين الكمالين مع قيام المانع من العطف، ففي قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ يوجد مانع يمنع من عطف﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ؛ على جملة﴿ هَمَّتْ بِهِۦ﴾؛ "لأنه لما أردفت جملة﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ بجملة شرط﴿ لَوْلَآ ﴾المتمحض لكونه من أحوال يوسف-عليه السلام- وحده لا من أحوال امرأة العزيز تعين أنه لا علاقة بين الجملتين، فتعين أن الثانية مستقلة لاختصاص شرطها بحال المسند إليه فيها"[3] ، لذا فسَّر ابن عاشور العطف بين الجملتين على أن الواو للعطف بين جملة﴿ هَمَّتْ بِهِۦ﴾وجملة﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾كلها، وليست للعطف على جملة﴿ هَمَّتْ ﴾التي هي جواب القسم المدلول عليه باللام[4]، فهو من قبيل عطف القصة على القصة ، فالجملتان متفقتان في الخبرية لفظًا ومعنى إلا أنه يوجد مانع يمنع من العطف بين الجملتين.

وقد تكون الواو في﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ استئنافية، فتكون بذلك جملة مستقلة عما قبلها، قال الزمخشري: "ومن حق القارئ إذا قدر خروجه[5] من حكم القسم وجعله كلامًا برأسه أن يقف

---

[1] التحرير والتنوير: ١٠٥/٢.

[2] المرجع السابق: ٢٥٥/١٢.

[3] التحرير والتنوير: ٢٥٣/١٢

[4] ينظر : المرجع السابق : الصفحة نفسها .

[5] جوَّز الزمخشري دخول﴿ وَهَمَّ بِهَا﴾في حكم القسم في﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ وخروجه، فالضمير هنا عائد على قوله:﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ينظر: الكشاف: ٤٥٦/٢.

على قوله:﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ ويبتدئ قوله:﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ وفيه أيضًا إشعار بالفرق بين الهمين"[1]. وقد استحسن ابن عاشور الوقوف على قوله:﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ ﴾ والابتداء بجملة﴿ وَهَمَّ بِهَا﴾ ؛لتظهر بذلك عصمة الله ليوسف-عليه السلام- من الهم بالمعصية[2].

ولقد رأى عبد القاهر حين وضع قوانين للفصل بين الجمل ووصلها أن الجمل على ثلاثة أضرب[3]: منها ما يكون الفصل فيه للانفصال إلى غاية كما هو الحال هنا-والله أعلم- ، فلا يُتصور العطف بين الجملتين؛ لتباين المعنى بينهما فلو أريد-في غير النظم القرآني- أن يجمع بينهما في معنى الفعل نفسه لجُمع بينهما بألف الاثنين الدالة على تثنية الفعل فيقال:(همَّا)، ولكن للاختلاف الحاصل في المعنى ولارتباط الجملة الثانية بالشرط بعدها؛ فُصل بينهما فقيل: (همَّت) و(همَّ)، وتكرار ذكر المسند في هذا المقام يشير إلى معنى المغايرة بينهما.

وكما عطفت الجمل في سرد أحداث المراودة لاشتراك المسند إليه فيها ولاتفاقها في الخبرية كذلك جاء العطف بين الجمل في قوله تعالى:﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ ؛ لاشتراكها في وصف حال يوسف—عليه السلام— والمرأة بعد المراودة، فـ "إسناد الاستباق إليهما معًا في ضمير واحد دليل على اشتراكهما في ذلك بصورة متساوية، بغض النظر عن مقصد كل منهما، فهو يريده ليهرب، وهي—أيضًا- تريده ولكن لتمنعه منه، ولعل صيغة الفعل: (استبقا) تشير إلى الجهد المبذول من الطرفين على اختلاف القصد، فكل منهما يطلب السبق، أحدهما لفتح الباب والخروج، والآخر للمنع وإبقاء الباب موصدًا"[4]. ولما

---

[1] المرجع السابق: الصفحة نفسها .

[2] ينظر : التحرير والتنوير : ١٢/ ٢٥٣.

[3] قال عبد القاهر في تحديد هذه الأضرب: "جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف والتأكيد مع المؤكد، فلا يكون فيها العطف البتة، لشبه العطف فيها-لو عطفت- بعطف الشيء على نفسه. وجملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله، إلا أنه يشاركه في حكم، ويدخل معه في معنى، مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه، فيكون حقها العطف، وجملة ليست في شيء من الحالين، بل سبيلها مع التي قبلها سبيل الاسم مع الاسم لا يكون منه في شيء، فلا يكون إياه ولا مشاركًا له في معنى، بل هو شيء إذا ذكر لم يذكر إلا بأمر ينفرد به ، ويكون ذكر الذي قبله وترك الذكر سواء في حاله ، لعدم التعلق بينه وبينه رأسًا. وحق هذا ترك العطف البتة". دلائل الإعجاز: ٢٤٣ .

[4] جماليات النظم : ٤١.

كان من مقتضيات السباق تجاوز أحدهما للآخر جاء (قدُّ القميص)؛ ليدل على السابق منهما واللاحق، فمجيء التعبير القرآني بالفعل المتصل بتاء الفاعل الدال على امرأة العزيز دليل على أن يوسف—عليه السلام- كان أسرع منها، فلم تظفر إلا بقميصه ليكون آخر محاولة لها لمنعه، ثم كانت المفاجأة بأن (ألفيا سيدها لدى الباب)، وإسناد فعل الإلفاء لهما على السواء يشير إلى تجاورهما في الوقوف، فالرائي لهما في تلك اللحظة لا يدرك ما كان منهما قبل ذلك، كما أن حصول المفاجأة كان لكليهما إذ لم يتصوَّر أحدهما أن يراهما أحد على تلك الهيئة ، وخاصة تلك المرأة؛ لذا جاء المفعول به منسوبًا إليها (سيدها) يعني زوجها، وإطلاق السيد على الزوج هو من عادة القبط، والظاهر أنه لم يكن ذلك مستعملًا عند العرب، فالتعبير به هنا من دقائق التاريخ التي حكاها القرآن[1]، وفي هذا إلماحة من ابن عاشور إلى السياق التاريخي الذي أبرز جانبًا من جوانب الإعجاز القرآني المتمثل في إحياء الحدث التاريخي ونقل مشاهد الحياة المتلبسة به من زمان ومكان، وأشخاص وأشياء مما يجعله أكثر حضورًا في ذهن القارئ والمتلقي.

واستعمال فعل الإلفاء دون غيره دلَّ على معنى المفاجأة وعدم الاستعداد من قِبَل يوسف—عليه السلام— والمرأة، وكذلك من قِبَل العزيز، قال ابن عاشور: "الإلفاء: وجدان شيء على حالة خاصة من غير سعي لوجدانه، فالأكثر أن يكون مفاجئًا، أو حاصلًا عن جهل بأول حصول"[2].

ولقوة وقع هذه المفاجأة على المرأة ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فاستأنفت الكلام ؛لأن قوله تعالى:﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ صوَّر حال انكشاف أمرها فكأن "السامع يسأل: ماذا حدث عند مفاجأة سيدها وهما في تلك الحالة؟"[3]، فجاء قولها دفعًا منها لكل شبهة قد تحوم حولها، فأشارت بأصابع الاتهام ليوسف-عليه السلام— لتُبَرِّئ ساحتها، فما كان منه إلا الرد على اتهامها بقوله:﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾. ولأن مقام الاتهام يقتضي سرعة الرد، ولخوفه -عليه السلام- من أن تلتصق به التهمة، جاء ردُّه مؤكدًا على أنها الفاعلة دون أي ذكر لحاله.

---

[1] ينظر : التحرير والتنوير: ١٢/ ٢٥٦.

[2] المرجع السابق : الصفحة نفسها. جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة: " ألفاه يسقي الزَّرعَ : وجده وصادفه". ٢٠٢٥/٣.

[3] التحرير والتنوير: ٢٥٦/١٢.

وقد جاء رده مفصولًا عن قولها السابق؛لأن كلًّا منهما بنى قوله على الاستئناف، ويكثر مثل هذا الفصل بين الجمل في مقام الحوار بين الشخصيات في القصص، حيث يحكي القصص القرآني أقوالهم في جمل مفصولة ؛ لأنها مَبْنِية على عدة تساؤلات يبرزها سياق الحوار، وأما الفصل بين جملة القول ومقولها فكما قال الجرجاني: " واعلم أن الذي تراه في التنزيل من لفظ (قال)مفصولًا غير معطوف، هذا هو التقدير فيه، والله أعلم. أعني مثل قوله تعالى:﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾[1] جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال ، فلما كان في العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم: (دخل قوم على فلان فقالوا كذا)، أخرج الكلام ذلك المخرج؛ لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه، وسلك باللفظ معهم المسلك الذي يسلكونه"[2]. ويُلحظ هنا استثمار الجرجاني للسياق الثقافي أو ما أسماه الشاطبي بـ(معهود العرب) ليخرج بهذه القاعدة التي تكثر تطبيقاتها في القصص والمحاورات .

ولقد كثر مثل هذا الفصل في قصة يوسف–عليه السلام– لتعدد الشخصيات؛ ولأن القصص إنما يحكي الأحداث الحاصلة بين تلك الشخصيات والتي تتضمن الكثير من الحوارات: (حوار امرأة العزيز مع زوجها ومع يوسف ومع النسوة) وغيرها من الشخصيات التي لا تتصل بموضوع البحث كإخوة يوسف وأبويه والفتيان في السجن .

ومثل هذه المحاورة ما جرى في المجلس الذي أعدته للنسوة اللاتي اغتبنها حيث قالت : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ ردًّا على قولهن: ﴿ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ . وبالنظر إلى هذه الآية تجد "أن الاتصال بين هذه الجمل كالاتصال بين الأسئلة وأجوبتها، فإن الجملة الأولى﴿ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ تثير تساؤلًا عن سبب تلك المراودة، وتأتي الإجابة:﴿ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، وتلك الإجابة تثير تساؤلًا آخر عن رأي النسوة في هذا الذي حدث لامرأة العزيز، وتغلغل حب يوسف–عليه السلام– في شغاف قلبها، وتأتي الإجابة في قوله:﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾"[3] فهذه الجملة جاءت مقررة لمضمون

---

[1] الذاريات: ٢٤ –٢٨.

[2] دلائل الإعجاز: ٢٤٠.

[3] من بلاغة النظم القرآني : ٢١٦.

الجملتين السابقتين، وقد جئن بها لتشنيع فعل المرأة ولومها وتنبيهها على الخطأ العظيم الذي وقعت فيه[1]، فقوة الاتصال الداخلي بين الجمل أغنى عن الوصل بـ (الواو) .

قال مُحَمَّد أبو موسى: "وهذه الجمل التي وقع عليها القطع من الجمل التي تستشرف النفس إلى مضموناتها بعد الكلام الأول، وكأنها حكم وتقويم ومواقعها في الكلام حسنة جدًا ... [مثل] قوله تعالى:﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[ف]الجملتان الأخيرتان مقطوعتان، والكلام كله من كلام النسوة . وليس هنا لبس أو عطف، والجملة الثانية استئناف يعلل المراودة، والجملة الثالثة استفهام لبيان الرأي في هذا الموقف"[2].

وحين يحتد الموقف في ختام قصة المراودة وتدخل الشخصيات في أسلوب حواري يظهر مثل هذا النوع من الفصل ليَبْرز من خلاله البراءة التامة ليوسف–عليه السلام– قال تعالى على لسان الملك:﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، فكل هذه الأقوال إنما كانت بسبب سؤال يوسف–عليه السلام– في قوله:﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾[3] .

وأما مقولة النسوة:﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾فجاءت "مبينة لإجمال النفي الذي في﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ ، وهي جامعة لنفي مراودتهن إياه ومراودته إياهن؛ لأن الحالتين من أحوال السوء"[4]. كما أن اعتراف امرأة العزيز بقولها:﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ ﴾ تفسير لقولها:﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾، فالفصل بين الجمل هنا جاء لكمال الاتصال بين الجملتين؛ إذ جاءت الثانية مفسِّرة ومبيِّنة للأولى، فلا حاجة لرابط يربطهما، والله أعلم.

وعطف جملة﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ على جملة﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ في مقام اعتراف المرأة بالحقيقة للتوسط بين الكمالين مع وجود الجامع بين الجملتين، حيث اتفقت الجملتان في الخبرية لفظًا ومعنًا، وكلا الجملتين لامرأة العزيز، والحديث عن يوسف–عليه السلام–،كما أن

[1] ينظر : تفسير أبي السعود : ١٣٦/٣.

[2] دلالات التركيب: ٣١٧.

[3] يوسف : ٥٠.

[4] التحرير والتنوير : ٢٩٠/١٢.

في وصفه بالصدق إشعار بأنه "وصفٌ عريقٌ فيه غير مرتبط بحادثة معينة، ولو حذفت الواو لأشعر ذلك بأنها راودته؛ لأنه من الصادقين، وهذا ضد المراد تمامًا"[1]، وهذا يدل على أنها أرادت الجمع ما بين حقيقتين مختلفتين حقيقة: براءته –عليه السلام– وحقيقة: صدقه، فاعترافها على نفسها في غيبته كانت كفيلة بتبرئة ساحته، ولكنها عمدت إلى استحضاره في هذا المقام؛ لتسترجع في ذاكرة الحاضرين قوله:﴿ هِيَ رَٰوَدتُّنِي ﴾، فمن لا يكذب في أشد المواقف حريٌ به أن يوسم بالصدق.

وبعد شهادة امرأة العزيز بالبراءة والصدق ليوسف–عليه السلام– تختم قولها ببيان أسباب هذا الاعتراف فقالت:﴿ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [2]، فالمتبادر إلى الذهن عند سماع اعترافها التساؤل عن سبب الاعتراف بهذا الأمر بعد طول تلك المدة، فيجيء ردها: بأن إقرارها ذلك إنما ليعلم يوسف–عليه السلام– أني لم أخنه، فكأن قولها هذا اعتذار عن ما بدر منها تجاهه، ولتثبت له عدم خيانتها له بالكذب عليه في غيبته، "والتعبير بالخيانة دون الكذب؛ لأن هذا هو اللائق برفع تلك التهمة التي عرفت عنها، فكل سوابقها تشير بذلك إليها، أو لتدفع ما كان يتوقع من مثلها في هذا الموقف من بُعْد يوسف في السجن، إذ المتوقع أن تكذب في غيبته عليه لتخلص نفسها وتلك خيانة؛ لذا عبرت بنفيها عن نفسها "[3].

وقال جماعة من أهل التأويل: إن قوله:﴿ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ هو من كلام يوسف –عليه السلام– ولكن اختلفوا في زمن القول، فمنهم من قال: إنه متصل بقوله لرسول العزيز:﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴾ وعليه فإن اسم الإشارة﴿ ذَٰلِكَ ﴾ تعود إلى أن بقاءه في السجن والتماسه البراءة إنما كان ليعلم سيده أنه لم يخنه في غيبته، ومنهم من قال: إن قوله هذا إنما كان حين اعترفت امرأة العزيز على نفسها، فتكون الإشارة عائدة إلى اعترافها، ومما يُضعف الأخذ بهذا الرأي اقتضاؤه لحضوره –عليه السلام– مع النسوة عند الملك، هذا مما لا يتماشى مع قول الملك بعد ذلك:﴿ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ ﴾ [4]. وعلى هذا فإن كان القول السابق من كلام يوسف–عليه

[1] جماليات النظم : ١٢٢.

[2] يوسف : ٥٢–٥٣.

[3] جماليات النظم : ١٢٥.

[4] ينظر: الكشاف : ٤٧٩/٢، ٤٨١ ، المحرر الوجيز : ٢٥٣/٣–٢٥٤.

السلام– فالمقصود بالخيانة خيانته لسيده، وإن كان من كلام المرأة فالمقصود بالخيانة خيانتها ليوسف–عليه السلام– باتهامه والكذب في غيبته وسياق الآية يشير إلى أن الكلام متصل باعتراف امرأة العزيز وعليه فإن الوصل في جملة﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾ جاء ليبرز حقيقة مقصودها من الاعتراف وهو عدم الخيانة مطلقًا؛ لعلمها أن الله لا يهدي كيد الخائنين، والله أعلم.

أما قولها:﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ فسؤالٌ عن ذلك الحكم، "كأنه قيل: هل النفس أمارة بالسوء؟ فقيل: إن النفس لأمارة بالسوء، وهذا الضرب يقتضي تأكيد الحكم" [1]من حيث تكراره للإسناد الواقع في السؤال مرة وفي الجواب مرة أخرى[2]، وقد يكون السؤال: لماذا لا تبرئين نفسك؟ فتكون الإجابة تعليلاً: (إن النفس لأمارة ...) إلخ، ودخول (إنَّ) على الجملة ربطها بما قبلها[3] فلم تكن هناك حاجة إلى العطف، فالجملة الثانية هي جواب للسؤال المضمن في جملة﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾؛ إذ عللت بها المرأة وقوعها في الخطأ؛ ليكون ذلك أدعى لمسامحتها والغفران لها، والله أعلم .

فالفصل هنا جاء لتأكيد عدم براءتها من الخطأ، قال السكاكي: "وتنزيل السؤال بالفحوى منزلة الواقع لا يصار إليه إلا لجهات لطيفة، إما لتنبيه السامع على موقعه، أو لإغنائه أن يسأل، أو لئلا يسمع منه شيء، أو لئلا ينقطع كلامك بكلامه، أو للقصد على تكثير المعنى بتقليل اللفظ، وهو تقدير السؤال وترك العاطف، أو غير ذلك مما ينخرط في هذا السلك"[4].

ولا يخفى على الناظر ما بين جمل شهادة الشاهد من مناسبة جلية دعت إلى الوصل بينها، قال تعالى:﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾فأبرز العطف فيها جزءًا مهمًا من الحقيقة، وذلك بوصل دليل البراءة بردّ المتهم للشبهة، فتقوَّى بذلك جانبه في القضية، والتي بدت جلية في اعتراف الفاعلة بالفعل وشهادتها لخصمها بالصدق حين وصلت اعترافها:﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾بقولها:﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

---

[1] الإيضاح : ٣/١٢١-١٢٢.

[2] ينظر: جماليات النظم : ١٣٠.

[3] ينظر: دلائل الإعجاز : ٣١٦.

[4] مفتاح العلوم :٢٥٢.

كما جاء العطف مبينًا لميزان العدل في الشهادة حيث وَصَلَ الشاهد ما بين المتضادين (الصدق-الكذب) في الجملة الواحدة، ثم قابل بين جملتيْ الخبر﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ و﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾؛ ليوازن بينهما في الأسلوب حتى لا ينْحَاز إلى أحد الطرفين دون الآخر.

أما في مشهد كيد النسوة فقد جاء العطف للجمل في قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾، لاشتراكها في وصف حال أولئك النسوة، فوصلت الجمل﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ و﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ ﴾ و﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ و﴿ وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾؛ لاتفاقها في كونها خبرًا، فالمسند إليه فيها الضمير المستتر العائد على امرأة العزيز، والمفعول به يعود على النسوة، فكل الجمل اشتركت في وصف حالهن، فهن متكئات ممسكات بالسكاكين في أيديهن، وأما قولها:﴿ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ فهو مقصودُها من إعداد المتكأ، إذ أرادت المكر بالنسوة فأعدَّت ما أعدَّت، وأدخلت عليهن يوسف عليه السلام .

ثم استكمل التعبير وصف حال النسوة بعد رؤيتهن ليوسف-عليه السلام- بقوله: ﴿أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾؛ ففصلت جملة جواب الشرط﴿ أَكْبَرْنَهُۥ ﴾ عما قبلها؛ لأنها جاءت مبيّنة لما ترتب على رؤيتهن ليوسف-عليه السلام-، وعُطِفَت عليها جملتا﴿ وَقَطَّعْنَ ﴾ و ﴿ وَقُلْنَ ﴾لاشتراكهما في وصف المشهد. وهذه الدقة في الوصف توضح بجلاء بلاغة النظم القرآني في تصوير شخصية المرأة وخفايا مشاعرها، ومحاولاتها المستميتة لتسويغ فعلها وتحسين موقفها أمام مجتمعها الذي يقبع تحت ستار من المظاهر الزائفة، ولا يقيم للفضيلة والأخلاق وزنًا.

وأما قولهن في مقام تعظيم يوسف —عليه السلام-:﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فلشدة جماله-عليه السلام- أخرجنه من جنس البشر إلى كونه من جنس الملائكة ، فاحتمل كلامهن التبيين والتأكيد[1]؛ إذ إن إخراجه من جنس البشر اقتضى دخوله في جنس الملائكة،

[1] ويرى عبد القاهر أن الفصل في هذه الآية تضمَّن ثلاثة أوجه : وجهان هو فيهما شبيه بالتأكيد ، ووجه شبيه بالصفة ، أما أوجه كونه شبيهًا بالتأكيد فالأول : في إثبات كونه ملكًا وتأكيدًا لنفي أن يكون بشرًا ، والثاني : أن الجاري في العرف إذا قيل:﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ – في حال التعظيم والتعجب مما يُشاهد- أن يكون الغرض من الكلام أن يقال:(إنه ملك) فيفهم من اللفظ قبل أن يُذكر، فيكون ذكره تأكيدًا لا محالة، وأما وجه كونه شبيهًا بالصفة فهو أن إخراجه من جنس البشر

كما أن في إثبات كونه ملكًا تأكيدًا على نفي البشرية عنه، فالجملة الثانية بيَّنت مضمون الأولى وأكدته فجاء الفصل بينهما؛ لأنه لا حاجة للوصل بين المؤَكِّد والمؤَكَّد، وبين الصفة والموصوف،كما قال عبد القاهر: "واعلم أنه كما كان من الأسماء ما يصله معناه بالاسم قبله، فيستغني بصلة له عن واصل يصله ورابط يربطه وذلك كالصفة التي لا تحتاج في اتصالها بالموصوف إلى شيء يصلها به، وكالتأكيد الذي لا يفتقر كذلك إلى ما يصله بالمؤكد كذلك يكون في الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتي قبلها، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها "[1].

ولما تحقق لامرأة العزيز ما أرادت قالت:﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ ،أي: إن كان هذا كما زعمتن ملكًا فلماذا لمتنني في محبته؟ فوَصَلَت الجمل في قولها؛ لتؤكد على أنها من فعلها، فهي من راودته وهددته.

وعطف كون يوسف— عليه السلام – من الصاغرين على السجن في تهديدها ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ يحكي نبرة الفوقية في خطابها، فلم تكتف بالسجن بل جعلته سبيلًا لإخضاعه —عليه السلام– وإذلاله، فهي تعلم أنه لا آلم على الأحرار الكرماء من الذل والصغار، فهددته بالصغار لما له من تأثير عظيم في حق من كان رفيع النفس عظيم الخطر مثل يوسف –عليه السلام–[2]، فجعلته من ضمن زمرة قوم تلك سمتهم فقالت: ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾. وجمعت له في تهديدها السجن والصغار بعد أن اعترفت بمراودته أمام النسوة؛ ليكون ذلك أدعى للرضوخ لها، قال أبو السعود: "ولقد أتت بهذا الوعيد المنطوي على فنون التأكيد بمحضر منهن؛ ليعلم يوسف–عليه السلام– أنها ليست في أمرها على خفية، ولا

=يقتضي دخوله في جنس آخر، فكان إثبات كونه ملكًا على سبيل التبيين والتعيين. ينظر: دلائل الإعجاز: ٢٢٩-٢٣٠، وقال القزويني: "وأما قوله:﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ فيحتمل التبيين والتأكيد؛ أما التبيين فلأنه يمتنع أن يخرج من جنس البشر ولا يدخل في جنس آخر، فإثبات الملكية له تبيين لذلك الجنس وتعيين، وأما التأكيد؛فلأنه إذا كان ملكًا لم يكن بشرًا؛ ولأنه إذا قيل في العرف لإنسان (ما هذا بشر) حالَ تعظيمٍ له وتعجب مما يشاهَد منه من حُسن خُلق أو خَلق كان الغرض أنه مَلَكٌ بطريق الكناية" . الإيضاح : ١١٤.٣/

[1] المرجع السابق: ٢٢٧.

[2] ينظر : مفاتيح الغيب : ٤٥١/١٨

خيفة من أحد فتضيق عليه الحيل وتعيا به العلل، وينصحن له ويرشدنه إلى موافقتها"[1]، وعلى الرغم من كل هذا التهديد لم يزد ذلك يوسف إلا استعصامًا فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾[2].

الفصل والوصل في قصة ملكة سبأ:

لقد حكى الهدهد قصة ملكة لم يصل خبرها لسليمان– عليه السلام– بقوله:﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴾ فجمع لها الملك المعنوي والحسي،فلقد جاء الوصل بين الجمل الثلاث للتوسط بين الكمالين مع وجود الجامع، حيث اتفقت الجمل الثلاث في الخبرية لفظًا ومعنى، ووجدت مناسبة بينها حيث تكاملتفي بيان عظمة هذه الملكة، وعظم عطاء الله لها. فهي تملك قلوب قومها فيطيعونها فيما تأمرهم به، وتملك من الكنوز ما لم يستطع التعبير عنه إلا بقوله:﴿ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾، ثم عطف على هذا الملك العظيم ذلك العرش الذي أدهشه؛ ليشير إلى اجتماع كل تلك الأمور واكتمالها لدى تلك المرأة.

ثم استأنف خبره بعد ذلك فقال:﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾ وقد كرر الفعل (وجدت) هاهنا؛ لأن الوجدان الأول يختلف عن الثاني، فالأول: بالبصر، والثاني: استدل فيه بما رآه بالبصر على ما فهمه بالبصيرة، فهما أمران مختلفان، لذا فصل بينهما، والفصل ها هنا للبيان والتفسير، وتبدو بلاغة النظم الكريم في دقة الوصف والتصوير لحدث تاريخي مضى في غابر الأزمان، فالآية الأولى وصفت البيئة والمجتمع الملكي الذي كانت تعيش فيه الملكة متمتعة بالعز والسلطان، في حين بيَّنت الآية الثانية معتقد القوم وعبادتهم، مما يُلقي ضوءًا كاشفًا على المجتمع آنذاك من زاويتين متباينتين: الثراء المادي، والخواء الروحي، فكان الفصل أسلوبًا ملائمًا للتعبير عن ذلك، فالصورة واحدة وإن تعددت مجالات الرؤية لها؛ إذ لا مناسبة للجمع وإن كانا يشتركان في الحكاية عن نفس المرأة، ثم عطف قومها عليها؛ ليشير إلى أنهم على دينها، فهم يشتركون معها في عبادتها، فسجودهم للشمس كان من تزيين الشيطان، وقد أفاد العطف بالفاء الخطوات السريعة المتلاحقة: تزيينٌ، فصدٌّ،فعدم اهتداء، كل هذا من فعل الشيطان الذي يَجُرُّ أتباعه إلى الغواية

[1] تفسير أبي السعود : ١٤٠/٣

[2] يوسف : ٣٣

خطوة خطوة، وكان للفاء–ولعلها تفيد التفريع ها هنا– أثر في بيان هذا المعنى، والمتأمل في هذه الآية يظهر له جماليات النظم القرآني في ابتدائه بذكر السجود مع أنه الخطوة الأخيرة؛ لأنها الخطيئة الكبرى والهدف الأعظم الذي يسعى إليه الشيطان بعد سعي حثيث لإغواء العباد، وفي هذا تنبيه وتحذير لهم من مكائد الشيطان بذكر نتيجة الانسياق وراء تلك المغريات .

وفي قوله تعالى:﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾[1]، تجد أن جملة﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ ﴾ وقعت صفة للفظ الجلالة (الله)؛ لذا أُسقط الرابط بينهما، فمن المعلوم أن "الصفة هي عين الموصوف، والواو لا تقع بين الشيء ونفسه، وإنما تقع بين متغايرين ومتناسبين"[2]، فوقوع الصفة بالموصول (الذي) مناسب لحالة خبر الهدهد؛ لأن فيه إطلاعًا على أمر خفي، والواو بين قول الهدهد﴿ يُخْرِجُ الْخَبْءَ ﴾ ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾آذنت بكمال صفة القدرة وعموم صفة العلم[3]، إذ عطف ما بين (تخفون وتعلنون) ليوسع دائرة العلم.

فالهدهد حين تعجب من سجود ملكة سبأ وقومها للشمس، كان تعجبه من عدم سجودهم لله تعالى أشد؛ لأنه رأى أن الذي من شأنه إبراز الخبايا وإعطاؤها هو أحق بالعبادة مما لا ينفع ولا يضر؛ لذا استأنف بقوله:﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾[4]فكان "بمنزلة النتيجة للصفات التي أجريت على اسم الجلالة وهو المقصود من هذا التذييل، أي: ليس لغير الله شبهة إلهية "[5]، وفي هذا إشارة إلى أنه المستحق للسجود المذكور سابقًا.

أما قوله:﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ ففيه تعريض بأن عظمة ملك ملكة سبأ وعظم عرشها ما كان حقيقًا بأن يغريها بالإعراض عن عبادته سبحانه، فجاء التعريف في (العرش) للدلالة على معنى الكمال، ثم وصف (العرش)بـ (العظيم)؛ ليؤذن بكمال العظم فيه [6]، فعرشها الموسوم بالعظمة لا يساوي شيئًا في مقام عرش مالك الملك .

---

[1] النمل : ٢٥.

[2] دلالات التركيب: ٢٩١.

[3] ينظر: التحرير والتنوير: ٢٥٥/١٩.

[4] النمل : ٢٦.

[5] التحرير والتنوير : ٢٥٥/١٩-٢٥٦.

[6] ينظر: المرجع السابق: ٢٥٦/١٩.

وكما يرى عبد القاهر من أن الفصل بين الجمل يخضع لقوانين الفصل بين المفردات في قوله : "واعلم أنه كما كان من الأسماء ما يَصِلُه معناه بالاسم قبلَه، فيستغني بصلة معناه له عن وَاصِل يَصِله ورابطٍ يربطه وذلك كالصفة التي لا تحتاج في اتصالها بالموصوف إلى شيء يصلها به، وكالتأكيد الذي لا يفتقر كذلك إلى ما يصله بالمؤَكَّد، كذلك يكون في الجُمل ما تتَّصل من ذات نفسها بالتي قبلها، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يَربطها، وهي كل جملة كانت مُؤَكِّدة للتي قبلها ومبيِّنة لها، وكانت إذا حُصِّلتَ لم تكن شيئًا سواها، كما لا تكون الصفة غير الموصوف، والتأكيد غير المؤكد. فإذا قلت: جاءني زيد الظريف)و(جاءني القوم كلهم)، لم يكن (الظريف)و(كلهم) غير زيد وغير القوم" [1]، فقد جاء الفصل بين قوله تعالى: ﴿ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا ﴾وقوله:﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾؛ ليشعر السامع بذاك الاتصال الداخلي الذي أغنى عن الربط؛ فهو استئناف مُبيّن لكيفية النظر الذي وعده به سليمان–عليه السلام–[2]، فذهاب الهدهد بالكتاب للملكة ورجوعه بخبرها هو ما سينكشف به صدقه من كذبه، ففي الفصل تصوير للمشهد وإحضار له في ذهن السامع، وكأن سليمان– عليه السلام– تلبث يسيرًا بعد عبارته الأولى:﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ ثم استأنف:﴿ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا ﴾ وهنا فجوة يملؤها الخيال، فقد أمر سليمان كاتبه بالكتابة، وبعد فراغه أعطى الكتاب للهدهد وقال له: (اذهب ...)، هذه بلاغة القرآن العالية التي لا تخوض في التفاصيل وترتكز على الأهداف والقيم الكبرى في بناء القصة.

وكذا جاء الوصل بين الأفعال خاضعًا لقوانين وصل الأسماء في أمر سليمان–عليه السلام – للهدهد حين قال:﴿ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴾ بروابطه المختلفة؛ ليشير إلى الاعتبارات المعنوية الواضحة من استخدام كل حرف، فالفاء للتعقيب والترتيب من غير تراخ، و(ثم) للترتيب بتراخ[3]، وبما أن الكتاب المرسل لا بد من إيصاله بأقصى سرعة ظهرت فائدة الربط بالفاء في (ألقه) ولما كانت المدة الزمنية متباعدة ما بين الإلقاء والتنحي جانبًا للتواري عن الأنظار، كان لاستخدام (ثم) أثر بارز في منح الهدهد ذلك الوقت،

[1] دلائل الإعجاز: ٢٢٧.

[2] تفسير أبي السعود: ٢٥٧/٤.

[3] ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ٣٢٣/٣ ، ٣٢٦.

ثم نبهه بعد ذلك باستخدام الفاء مع الفعل (انظر) إلى ضرورة الإسراع بالجواب، ومن هنا يظهر للمتأمل جماليات التعبير القرآني بحروف العطف.

وكما ظهر الفصل لشبه كمال الاتصال (الاستئناف البياني) في قصة المراودة فقد برز جليًا في قصة ملكة سبأ، وذلك في المحاورات الجارية بين شخصياتها كما في المحاورة الحاصلة بين بلقيس وقومها، قال تعالى:﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ فجملة (قالت) مستأنفة عن خبر إلقاء الهدهد لرسالة سليمان عليه السلام؛ وذلك "لأن غرابة قصة إلقاء الهدهد للكتاب يثير تساؤلًا عن شأن بلقيس حين وصلها الكتاب"[1]، فمن أرسله؟ وما مضمونه ؟ وكيف ستكون ردة فعلها تجاه هذا الأمر؟ وماذا سيكون رأي قومها الذين لا تنفك عن استشارتهم في أمورها؟ وماذا ستفعل في نهاية الأمر؟ وغيرها من التساؤلات التي تكفل الحوار بالإجابة عليها.

ولقد جاء قولها:﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ ﴾ مفصولًا عما قبله ومعطوفًا عليه ما بعده، وذلك لأسرار بلاغية يقتضيها سياق الكلام، فقولها:﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، توضيح منها لهوية المرسل ومضمونه لمن قد يسألها عن ذلك الكتاب في قولها:﴿ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ ﴾، وللاختلاف ما بين المعطوف والمعطوف عليه كرر العامل (إن) للإشارة إلى ذلك الاختلاف، فالمراد بالمعطوف عليه ذات الكتاب، والمراد بالمعطوف معناه وما اشتمل عليه، وهذا من خصوصيات إعادة العامل بعد حرف العطف مع إغناء حرف العطف عن ذكر العامل[2]، وفي التكرار لفت لانتباه المخاطبين إلى أهمية المذكور بعد ذلك وهو قوله:﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾، فقولها هذا جاء مفسِّرًا لما قبله وموضحًا لمضمون تلك الرسالة المفتتحة بالبسملة، وللارتباط القوي فيما بينهما لم يكن هناك حاجة لرابط يربطهما، فالبسملة جاءت كالتمهيد لمضمون الكتاب المتسم بنبرة القوة والشدة في الخطاب والمتمثلة في البدء بالنهي ثم

[1] التحرير والتنوير : ٢٥٨/١٩

[2] ينظر : المرجع السابق: ١٩/ ٢٥٩

العطف عليه بالأمر؛ ليكون ذلك أدعى لاستجابتها، ولما أراد منها فعل كلا الأمرين جاء بالعطف.

أما قولها:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾فقد جاء الفصل فيه لكمال الاتصال بينهما؛ لأن جملة﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾، مؤكدة لسابقتها، فضلًا عن كونها موضحة ومبينة ومفسرة لمضمونها؛ لذلك وجب الفصل لما بينها من ربط داخلي أغنى عن الرابط.

ثم حكت الأقوال بعد ذلك مجريات الأحداث لتجيب عن كل تساؤل قد يخطر ببال السامع ،ومن الملفت للنظر فيها بلاغة العطف بين الجمل لوجود مناسبة، ولإرادة التشريك في الحكم، ويظهر ذلك في قول الملأ:﴿ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ فأومؤوا بذلك إلى اجتماع واكتمال تلك الصفات فيهم؛ مما يجعلهم على أتم استعداد للحرب، حيث أظهر قولهم لها قوتين: قوة أبدانهم وعدتهم وعتادهم ، وقوة روحهم المتمثلة في شجاعتهم ونجدتهم وشدة بلائهم في الحرب، فعطف (البأس الشديد) على (القوة) يتناسب مع مرادهم من كونهم أبناء حرب لا أبناء رأي ومشورة[1]، وفي هذا تطمين لها، فهم تحت قيادتها لا يحيدون عنها مهما أمرت، وسبب إظهارهم لمثل هذه القوة في هذا المقام ليكون هذا أدعى للأخذ بمشورتهم، وعلى الرغم من ذلك أوكلوا الأمر إليها بقولهم:﴿ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ فما كان منها إلا أن قدمت منطق العقل والسياسة على منطق الحرب والقوة، وأيدت موقفها بالمعرفة والخبرة فقالت:﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾؛ فدلَّت باستعمال أداة الربط الواو على أن دخول الملوك هنا كان عنوة وقهرًا، فهم ملوك ظالمون، ولظلمهم لم يخلُ دخولهم من الأمرين السابقين معًا، قال عبد القاهر: "متى عطف على جواب الشرط شيء (بالواو) كان ذلك على ضربين: أحدهما: أن يكونا شيئين يُتَصوَّر وجود كل واحد منهما دون الآخر، ومثاله قولك: (إن تأتني أكرمك وأعطك وأكسك)، والثاني: أن يكون المعطوف شيئًا لا يكون حتى يكون المعطوف عليه، ويكون الشرط لذلك سببًا فيه بوساطة كونه سببًا للأول، ومثاله قولك: (إذا رجع الأمير إلى الدار استأذنته وخرجت)، فالخروج لا يكون حتى يكون الاستئذان، وقد صار (الرجوع)

[1] ينظر: تفسير أبي السعود : ٢٥٩/٤.

سببًا في الخروج ، من أجل كونه سببًا في الاستئذان ، فيكون المعنى في مثل هذا على كلامين ، نحو: (إذا رجع الأمير استأذنت، وإذا استأذنت خرجت) "[1].

وعلى هذا يظهر لي أن العطف في الآية من الضرب الثاني، فالإذلال لا يكون حتى يكون الإفساد، فصار الدخول سببًا في الإذلال، من أجل كونه سببًا في الإفساد، فيكون المعنى أنهم أفسدوا المكان بتخريبه وسبي مغانمه، وإذا فعلوا ذلك أقصوا أصحاب السلطة فيه بإذلالهم حتى لا تكون لهم كلمة على قومهم، فيُحْكِمون بذلك سيطرتهم على كل المملكة، ففي الربط بين جملتي جواب الشرط إشارة إلى أن السيطرة تكون على المملكة والمِلك، فهم بذلك لا يريدون أن يكون لأصحاب المكان مُلْك فيه ولا في غيره، والله أعلم .

وأما قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ففيه قولان[2]: الأول: أنه من كلام ملكة سبأ، فالواو فيه للاستئناف[3]؛ لأنه "تأكيد لما وصفت من حالهم بطريق الاعتراض التذييلي وتقرير له"[4] بأن ذلك عادتهم المستمرة الثابتة التي لا تتغير، ولأنها كانت في بيت الملك القديم، فقد سمعت نحو ذلك ورأت[5]، والقول الثاني: أنه تصديق لها من جهة الله تعالى وهو الراجح عندي لقول ابن عباس به. والأخذ بهذا القول يوضّح أمرين :

الأول: أنه إشارة إلى إحدى السنن المطردة في تاريخ الأمم والدول، من سيطرة الغالب على المغلوب وقهره وإذلاله، والتاريخ يُصدق هذا الواقع إلا فيما ندر، وفي الإشارة القرآنية هذه إلماحة إلى السياق التاريخي الذي تكثر الإشارات القرآنية إليه في مواطن العظة والاعتبار بوجه خاص.

الثاني: أنه من خصائص النظم الكريم في مقام القصص والأخبار، حيث تتمازج العبارات، وتتساوق الكلمات ، فيصبح الكلام نسيجًا واحدًا، فلا يدرى أهذا من قول القائل أم من كلام رب العزّة والجلال، كقوله تعالى مثلًا في سياق قصة مريم:﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن

---

[1] دلائل الإعجاز : ٢٣٣-٢٣٤.

[2] أشرت إليها سابقًا ينظر البحث نفسه : ١٣١.

[3] ينظر: الإعراب المفصل : ٢٩٧/٨.

[4] تفسير أبي السعود: ٢٥٩/٤.

[5] ينظر : الكشاف: ٣٦٥/٣.

يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[1]، فيتداخل قول عيسى-عليه السلام- مع تعقيب الله تعالى على القصة، وغيره كثير،وأحسب أن هذا موضع جدير بالبحث والدراسة.

ثم انظر إلى جماليات العطف بالفاء في قول الملكة:﴿ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ حيث أضفى لمعنى ترقبها معنى تشوُّقها لمعرفة الجواب، وفيه استحثاث منها للمرسلين بالإسراع في العودة؛ لأن جواب سليمان—عليه السلام- سيكشف لها الطريقة التي ستتعامل بها معه، فإن قَبِل الهدية فقد أنجزت ما أرادت، وإن ردَّها فيجب عليها اتباعه ؛لأنه نبي مرسل.

ثم يطوي النظم القرآني قصة ارتحال ملكة سبأ ليصل إلى مشهد وصولها إلى مملكة سليمان، قال تعالى:﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2]. فحكت أقوالهما خاتمة القصة بأسلوب حواري يقتضي الفصل بين الجمل؛ لأن تلك الأقوال ما هي إلا إجابات عن تساؤلات موجودة أوقد تخطر في ذهن السامع. فقولها:﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ جاء جوابًا لسؤال مطروح عليها في الآية ﴿ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾فجاءت إجابتها مطابقة لحالها حتى قيل: طابقت المفصل[3]؛ لأن قول:﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ "عِبارة من قَرُب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغاير بين الأمرين، فكاد يقول: هو هو، وتلك حال بلقيس. وأما هكذا هو، فعبارة جازم بتغاير الأمرين، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير، فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة في التلاوة لمطابقتها لحالها والله أعلم"[4].

أما قوله تعالى:﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ فقد اختلف في المعطوف عليه، قال الزمخشري: "﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ من كلام سليمان وملئه، فإن قلت: علام عطف هذا الكلام؟ وبم اتصل؟ قلت: لما كان المقام- الذي سئلت فيه عن عرشها وأجابت بما أجابت به-مقامًا أجرى فيه سليمان وملؤه ما يناسب قولهم:﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ نحو أن يقولوا عند قولها:﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ قد

---

[1] مريم : ٣٣-٣٦.

[2] النمل: ٤٢-٤٤.

[3] ينظر: الكشاف : ٣٦٩/٣.

[4] حاشية ابن المنير (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف): ٣٦٩/٣.

أصابت في جوابها وطبقت المفصل، وهي عاقلة لبيبة، وقد رزقت الإسلام، وعلمت قدرة الله وصحة النبوّة بالآيات التي تقدّمت عند وفدة المنذر، وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها- عطفوا على ذلك قولهم: وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته، وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها، ولم نزل على دين الإسلام شكرا لله على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله والإسلام قبلها، وَصَدَّها عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشوؤها بين ظهراني الكفرة"[1]، وعلى هذا يجوز في قوله تعالى:﴿ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴾ أن يكون عطفًا على قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾[2] أي: هذا من قول سليمان، أو على قوله:﴿ نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ ﴾[3]، أو على قوله:﴿ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِ﴾ كما يرى ابن عاشور[4].

أما قول الزمخشري بأن قوله تعالى:﴿ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴾ من كلام بلقيس [5]، فقد يستقيم من حيث أن علمها بقدرة الله وصحة نبوة سليمان –عليه السلام– قبل مجيئها أبرز فطنتها، وانتظارها لرؤية كل الأدلة والمعجزات على نبوته –عليه السلام- يُظهر حكمتها وتعقلها وتريثها في اتخاذ القرارات، وهذا ما يجب على القائد المحنك أن يفعله قبل إصداره لأي حكم، فما بالك لو كان هذا الحكم يمس عقيدة قد تربى عليها، وترسخ في ذهنه صحته؛ لذا كان من الحكمة أن تبحث ملكة سبأ في حيثيات الأمر حتى تصل إلى الصواب، وهذا ما حصل لها في نهاية الأمر حين قالت:﴿ وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ ﴾.

وعلى هذا فإنَّ قولها:﴿ وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴾ فيه إشارة إلى سلامة فطرتها، ففيه اعتراف منها بالقلب بصحة دين سليمان –عليه السلام– وسلامته، أما اعترافها باللسان فقد برز في نهاية القصة.

---

[1] الكشاف : ٣٦٩/٣.

[2] النمل : ٤٠.

[3] النمل : ٤١.

[4] ينظر : التحرير والتنوير : ٢٧٣/١٩-٢٧٤.

[5] رأى الزمخشري جواز القول بهذا، فيكون الكلام معطوفًا على قولها:﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ وعليه يكون المعنى: وأوتينا العلم بالله وبقدرته وبصحة نبوّة سليمان –عليه السلام- قبل وفادة المنذر وقبل معجزة وصول عرشها قبلها. ينظر: الكشاف: ٣٩٦/٣-٣٧٠.

واستعمال (نا)الدالة على الفاعلين هنا تعظيم منها لذاتها، إذ إن العدول عن الخطأ لا ينقص من مكانة المرء بل يزيده رفعة وسموًا ، والمقام هنا مقام افتخار منها لدخولها في زمرة المسلمين، والله أعلم .

والقول بهذا الرأي –أنه من كلام بلقيس– يوقع القارئ في إشكالية تفسير قوله:﴿ مِن قَبۡلِهَا ﴾ فلا يستقيم مع سياق الآية الأخذ بهذا القول والله أعلم، على خلاف القول بأنه من كلام سليمان –عليه السلام– ، قال ابن عطية: "وفي الكلام حذف تقديره:﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ ، وقال سليمان عند ذلك:﴿ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا ﴾، وهذا منه على جهة تعديد نعم الله، وإنما قال ذلك لما علمت هي وفهمت"[1]. فسياق الآيات يشير إلى تعداد سليمان –عليه السلام– لنعم الله تعالى[2]، قال جلَّ وعلا على لسان سليمان:﴿ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾.

ولقد نبه القرآن بهذه الآية على لسان سليمان –عليه السلام– إلى حالة الدين والعقيدة التي عدَّها علماء الاجتماع من أسباب نهوض المجتمعات وانحلالها، فقد كانت عبادة ملكة سبأ للشمس مما صدَّها عن حصول العلم النافع، إذ أنها بذلك الاعتقاد الباطل كانت منصرفة عن الرشد الفكري، واستكمال الحضارة؛ لأن أعمال الناس تتكيَّف بحسب ما يصدر عن معتقداتهم من أفكار وسلوك[3].

ثم جاء السرد القرآني ليحكي خاتمة هذه القصة، والتي تمثلت في الدليل القاطع على أن ما أُعطي لسليمان –عليه السلام– أمر يفوق كل طاقات البشر، فجاءت جملة:﴿ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي

---

[1] المحرر الوجيز : ٤/٢٦١-٢٦٢.

[2] قال الألوسي: "قوله تعالى:﴿ وَأُوتِينَا ﴾ إلخ من كلام قوم سليمان –عليه السلام– كأنهم لما سمعوها أجابت السؤال بقولها:﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ قالوا: قد أصابت في جوابها فطبقت المفصل، وهي عاقلة لبيبة وقد رزقت الإسلام وعلمت قدرة الله عز وجل وصحة النبوة بالآيات التي تقدمت وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها وعطفوا على ذلك قولهم: وأوتينا العلم بالله تعالى وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده سبحانه قبل علمها ولم نزل على دين الإسلام، وكان هذا منهم شكرا لله تعالى على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله تعالى والإسلام قبلها، ويومئ إلى هذا المطوي جعل علمهم وإسلامهم قبلها، وقوله تعالى:﴿ وَصَدَّهَا ﴾ إلخ على هذا يحتمل أن يكون من تتمة كلام القوم، ويحتمل أن يكون ابتداء أخبار من جهته عز وجل". روح المعاني:١٠/٢٠٢ ، وقال أبو السعود في تفسير قوله تعالى:﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴾: "بيان من جهته تعالى لِمَا كان يمنعها من إظهار ما ادعته من الإسلام إلى الآن ...وقوله:﴿ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴾ تعليل لسببية عبادتها المذكورة". ٤/٢٦٥ ، فاتصال الجمل الداخلي أغنى عن الربط الخارجي.

[3] ينظر: سيكولوجية القصة في القرآن: التهامي نقرة: ٢٠.

ٱلصَّرۡحَ﴾ استئنافًا لمشهد من مشاهد القصة والذي يتمحور حول أحداث اللقاء الجاري بين ملكة سبأ وسليمان – عليه السلام– والذي انتهى باستسلامها .

والمتأمل لهذا المشهد يلحظ ما لأداة الربط الواو من أثر بارز في السرد القصصي، حيث إن الجمل﴿ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ ﴾ و﴿ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَا﴾ أوجبتا لملكة سبأ الفعلين معًا، فجاء العطف بينهما لاتفاقهما في الخبر، وأما الوصل بين جملة ﴿ ظَلَمۡتُ نَفۡسِي ﴾وجملة﴿ وَأَسۡلَمۡتُ ﴾ فقد جاء للإشراك في الحكم الإعرابي؛ فملكة سبأ حين أرادت التحلي بالإيمان الصادق كان لا بد لها أولًا من التخلي عن عبادتها للشمس التي ظهر زيفها في نهاية الأمر.

الفصل والوصل في قصة امرأة فرعون:

على الرغم من قلة الآيات التي تحدثت عن هذه المرأة فإنها كشفت لنا عن روعة التعبير القرآني، إذ جاء الفصل في قولها: ﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ بين جملة﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ ﴾ وجملة﴿ لَا تَقۡتُلُوهُ ﴾ لكمال الانقطاع بين الجملتين لاختلافهما خبرًا وإنشاءً لفظًا ومعنى، فالأولى تقدير الكلام فيها (هو قرة عين لي ولك)، والثانية نهي عن القتل . أما جملة﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾ فهي في موقع العلة لمضمون جملة﴿ لَا تَقۡتُلُوهُ ﴾[1] فالفصل فيها جاء لشبه كمال الإتصال، فكأن قائلًا قال : لماذا طلبت عدم قتل موسى عليه السلام ؟ فجاء قولها ليحدد الأسباب التي ارتأت من أجلها عدم قتله .

أما في قولها:﴿ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فقد جاء الوصل بين الجمل الثلاثة :﴿ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ ﴾،﴿ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ ﴾،﴿ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للتوسط بين الكمالين مع وجود الجامع حيث اتفقت الجمل في كونها انشائية لفظًا ومعنى، مع اختلاف من حيث إن قولها:﴿ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ ﴾ طلب أخروي، وقولها:﴿ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ طلب دنيوي.

والوصل ما بين جملتي طلب النجاة اقتضى المغايرة، فالنجاة الأولى تختلف عن الثانية من حيث شدتها وقوة وقعها ؛لأن تسلط صاحب المُلْكِ أقوى وأشد من تسلط من تحت إمرته؛ لذا

[1] ينظر : التحرير والتنوير : ٧٩/٢٠.

جاءت الواو مؤذنة بهذا التغاير في المعنى وجامعة له، إذ إن امرأة فرعون خشيت من تسلط فرعون أو حاشيته عليها، فجمعت بينهما في دعائها، والله أعلم.

ومما سبق يمكن القول: إن تباين أسباب الفصل والوصل ما بين الجمل في قصص نساء القصور الملكية جاء بما يتوافق مع سياق كل قصة ، فقد كثر الفصل لكمال الاتصال وشبهه في قصة المراودة بشكل ملحوظ؛ وذلك لأن سياق القصة بما فيها من مخادعة واتهام ورد وحوار اقتضى التبيين والتوضيح في مواطن، والتعليل والتأكيد في أخرى، والإجابة عن تساؤلات قد تخطر في ذهن المتلقي في مواطن أخرى، لذا جاء الفصل في كل موطن بما يتناسب مع سياق الحديث، قال مُحَمَّد أبو موسى: "وإذا كانت المعاني في صور كمال الاتصال تتحد في جانب كبير منها، سواء أكان هذا عن طريق الاتحاد في جزء من مضمون المعنى، أم كان عن طريق المقتضيات التي ترتبط بوجوه المعاني، وطرائق الدلالة، أعني دلالة المفهوم وما هو منها بسبيل فإن المعاني في شبه كمال الاتصال تتواصل عن طريق أن الأولى تتولد منها الثانية"[1]، ولهذا وَجَدَ أنه حال من أحوال الوصل لا من أحوال الفصل كما ذهب البلاغيون، وعلل ذلك بأن الوصل في الحقيقة وصلان: وصل ظاهر بحرف الوصل، ووصل خفي تتصل فيه الجمل من ذاتها، وهو أقوى الوصلين، كما رأى أن الجدير بالفصل هو كمال الانقطاع الذي أصله فقدان الجامع أو تباين الكلام في الغرض[2].

كذا الوصل بين الجمل إنما يجيء لينبئ باختلاف المضامين مع اجتماعها، ويُلحظ مثل هذا الأمر جليًا في مواطن سرد أفعال امرأة العزيز أثناء المراودة، ووصف حال النسوة وهن في مأدبة امرأة العزيز.

وظهر أثر الوصل والفصل في إحياء المشاهد بكل تفاصيلها وإضفاء الحيوية على الأحداث والشخوص وإحضارها إلى ذهن القارئ أو السامع، وهذا ما نجده أيضًا في قصة ملكة سبأ، فلتضمنها الكثير من الحوارات والمناقشات فقد توالدت الجمل فيها بسبب ما تثيره في النفس من خواطر وتساؤلات؛ لذا كان لشبه كمال الاتصال النصيب الأوفر في الفصل بين

---

[1] دلالات التركيب : ٣٠٥.

[2] ينظر : المرجع السابق : الصفحة نفسها .

جمله، وهو ما أسماه البلاغيون بالاستئناف البياني فهو استئناف للجواب وليس ابتداء لكلام منقطع عن سابقه، وهذا مما يتناسب مع سياق القصة القائم على المحاورة بين شخصياته .

وكما اقتضى الحوار الفصل بين الجمل فقد اقتضى التشريك والجمع بين الجمل في بعض المواطن الوصل، كما في عطف جمل خبر الهدهد بعضها على بعض مثلًا، وكذا في ربط جمل الطلب في أمر سليمان–عليه السلام–له، حيث تنوعت أدوات الربط لتومئ إلى المعاني المختلفة التي تستدعيها تلك الحروف.

وبالنظر لقصة امرأة فرعون نجد أن الوصل بين جمل الطلب جاء لاتفاقها في كونها إنشائية، فقدمت طلب الآخرة وما عند الله على طلب الدنيا بالنجاة من التعذيب، وتظهر قيمة الوصل في طلبها للنجاة من أصل الظلم (فرعون) ثم من (قومه) في إشارته إلى تغاير في الطلب، حيث أرادت لنفسها نجاتين إحداهما خاصة والأخرى عامة. كما لا يخفى ما للفصل من دور بارز في مقام دفاعها عن ذلك الرضيع كما ذكرت سابقًا ، والمتأمل لآيات الكتاب العزيز لا يخفى عليه ما للفصل بين الجمل ووصلها من دقائق بلاغية وأسرار جمالية جعلته حدًا للبلاغة منذ القدم .

المطلب الرابع

الإيجاز والإطناب

قسم البلاغيون الكلام إلى أقسام ثلاثة : إيجاز، وإطناب، ومساواة[١]، ومنهم من اقتصر على اثنين فقط[٢]، كما وضع بعضهم ضوابط في التمييز بين هذه الأساليب، وجعلوا المساواة أو المتعارف عليه في كلام أوساط الناس هو الأصل، وما زاد أو نقص فهو إطناب أو إيجاز ، قال السكاكي: "أما الإيجاز والإطناب فلكونهما نسبيين لا يتيسر الكلام فيهما إلا بترك التحقيق والبناء على شيء عرفي، مثل جعل كلام الأوساط على مجرى متعارفهم في التأدية للمعاني فيما بينهم، ولا بد من الاعتراف بذلك مقيسًا عليه، ولنسمه متعارف الأوساط، وأنه في باب البلاغة لا يحمد منهم ولا يذم، فالإيجاز هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط، والإطناب هو أداؤه بأكثر من عباراتهم"[٣]؛ ولأن كلام أوساط الناس الذي أسماه البلاغيون: (المساواة) مما لا يحمد ولا يذم، ولصعوبة أن تكون الألفاظ قوالب للمعاني، لحملها دلالات ثرية وأبعاد نفسية مختلفة باختلاف السياق الذي ترد فيه، ذهبت إلى الأخذ برأي السيوطي في هذا المطلب، فهو لم يرفض وجودها رفضًا تامًا، وإنما رجح نفيها، فهي في نظره لا تكاد توجد خصوصًا في القرآن[٤]، لهذا قسَّمت الكلام في هذا المطلب إلى إيجاز وإطناب، ولتنوع الأساليب القرآنية فيما بينهما، ولأهميتهما في التعبير بشكل عام لم يغفل العلماء دراستهما والتعريف بهما، قال الرماني(٣٨٤هـ)[٥]: "الإيجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبَّر عنه بألفاظ كثيرة، ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ

---

[١] قال بهذا الرأي السكاكي. ينظر :مفتاح العلوم : ٢٧٦-٢٧٧، وأخذ عنه القزويني فرأى أن التعبيرعن المراد إما بلفظ مساوٍ للأصل المراد، أو ناقص عنه واف، أو زائد عليه لفائدة. ينظر: الإيضاح: ١٧١./٣

[٢] قال بهذا الرأي ابن الأثير إذ جعل المساواة قسمًا من أقسام الإيجاز حيث قال: "وأما القسم الثاني من الإيجاز فهو ما لا يحذف منه شيء، وذلك ضربان:أحدهما: ما ساوى لفظه معناه، ويسمى (التقدير). والآخر: ما زاد معناه على لفظه، ويسمى (الإيجاز بالقصر)". المثل السائر : ٢٦٠/٢.

[٣] مفتاح العلوم : ٢٧٦-٢٧٧.

[٤] ينظر : معترك الأقرآن في إعجاز القرآن : ٢٢٢/١.

[٥] علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني،باحث معتزلي مفسر،من كبار النحاة.ولد ببغداد سنة ٢٩٦هـ، وتوفي بها سنة٣٨٤هـ، له نحو (مئة)مصنف، منها: (الأكوان)و(الأسماء والصفات) وكتاب (التفسير)و(شرح سيبويه) ورسالة (النكت في إعجاز القرآن). ينظر : الأعلام : ٣١٧/٤.

القليلة إيجاز، والإيجاز على وجهين: حذف وقَصر، فالحذف إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام. والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف"[١].

وذكره الجرجاني في قوله: "لا معنى للإيجاز إلا أن يدل بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى، وإذا لم تجعله وصفا للفظ من أجل معناه، أبطلت معناه، أعني: أبطلت معنى الإيجاز"[٢].

أما الإطناب فقد وضع له ابن الأثير حدًّا يُعرف به فقال: "والذي يحد به أن يقال: هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة. فهذا حده الذي يميزه عن (التطويل)، إذ التطويل هو: زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة"[٣]، فالإطناب صفة محمودة في البلاغة بخلاف التطويل ؛وذلك لأنه يجيء بفائدة عظيمة ومواقعه في القرآن أكثر من أن تحصى[٤].

وقد نقل صاحب سر الفصاحة [٥] أن البلاغة هي الإيجاز والإطناب[٦] ، فدليل البلاغة عنده أن يكون المعنى مساوياً للفظ أو زائداً عليه ؛ بأن يكون اللفظ القليل دالًا على المعنى الكثير دلالة واضحة ظاهرة، لا لبْسَ فيها ولا غموض يُحتاج معه إلى تدقيق الفكر؛ لأنه حينئذ يُعد عيبًا في الكلام ونقصًا[٧].

وليس المجال هنا لذكر أقوال العلماء واختلاف آرائهم في هذا الباب؛ لذا اكتفيت بما يعين القارئ على استيضاح المصطلح .

ولقد قسم الباحثون المعاصرون الكلام إلى مراتب بحسب كثافة المعنى في الجملة أو العبارة، فحين يزداد التكثيف في المعنى فذلك الإيجاز ، وتتفاوت درجات الكثافة بحسب وضوح

---

[١] النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): ٧٦.

[٢] دلائل الإعجاز: ٤٦٣.

[٣] المثل السائر: ٢/٢٨٠.

[٤] ينظر: الطراز ٢/٤٩، ١٢٤. ولقد عرَّف العلوي الإيجاز بأنه " دلالة اللفظ على معناه من غير نقصان فيخلّ، ولا زيادة فيملّ". الطراز : ٢/١٢٤.

[٥] عبد الله بن مُحَمَّد بن سعيد بن سنان، أبو مُحَمَّد الخفاجي الحلبي: شاعر. أخذ الأدب عن أبي العلاء المعري وغيره. ولد سنة٤٢٣، وتوفي سنة ٤٦٦ هـ ، له (ديوان شعر)و كتاب (سر الفصاحة). ينظر : الأعلام :٤/١٢٢.

[٦] ينظر: الاتقان: ٣/١٧٩.

[٧] سر الفصاحة: ٢٠٧-٢٠٨.

المعنى وسهولة الوصول إليه أو دقته وخفائه، بحيث يحتاج إلى مزيد من التأمل والتفكر لاكتشاف المعاني الغزيرة وراء تلك العبارات المكثفة، والمرجع في تحديد الكثافة أذواق العلماء والأدباء، وملاحظة سهولة استساغة الكلام من قبل العامة أو عدم ذلك. وحين يكون لكل فكرة ألفاظ تدل عليها، أو صيغة أو أسلوب خاص يفهمه المخاطب دون كدٍّ أو حاجة إلى طول تأمل فذلك المساواة، وتتفاوت درجاته باختلاف أحوال المخاطبين وقدرتهم على الفهم، واستيعاب دلالات الكلام، فيتدخل هذا الأمر في تحديد نسبة التوسط في الكلام. وما زاد على تلك النسبة ولو قليلًا فهو في مرتبة الكلام المبسوط[1]، وتزداد درجات البسط كلما زاد بسط الكلام ،وهذا ما أسماه علماء البلاغة (الإطناب) إذا كانت الزيادة لفائدة ، و(الإسهاب) إذا لم تكن كذلك [2].

ومن المعاصرين من درس الإيجاز تحت اسم (القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى) مثل عبد الله دراز في كتابه (النبأ العظيم)، فأسلوب القرآن في نظره هو ملتقى نهايات الفضيلة البيانية على تباعد ما بين أطرافها، ومن هذه النهايات جَمعه ما بين القصد في اللفظ والوفاء للمعنى بغير فَترة ولا انقطاع، فإذا ما نظرت في القرآن تجده يؤدي كل معنى في صورة وافية نقية، لا تحس فيها بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير، ولهذا رأى أن القرآن كله إيجاز، يستوي فيه مواضع الإطناب والإيجاز والمساواة التي أطبق علماء البلاغة على تقسيم الكلام إليها؛ وذلك لأنه يستثمر أقل ما يمكن من الألفاظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني في كل منها، فتراه لا يجوِّز سبيل القصد ولا يميل إلى الإسراف ميلًا ما، فلا يمكن تأدية مراميه كاملة العناصر بأقل من ألفاظه ولا بما يساويها. فليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى[3].

الإيجاز والإطناب في قصة المراودة:

قصة يوسف–عليه السلام– من أطول القصص القرآني، ولقد استغرقت أحداثها فترات زمنية متباعدة، وحكت مشاهد متعددة من حياته –عليه السلام– المليئة بالابتلاءات، فكان

[1] فسره الميداني بأنه: "ما لو حذف منه شيءٌ بالنسبة إلى حال المخاطب به لفهم المراد فهماً تامّاً، دون كدٍّ ذهني، ولا تأمّل طويل، ولَمَا حدث لديه أيّ ارتباك فكريّ أو غموض، ولَمَا نقص لديه من الفهم شيءٌ" البلاغة العربية : ٣٦/١.

[2] ينظر: المرجع السابق : ٣٣/١-٣٦.

[3] ينظر: النبأ العظيم : ١٤٣/١-١٤٦، ١٦٢/١-١٦٣.

أشدها وأعظمها حادثة المراودة التي "كان للتربية فيها وللعواطف والغرائز دور فعَّال، وانعكاسات نفسية أثرت على مواقف الشخصيات وسلوكهم... [ف] الأحداث في هذه القصة تمثِّل صراعًا بين الخير والشرِّ، والفضيلة والرذيلة، وصوت الحقِّ ومغريات الهوى في اختيار حر، وإرادة متحرِّرة، يُفسح فيها المجال للإنسان فيما يأتي ويَدع من أعمال، يصحبها شعور بيقظة العقل وإحساس الميل، ومراقبة الضمير، وما ينتج عن ذلك من مسؤولية شرَّف الله بها الإنسان وبنى عليها تكليفه وابتلاءه وجزاءه، مما لا يتأتَّى مع استعباد الإرادة"[1].

فكل هذه المعاني أوجزها القرآن في آيات معدودات من سورة كاملة سميت باسمه –عليه السلام–، حيث استغني فيها عن التفصيلات الجزئية التي يمكن أن تدرك من السياق، وتفهم من القرائن، فبرز إيجاز الحذف سواءً كان لجزء من الجملة [2] أم للجملة أم لعدد من الجمل كما سيأتي.

وإذا ما تأملت قول يوسف—عليه السلام–:﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ تلحظ حذفًا جليًا بعد استعاذته، إذ لم يذكر الأمر الذي أوجب منه الاستعاذة وذلك لدلالة السياق، فالحديث إنما يدور حول قضية المراودة، فالاستعاذة لا بد أن تكون من الوقوع فيها، فجاء الحذف لينبئ عما هو أهم من ذلك، وهو ذكر أسباب الامتناع المتمثل في الخوف من الله والحياء من صاحب الفضل والإحسان .

وفي الحذف بيان لمنهج القرآن في حذف ما يُستهجن ذكره ، واختيار هذه العبارة الموجزة لينبئ عن أمر شائن يُستقبح ذكره، مما لا ينبغي أن يطرق الأسماع أو تلوكه الألسن، كما هو الحال في كلمة (هيت) أيضًا، وربما كان الحذف لأن المقام لا يقتضي الإطالة، فأوجز –عليه السلام– الكلام، وسارع إلى الفرار.

فذكره لهذه الأسباب هو من قبيل التذييل[3]، وهو وجه من وجوه الإطناب الذي اقتضاه المقام؛ لأن الامتناع عن تلبية طلب سيدة المنزل والخروج عن أمرها لابد له من عقوبة قد يُنجي

---

[1] سيكولوجية القصة في القرآن : ٢١٠.

[2] ذكرت ذلك في مطلب الذكر والحذف سابقًا .

[3] " التذييل:مصدر [ذيل] للمبالغة، وهي لغة: جعل الشيء ذيلًا للآخر. واصطلاحًا: أن يؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول تحقيقًا لدلالة منطوق الأول أو مفهومه ليكون معه كالدليل ليظهر المعنى عند من لا يفهم ويكمل

منها تقديم السبب وتوضيحه كما فعل يوسف-عليه السلام-، ففي الآية تذييلان: الأول﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ فإن الكلام تمَّ قبل ذلك، ثم أُتي بهذه الجملة لتعليل ما قبلها، والآخر قوله تعالى:﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فخرج هذا الكلام مخرج المثل السائر لتعليل ما تقدمه، فهو تذييل ثان للتذييل الأول، إذ المعنى: أن من أحسن مثواي لا يستحق مني الظلم وذلك بخيانتي له في أهله، وتقديم هذه الأسباب لامرأة العزيز في هذا المقام تنبيه لها لترجع إلى صوابها، فمن تطالب بخيانته هو زوجها الذي لا يستحق الخيانة من جانب من أكرم مثواه فمن باب أولى أن لا تخونه من هي تحت عصمته، وفي هذا ردع لها وتشنيع لفعلها.

والناظر للفظ﴿ هَيۡتَ لَكَ﴾ يظهر له ما فيه من إيجاز قصر[1]، حيث كنى به النظم القرآني عن مطالب تلك المرأة للمواقعة وما يسبقها بدلالة الجار والمجرور (لك) فـ "اللام في (لك) لزيادة بيان المقصود بالخطاب"[2].

وفي قوله تعالى:﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾يظهر نوعان من الإطناب:أولًا: الاعتراض[3] في قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ وذلك لتقرير نزاهة يوسف-عليه السلام- وعفته[4]، والعصمة التي حظي بها، فذكر المصروف عنه وتحديده مما يؤيد ذلك، "فالمصروف هو السوء، وهذا يعني أنه -عليه السلام- لم يتوجه إلى السوء ليُصرف عنه، وإلا قيل: (كذلك لنصرف

عند من فهمه" البرهان : ٦٨/٣. وذكر القزويني أنه على ضربين: الأول: ضرب لا يخرج مخرج المثل لعدم استقلاله بإفادة، والثاني: ضرب يخرج مخرج المثل. ينظر: الإيضاح: ٢٠٥/٣، ٢٠٧.

[1] القِصر تقليل الألفاظ وتكثير المعاني. ينظر : الصناعتين: ١٥٧، الإيضاح: ١٨١/٣. وعرفه الزركشي بقوله: "فالوجيز باللفظ أن يكون اللفظ بالنسبة إلى المعنى أقل من القدرالمعهود عادة " البرهان : ٢٢١/٣.

[2] التحرير والتنوير: ٢٥١/١٢.

[3] جاء في الصناعتين : "الاعتراض، وهو اعتراض كلام في كلام لم يتم ، ثم يرجع إليه فيتمه". الصناعتين: ٣٩٤. وجاء في البرهان: "الاعتراض ... هو أن يؤتى في أثناء كلام أو كلامين متصلين معنى بشيء يتم الغرض الأصلي بدونه ولا يفوت بفواته، فيكون فاصلًا بين الكلام والكلامين لنكتة": ٣/ ٥٦. ويرى القزويني أن الاعتراض يكون لفائدة غير دفع الإيهام كالتنزيه والتعظيم والدعاء. ينظر: الإيضاح : ٢١٤/٣-٢١٥.

[4] ينظر : مقال (الإيجاز والإطناب والمساواة في بلاغة سورة يوسف) فراس دهداري ، ميسا دهداري ، الأحد ٢٤/ أبريل /٢٠١١م ، www.diwanaiarab.com.

السوء عنه) وإذا كانت مادة الصرف تدل على رجع الشيء، فإن ذلك يدل على وجود مصدر للسوء هنا (المرأة)، ولكن الله رد كيدها عليها، ولم تُؤَثِّر في يوسف بمكرها "[1] .

وتظهر بلاغة النظم القرآني هنا في تصويره وتشخيصه للسوء والفحشاء، فكأنهما شخصان قادمان إلى يوسف–عليه السلام–، فصرفهما الله عنه.

والثاني: التذييل في قوله:﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾. فهو"تذييل غير جار مجرى المثل للتنبيه على علة النجاة من الفحشاء"[2]، لتضمنها معنى العصمة المذكورة في الجملة الاعتراضية، قال أبو حيان: "وفي صرف السوء والفحشاء عنه وكونه من المخلصين دليل على عصمته "[3].

ثم أوجز النظم القرآني حادثة الاستباق وما كان قبله وما ترتب عنه من قدِّ القميص ، ثم رؤية العزيز، وشهادة الشاهد، وما دار بين كل تلك الشخصيات من محاورات في قوله:﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، فالتسابق إلى الباب من قِبل يوسف وامرأة العزيز لابد له من سبب، وقد حذف السبب لدلالة العقل عليه، فالآيات السابقة تتحدث عن مطالبة من المرأة وامتناع من الفتى؛ مما أحدث حالة من التناقض تستوجب الهرب والمطاردة، فكان الاستباق، أراد التخلص منها وأرادت الإمساك به، فحصل القد للقميص، وانتهى المطاف إلى رؤية العزيز لهما، ومن غير المعقول أن يخلو الاستباق من التدافع والخصام،ولكن حذفت كل تلك الجزئيات لدلالة السياق عليها؛ وفي الحذف "تنبيه للمخاطب وتحريك لذهنه وإثارة لوجدانه، فيتابع أحداث القصة بوعي، ويقف على مواطن العبرة"[4]،فلا ينشغل فكره بالجزئيات عن التدبر والاعتبار. فالقصص القرآني بشكل عام لا يهتم بالتفاصيل الدقيقة ما لم يكن لها أثر بارز في إثراء المعنى، لهذا كثر الحذف فيها، فـ "زيادة﴿ وَهُوَ

[1] جماليات النظم : ٣٧.

[2] الإطناب في قصص القرآن الكريم : عائشة جرار: ٦٩.

[3] البحر المحيط : ٢٥٩/٦.

[4] من بلاغة النظم القرآني : ١١٣

مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ بعد﴿ فَصَدَقَتۡ ﴾ ،وزيادة﴿ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ بعد﴿ فَكَذَبَتۡ ﴾ تأكيد لزيادة تقرير الحق كما هو شأن الأحكام"[1].

وما جعل العزيز يلجأ إلى التكرار في قوله:﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴾ هو تأكيده على عِظَم ذلك الأمر الصادر عن امرأته، ولعدم إرادته فضح أمره والاعتراف بجرمها نسب الكيد لجنس النسوة، "ولأن الحكم الذي أصدره قد يكون مثارًا لسؤال: كيف يكون كل ذلك المكر والكيد من امرأة، وهي المعروفة بطبيعتها باللطف والنعومة؟! قال معللًا:﴿ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴾...فـ(إنَّ)هنا للتعليل مع التأكيد، وتكرير الكيد﴿ كَيۡدِكُنَّۖ ﴾للعناية بإبراز شأن كيدهن، وليمكن التوصل بذكره لإجراء وصف العظم عليه﴿ عَظِيمٞ ﴾، وفي الوصف بالعظم الذي هو أصل في المحسوسات تجسيد لشأن الكيد الذي هو من المعنويات؛ ليشعر السامع بضخامة ذلك الكيد؛ لأن تصور الإنسان للحسيات أسرع من المعنويات وأعمق"[2]، ووضع ﴿ كَيۡدَكُنَّ ﴾بدلًا من الضمير المتصل هو من باب وضع الظاهر موضع المضمر لقصد العموم[3].

ومن أشهر مواطن الإيجاز في هذه القصة قوله تعالى:﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾فاسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ يشير إلى الواقعة بأكملها بين امرأة العزيز ويوسف، وفيه إشارة إلى أن مثل هذه الوقائع مما لا ينبغي الإطالة في الحديث عنها[4].

"وعلى الرغم من أن حادثة امرأة العزيز كانت في دائرة ضيقة لا تتعدى المرأة، ويوسف، والعزيز زوجها، فإنها سرعان ما نفذت العيون من خدم القصر إلى هذا السر، ووقعت الآذان عليه، فكان همسًا على الشفاه، ثم حديثًا دائرًا على الألسنة، أقرب إلى الإشاعة منها إلى الحقيقة"[5]. ولقد حكى القرآن هذه الأحاديث في عبارات موجزة لم يكن للتفصيلات الجزئية نصيب فيها؛ إذ لا غرض من معرفة أولئك النسوة اللاتي نشرن الخبر، والغالب في القصص القرآني عدم ذكر أسماء الأشخاص إلا ما كان له صلة بمغزى القصة[6]، وفيه إيجاز في التعبير

---

[1] التحرير والتنوير : ٢٥٨/١٢.

[2] جماليات النظم : ٥٥.

[3] ينظر: الإطناب في قصص القرآن الكريم : ٥٥.

[4] ينظر: البحث نفسه:١٠٢.

[5] القصص القرآني: ٤٣٧.

[6] فهناك شخصيات لم يذكر القرآن اسماءها، ولم يكشف عن وظيفتها الاجتماعية في الحياة، بل اكتفى بذكر بعض صفاتها، مثل قوله تعالى في صاحب موسى—عليه السلام-، كما يعرض القرآن بعض الشخصيات النكرات مجردة من أي

بعدم التصريح بأسمائهن، وفيه ستر للمرأة وإبقاؤها في الحفظ والصون، لا تنتهكها أعين الناس وألسنتهم .

أما (امرأة العزيز) فجاء ذكرها بوصفها، قال تعالى:﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾فكشف النظم القرآني عن شخصية تلك المرأة التي اهتم الناس بأخبارها، فهي ليست أي امرأة، بل هي كما يُقال: سيدة المجتمع الراقي والطبقة العليا، وانتشار أمرها بهذا الشكل في أرجاء المدينة ليس بمستغرب؛وذلك لأن "عيون الناس وآذانهم متعلقة بأصحاب السلطة والسيادة، يتسمعون إلى أخبارهم، ويرقبون أحوالهم، ويشغلون بالحديث عنهم"[1]. ولاستحضار هذه الحالة العجيبة حكى النسوة حال تلك المرأة بما يتناسب مع قصدهن من الإنكار عليها ولومها على صنيعها بقولهن:﴿ تُرَاوِدُ ﴾[2]. ثم عللن تلك المراودة بالشغف الذي ملأ قلبها حتى استرخصت نفسها فأصبحت أسيرة ذلك الحب، "وهذا أدعى إلى تثبيت الخبر؛ فذكرن سببه؛ لإقناع السامع"[3]، ثم أتين بما يقرر ويؤكد معنى ذلك الحب فقلن:﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ فهذه الجملة تذييل غير جار مجرى المثل[4]، وقد جاء التأكيد فيها بمؤكدين؛ "زيادة في استنكارهن فعلها، وأنه بعيد كل البعد عن الصواب والرأي السديد وتَنزُّههن عنه" [5].

وعلى مأدبة امرأة العزيز للنسوة يبرز حذف الجمل، فقد أُوجزت أحداث تجهيز المأدبة، وما تتضمنه من ترتيبات، وما يكون فيها من ضيافة إلى غيرها، في قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾، فما بين سماعها للخبر وإعدادها للمتكأ مدة زمنية يستلزمها التخطيط والتدبير لإطفاء نيران تلك الفتنة والقضاء عليها، وجلوسهن في المتكأ يسلتزم أحاديث تدور ومحاورات ومناقشات أغفل ذكرها النظم القرآني لعدم

مخصص لها مثل (رجل) هكذا بلا وصف، فلا ضرورة إلى تعريفها؛ لأنها لا تؤدي دورها في الحدث القصصي باعتبارات خاصة مميزة لها. ينظر: المرجع السابق : ٩٩-١٠٠.

[1] القصص القرآني: ٤٣٧.

[2] إذ استخدمن صيغة المضارع في نسب المراودة لها .ينظر: التحرير والتنوير: ٢٦١/١٢.

[3] تحليل الخطاب: ٣٦١.

[4] ينظر : الإطناب في قصص القرآن الكريم: ٦٩.

[5] تحليل الخطاب: ٣٤٥.

تعلق غرض بذكرها، فطويت كل تلك الأحداث والتفصيلات ولم يذكر منها إلا ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ ليظهر معها مكر المرأة وكيدها، ولأهمية ذكرها في سرد أحداث القصة بعد ذلك، فما بين جلوسهن وإدخالها ليوسف عليهن فترة زمنية اقتضت مشاهد متعددة (أكلهن، وشربهن، وأحاديثهن) وقد استغني عن ذكرها؛ لأن في حذفها تجلية للمشاهد الأساسي في القصة .

أما قولهن:﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ فهو من قبيل الإطناب بالنفي والإثبات[1]، قال ابن الأثير: "واعلم أن لهذا الضرب من الإطناب فائدة كبيرة، وهو من أوكد وجوهه"[2]. وقد جاء قولهن هذا في سياق دهشتهن من فرط جماله، حتى نزَّهنه عن صفة البشرية بنفيها عنه، وأثبتن له صفة الملكية لتناهيه في الجمال، قال الزمخشري: "نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه، لما عليه محاسن الصور، وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم؛ وذلك لأن الله –عز وجل– ركز في الطباع أن لا أحسن من المَلَك، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان؛ ولذلك يُشَبَّهُ كل مُتَنَاهٍ في الحسن والقبح بهما"[3].

ولقد تكررت هذه الجملة في سياق تبرئة يوسف على لسان النسوة أيضًا، وذلك في قولهن:﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ ، وهي جملة معترضة جاءت للتعجب من نزاهته وعفته[4]، قال ابن عاشور: "و﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ تركيب عربي جرى مجرى المثل يراد منه إبطال شيء عن شيء وبراءته منه"[5]، وهو في حق يوسف عليه السلام تنزيه له عن السوء، ومدح لخُلقه واعتلاء عفته[6]،وتكراره في سياقين مختلفين دليل على اكتمال جماله –عليه السلام– فلم يقتصر على التناهي في الجمال الظاهري، بل تعداه إلى ما هو أعظم من ذلك وهو الجمال الباطني .

---

[1] عرفه ابن الأثير بقوله: "وهو أن يذكر الشيء على سبيل النفي، ثم يذكر على سبيل الإثبات، أو بالعكس، ولابد أن يكون في أحدهما زيادة في الآخر، وإلا كان تكريرًا، والغرض به تأكيد المعنى المقصود". المثل السائر : ٢/٢٨٧.

[2] المرجع السابق: الصفحة نفسها

[3] الكشاف: ٢/٤٦٦.

[4] ينظر: الإطناب في قصص القرآن الكريم : ٧١.

[5] التحرير والتنوير: ١٢/٢٦٣.

[6] ينظر: تحليل الخطاب: ٣٤٩.

فقولهن:﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾مبالغة في النفي والتنزيه، "وجملة﴿ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾ مبينة لإجمال النفي الذي في﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾، وهي جامعة لنفي مراودتهن إياه ومراودته إياهن؛ لأن الحالين من أحوال السوء"[1].

وكما أن للإطناب مواطن برز فيها فللإيجاز-كذلك- مواطن هو أحق بها، من ذلك قوله تعالى:﴿ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ فقد أوجزت الآية حديث المراودة والاستعصام الذي ذكر سابقًا بشكل مفصَّل في بداية القصة، ففي التعبير بـ(ذلك) إشارات متعددة، فقد يكون إشارة إلى بعده المكاني، فيكون قولها هذا بعد انصراف يوسف من المجلس، وهذا فيما أرى بعيد؛ لأن سياق الآية جاء لتهديده بالسجن والصغار، فلابد أن يصل إلى مسامعه ذلك التهديد ليكون أدعى لعدوله عن رأيه والاستجابة لها، وقد يكون للإشارة إلى بعد منزلته في الحُسن حتى إن النسوة لم يتصورن هيئته إلا حين رأينه ودهشن به، فإشارتها له بالبعيد يتناسب مع مقصودها من الإيقاع بهن فيما وقعت فيه من الافتتان؛ ليلْتَمِسْن لها العذر في ذلك، فلا تكون محط لومهن وانتقاصهن، وبذلك تخرس كل تلك الألسنة التي تحدثت بخبرها، كما أظهر هذا اللفظ معنى كيد المرأة .

قال أبو حيان: "(ذا)اسم الإشارة، واللام لبعد المشار،و(كن) خطاب لتلك النسوة، واحتمل أن يكون -لما رأى دَهْشَهُنَّ وتَقْطِيع أيديهن بالسكاكين وقَوْلِهِن:﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ بَعُدَ عَنْهُن إبقاءً عليهن في أن لا تزداد فِتْنتهن، وفي أن يَرْجِعن إلى حسنهنَّ، فأشارت إليه باسم الإشارة الذي للبعيد، ويحتمل أن تكون أشارت إليه وهو للبُعْد...؛ رفعًا لمنزلته في الحسن، واستبعادًا لمحله فيه، وأنه لغرابته بعيد أن يوجد منه"[2]. وهنا يظهر إيجاز القصر في اختيار اسم الإشارة للبعيد ليحتمل كل تلك المعاني، ومن الملاحظ هنا أن (ذلك) في التعبير القرآني قد تأتي في مقام التعليل أو الإجمال.

وفي هذه اللحظة "تجد المرأة فرصتها في التنفيس عن نفسها، وما يغتلي فيها من لواعج الحب وحرق الهوى ... لتعلنها صريحة على الملأ، وعلى مرأى ومسمع من يوسف...فهي لن

[1] التحرير والتنوير: ١٢/٢٩٠.

[2] البحر المحيط : ٦/٢٧١.

تدعه يُفلت من يدها، وإن لم يفعل ما تأمره به﴿ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾حيث يلقى ما يلقى الأرقاء من ذل وهوان!"[1]، ويدل تهديدها إياه على ثقتها بسلطانها على زوجها مع علمه بأمرها، واستعظامه لكيدها، شأنه في ذلك شأن المترفين العاجزين عن صدِّ زوجاته. كما ألقى هذا المشهد الأضواء على نفسية المرأة المترفة ذات المنصب الرفيع، وما لجمالها من سلطان تفرضه على زوجها حتى لتملك منه القِياد في مواطن تتأجج في مثلها قلوب الرجال غيرة وحمية[2].

كما "أوجزت الآية للقارئ جزءًا من القصة، وهو حدث المراودة من قِبلها والرفض من قِبله، وذلك بقصر معنيي المراودة والرفض على لفظة (استعصم) التي تدل على إرادتها لشيء قصدته في نفسها، في حين قابلها هو بالرفض والإنكار"[3].كما بيَّنت هذه اللفظة الجهد المبذول من يوسف–عليه السلام– في الاستزادة من العصمة وهذا دليل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد[4]، وبناؤها للفعل على هذه الصيغة شهادة منها ببراءته بالإضافة لاعترافها السابق:﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ ﴾.

ثم طويت أحداث قصة المراودة بعد سجن يوسف، فلم يعد أحد يتحدث بشأن المرأة وفتاها ، إذ انتقل الحدث إلى السجن –لسنوات عدة–، وما يكون فيه من شأن يوسف–عليه السلام– وتأويله الرؤى فيه، لتكون بداية عهد جديد في حياته عليه السلام، ولبناء المستقبل كان لابد له من أن يسترجع قضية سَجْنِه لإثبات براءته، فتحيَّن فرصة استدعاء الملك لسؤاله عن القضية من خلال قوله:﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ، ف "أراد –عليه السلام– ألَّا يلاحظه الملك بعين الخيانة، فيسقطه عيبه من قلبه، فلا يؤثر فيه قوله، فلذلك توقف حتى يظهر أمره للملك وتنكشف براءته"[5]؛ لذا عمد إلى

---

[1] القصص القرآني: ٤٤٠.

[2] ينظر : سيكولوجية القصص في القرآن : ٤٠٥.

[3] مقال : الإيجاز والإطناب والمساواة في بلاغة سورة يوسف: فراس دهداري، ميسا دهداري، ٢٤/أبريل/٢٠١١م، www.diwanalarab.com.

[4] ينظر : الكشاف: ٤٦٧/٢.

[5] لطائف الإشارات : ١٨٨/٢.

الإيجاز في السؤال عن النسوة لاستدعاء أحداث قصته مع المرأة بكل تفاصيلها، ولم يتعرض لامرأة العزيز في سؤاله تأدبًا معه ومراعاة لمكانته الاجتماعية، فهو أعلم بمن راود يوسف–عليه السلام– بدلالة قوله السابق:﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ﴾ ومع هذا فإن سؤال العزيز للنسوة قد شملها أيضًا في قوله:﴿ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾؛ لأن المراودة إنما وقعت منها دون النسوة اللاتي أعدت لهن المتكأ، ففي الكلام إيجاز حذف[1].

فالمتأمل لهذه الآيات يلحظ فيها الإيجاز بنوعيه: إيجاز القصر في سؤال يوسف عليه السلام، والحذف في سؤال الملك، بالإضافة لحذف الجمل التفسيرية ما بين طلب يوسف وقول الملك لدلالة السياق عليها، وعدم تعلق غرض بذكرها، فالتقدير: (فرجع إلى الملك وسأله عن النسوة).

وبهذا السؤال تتجلى الحقائق وتنكشف؛ مما جعل المرأة في موقف النادم المقِرّ بذنبه، فاعترفت ثم اعتذرت بقولها:﴿ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾، فتعقيبها بقولها:﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ نوع من الإطناب، فهو تذييل لتعليل الجملة التي قبله، وهو جار مجرى المثل.

ومثل هذا النوع من التذييل اقتضاه السياق لتصوير أحد أبعاد النفس الإنسانية التي يدرسها علم النفس التحليلي[2]، فالمرأة حين نفت البراءة عن نفسها من الوقوع في الخطأ وغيره لم

---

[1] التحرير والتنوير : ٢٩١/١٢.

[2] درس علماء النفس التحليلي النفس الإنسانية بكل أبعادها، وهي على ثلاثة أنواع: النفس السفلى: وهي التي استقرت في أعماقها مجموعة النزعات والرغبات والميول المكبوتة في اللاشعور، ويقابلها في القرآن النفس الأمارة بالسوء، والنفس الواعية: وهي التي تواجه العالم الخارجي وتتأثر به، وتكاد تكون صورة للواقع الذي تقره البيئة والتقاليد، ويقابلها في القرآن النفس الملهمة لفجورها وتقواها، والنفس العليا: وهي الرقيب الداخلي الذي يقف حائلًا دون اندفاع الرغبات والميول سواء أكانت شعورية أم لاشعورية ويقابلها في القرآن النفس اللَّوامة، وبهذا بيَّن القرآن ما هو ثابت في طبع الإنسان.ينظر: سيكولوجية القصة في القرآن: ٣٨٨.وهناك نوع رابع من النفوس لم يتطرق لها علماء النفس، وهي النفس المطمئنة، قال تعالى:﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴾الفجر : ٢٧-٢٨.

تكتف بذلك، بل قصدت إلى عموم هذا الحكم[1] فأجرته مجرى المثل، بأن عمدت في قولها إلى وضع الاسم الظاهر في موضع المضمر، وإلى تعريف (النفس) بـ(أل) بدلًا من ضمير المتكلم لتشير إلى مقصودها، ولو أنها قصدت التعيين لذاتها لقالت:﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ وقد يكون هذا من قبيل الحيل النفسية التي يلجأ إليها المرء أحيانًا لإبعاد الخطر عن نفسه أو التسويغ لفعلته.

وفي قولها:﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ لم تذكر المنفي،ما هو؟ أهو محبتها ليوسف أم المراودة والوقوع في الخطأ؟ فأعطت بهذا الحذف مجالًا أوسع لتقدير المحذوف[2]، وهذا مما يميز القصص القرآني، إذ أعطى القارئ مجالًا ليتفاعل مع الأحداث بهذا الحذف.

أما في الجملة التعليلية بعد ذلك فقد أفصحت عمَّا طوته قبل وهو (السوء)؛ وذلك لأن الجملة الأولى جاءت في سياق النفي، فالحذف أشعر بالعموم والشيوع، وهذا مناسب للمقام، فالنفس بطبيعتها غير مبرأة، وذكر عدم التبرئة دليل على أن المحذوف مما يحسن التبرؤ منه وهو(السوء). وأما الجملة الثانية فقد جاءت في سياق الإثبات، فحسن معها التفصيل بذكرها لـ(السوء) كما حسن الإجمال مع النفي[3].

وحُذف مفعول (أمَّارة)—صيغة المبالغة–لأنه يتطلب مفعولًا معينًا وهو (صاحب النفس) لا غير، فالتقدير: (أمارة بالسوء صاحبها)، فهو وإن لم يُذكر إلا أن النفس متوجهة إليه بدليل ما سبق من الكلام، فالمرأة أرادت أن "توفر العناية على إثبات الأمر للنفس[4]، وصرفه لها بالكلي...ولو قيل: (لأمَّارة بالسوء صاحبها) لربما انصرف جزء من الاهتمام إلى المفعول، بل ربما فُهم غير المراد، وجاز أن يتوهم أنه لم يثبت أمرًا للنفس بالسوء، بل أراد أن يثبت أمر النفس

---

[1] فسر السيوطي قوله تعالى:﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾أنه من قول يوسف –عليه السلام— فالمعنى فيه تحيير للمخاطب وتردد، فكيف لا يبرئ نفسه وهي زكية ثبتت عصمتها وعدم وقوعها في الخطأ؟ فأكد ذلك بقوله:﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ فقصد العموم في قوله؛ لذا لم يقل (إنها) لئلا يفهم تخصيص ذلك بنفسه. ينظر: الاتقان : ٣/ ٢١٩، ٢٤٧.

[2] ينظر: جماليات النظم: ١٢٩.

[3] ينظر: المرجع السابق: ١٣١.

[4] قال عبد القاهر في الغرض من حذف المفعول الخفي: "وهذا نوع آخر منه ، وهو أن يكون معك مفعول معلوم مقصود قصده، قد علم أنه ليس للفعل الذي ذكرت مفعول سواه ، بدليل الحال أو ما سبق من الكلام، إلا أنك تطرحه وتتناساه =وتَدَعَه يلزَمُ ضمير النفس لغرض غير الذي مضى [يقصد ذكر الفعل لإثبات نفس معناه]، وذلك الغرض أن تتوفر العناية على إثبات الفعل للفاعل وتَخْلُصَ له". دلائل الإعجاز : ١٥٦.

لصاحبها، وهذا ليس المراد هنا، بل العناية كلها متوجهة إلى النفس، وكون من خصائصها الأمر بالسوء، بغض النظر عن المأمور هنا من هو؟ "[1].

والناظر في هذه القصة يستشعر جماليات النظم الذي أعجز أفصح العرب ببلاغته الكامنة في نظمه المتفرّد، والتي برز جزء منها في الإيجاز بالحذف أو القصر، وفي الإطناب بأنواعه من تذييل واعتراض وتكرار ونفي، ثم إثبات بما يتناسب مع سياق القصة التي احتاجت إلى تأكيد وتقرير وتعليل في مواطن مختلفة منها .

الإيجاز والإطناب في قصة ملكة سبأ:

مما تفردت به هذه القصة عن غيرها من القصص أن راويها هدهد، والمخبَر عنها ملكة، ومتلقيها مَلِك عرف بالشدة والحزم مع العدل، إذ لم يقض في شأن الهدهد المتغيب عن مملكته قضاءً نهائيًا قبل أن يتبين خبره ويسمع منه ، لتبدأ بذلك أحداث هذه القصة.

ولعلم الهدهد بشدة وحزم سليمان –عليه السلام– كان لابد له من أن يبدأ حديثه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته وتضمن إصغاء الملك له ؛ لذا أَجْمَلَ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾[2]، ثم فَصَّلَ ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾،وهذا من قبيل الإيضاح بعد الإبهام، إذ أظهر المعنى في صورتين: إحداهما مجملة (نبأ)، والثانية مفصلة﴿ وَجَدتُّ ﴾الآية؛ ليُمكِّن المعنى في نفس الملك، ويثير انتباهه إلى أن ما جاء به يستوجب نفي المؤاخذة عنه.

"قال أهل البيان: إذا أردت أن تبهم ثم توضح فإنك تطنب؛ وفائدته إما رؤية المعنى في صورتين مختلفتين: الإبهام والإيضاح، أو لتمكن المعنى في النفس تمكنا زائدًا لوقوعه بعد الطلب؛ فإنه أعز من المنساق بلا تعب، أو لتكمل لذة العلم به، فإن الشيء إذا علم من وجه ما تشوقت النفس للعلم به من باقي وجوهه وتألمت، فإذا حصل العلم من بقية الوجوه كانت لذته أشد من علمه من جميع وجوهه دفعة واحدة" [3].

---

[1] جماليات النظم : ١٣٣.

[2] النمل : ٢٢.

[3] الاتقان : ٢٤٢/٣.

وأما قوله تعالى:﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فهي جملة معترضة سيقت لبيان أسباب انحرافهم عن عبادة الله، وقوله:﴿ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾ تذييل غير جار مجرى المثل، جاء للتأكيد على انحرافهم في العبادة، إذ إنَّ سجودهم للشمس أعظم دليل على عدم هدايتهم.

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية: "يجوز أن يكون هذا من جملة الكلام الذي ألقي على لسان الهدهد، فالواو للعطف. والأظهر أنه كلام آخر من القرآن ذيّل به الكلام الملقى إلى سليمان، فالواو للاعتراض بين الكلام الملقى لسليمان وبين جواب سليمان، والمقصود التعريض بالمشركين"[1].

وسواء كان هذا الكلام من قول الهدهد أم كان كلامًا معترضًا، فإن المقصود منه هو تعليل سجودهم للشمس، وإن كان في كونه من كلام الهدهد نوع من الإنكار عليهم بدلالة قوله بعد ذلك:﴿ أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾، فصدُّ الشيطان لهم كان لئلا يسجدوا لله –على قراءة التشديد في (ألاَّ)– وفيه لفت انتباههم إلى من تجب له العبادة – على قراءة التخفيف في (ألا)[2]–، ثم أكَّد على مقصوده بقوله:﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ وهو تذييل غير جار مجرى المثل جاء به ليثبت وحدانية الله سبحانه وتعالى فليس لغيره شبهة إلهية[3].

أما في مشهد تَبيُّن خبر الهدهد فقد برز إيجاز الحذف بشكل لافت، حيث تجلى الإعجاز الإعلامي[4] فيه فكلمات الملك محدودة، وألفاظه معدودة أشبه ببرقية موجزة، استعمل فيها أقل العبارات لأكبر عدد من الأفكار، فكلماته كلها أوامر حاسمة تعكس مدى حرصه واهتمامه بالأمر، إذ رسم بها خط سيرٍ للهدهد، وزوده بالتوجيهات المناسبة التي تكفل له نجاح المهمة[5]، فقال له:﴿ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴾ ولقد طوى القرآن أحداث أخذه الكتاب وارتحاله إلى سبأ وإلقائه له، فلا يُعلن في هذا الموقف عن فحوى

---

[1] التحرير والتنوير : ١٩/٢٤٥.

[2] ينظر: المرجع السابق : ١٩/٢٥٥ ، الإعجاز البياني في آيات قصة سليمان : ٣١٣.

[3] ينظر: التحرير والتنوير: ١٩/٢٥٦.

[4] ذكر هذا المصطلح الدكتور محمد وهدان وقصد به مكونات العملية الاتصالية في القصة الخبرية في القرآن، من حيث إن القرآن ليس إلا دعوة إلى الله سبحانه وتعالى، والدعوة ليست إلا إعلامًا، فمن صلب الحديث عن القرآن إبراز هذا الجانب. ينظر: الإعجاز الإعلامي في القصص القرآني: ١٠-١٢.

[5] ينظر: المرجع السابق : ١٠٨.

الكتاب؛ ليظل ما فيه مغلقًا كالكتاب نفسه، حتى يُفتح ويُعلن في حضرة الملأ، وبهذا يُسدَل الستارعلى هذا المشهد ليُرفع، فإذا الملكة وقد وصل إليها الكتاب، وهي تستشير الملأ من قومها في هذا الأمر الخطير[1]،﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ ،وهنا تظهر بلاغة النظم القرآني في سرد الأحداث والانتقال بين مشاهدها دون الشعور بأي سقط فيها على الرغم من وجود الحذف في بعض أجزاء القصة، بل على العكس فقد أعطى الحذف فيها حيزًا واسعًا للقارئ للتفاعل مع أحداثها واستحضار وقائعها في ذهنه حية بتفاصيلها.

قال الخطيب في تفسيره: "وإلى هنا ينتهى دور الهدهد في القصة، ويغرب وجهه الذي كان منذ لحظات الوجه الذي تعلقت به أنظار مملكة سليمان كلها، فلا يرى له أحد وجهًا، بعد هذا!! ولا تتعرض القصة لشيء من رحلة الهدهد إلى سبأ، يحمل كتاب سليمان إلى القوم، كما لا تذكر شيئا عن ملكة سبأ وهي تجد كتاب سليمان بين يديها، وما وقع في روعها من هذا الأمر العجيب، الذي طلع عليها من حيث لا تدرى! كما لم يذكر القرآن ما كان بينها وبين أهل سرها من حديث في هذا الحدث العظيم. كل ذلك لم تعرض له القصة القرآنية، فتلك أمور مقدر لها أن تقع حتمًا، على صورة أو أكثر من صورة . وفي هذا الفراغ يتحرك ذهن القارئ، وتستيقظ مشاعره، حيث يرى لزامًا عليه أن يملأ هذا الفراغ بأية صورة يجدها مناسبة لهذا المكان، وبهذا يتاح للناس-في كل زمان ومكان- أن يتصوروا ويتخيلوا، وأن يشاركوا بهذا التصور والتخيل فى بناء القصة، وألا يظلوا في عزلة عنها، غرباء عن مجريات أحداثها. وبهذا تتقيد الخواطر بالقصة، وتتفتح لها المشاعر، ويستيقظ لها الوجدان، الأمر الذي تتكشف به مواقع العبرة والعظة منها"[2].

وكما برزت بلاغة الحذف في أوامر سليمان –عليه السلام– فقد تجلى إيجاز القصر في محتوى كتابه؛ إذ جُمِع فيه العنوان والكتاب والحاجة[3]، وهذا يتناسب مع مقام المخاطبات

[1] ينظر: في ظلال القرآن : ٢٦٣٩/٥.

[2] التفسير القرآني للقرآن : ٢٣٩/١٠.

[3] الإتقان : ١٨١/٣-١٨٢.

الرسمية، و"أنسب لمخاطبة من لا يحسن لغة المخاطب، فيقتصر له على المقصود لإمكان ترجمته، وحصول فهمه" [1].

ومع وصول هذا الكتاب لم تُرِد بلقيس أن تنفرد بالرَّد عليه، فجمعت رجالها وأهل مشورتها للتحاور في الأمر واتخاذ القرار المناسب، وعلى الرغم مما أظهره رجالها من بسالة وشجاعة واستعداد للحرب، إلا أن حكمتها حالت دون الأخذ بمشورتهم؛ وذلك لعلمها برغبة الحرب عليها وعلى شعبها، إذ قالت:﴿ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾، فالتذييل هنا بجملة﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ تأكيد لما ذهبت إليه من رأي اقتضاه مقام الإقناع لهم بالعدول عن رأيهم، وهنا برزت شخصيتها القيادية؛ إذ لم تتردد في قرارها باختيار السلم الذي يضمن سلامتها وسلامة قومها وبقاءهم على عزهم، فقالت:﴿ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾. ولطلبها الاستعجال في إنجاز الأمر استعملت صيغة اسم الفاعل (مرسلة)، فهي من اتخذت القرار، وهي من ستتولى الأمر، وهم تحت طاعتها وإمرتها في ذلك، وحذفت المفعول؛ لأنها قصدت إلى الاهتمام بفعل الإرسال ومباشرته ، وذكرها للـ(هدية) دون (الكتاب والوفد المصاحب له) إشارة منها إلى المقصود من الإرسال وهو إلانة القلب، وإعلان الود، وقد تفلح الهدية في دفع القتال، وهذا من حسن نظرها وتدبيرها، إذ علمت أن الهدية تقع موقعًا من الناس[2].

وبهذا يُسدل الستارعلى هذا المشهد "ليرفع، فإذا مشهد رسل الملكة وهديتهم أمام سليمان. وإذا سليمان ينكر عليهم اتجاههم إلى شرائه بالمال، أو تحويله عن دعوتهم إلى الإسلام. ويعلن في قوة وإصرار تهديده ووعيده الأخير" [3] .

كما برز إيجاز الحذف في خبر ارتحال ملكة سبأ إلى القدس في قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، قال ابن عاشور:"وقد طُوي خبر ارتحالها إذ لا غرض مُهمًا يتعلق به في موضع العبرة. والمقصود أنها جاءت راغبة في الانتساب إليه"[4].

---

[1] الإعجاز الإعلامي في القصص القرآني : ١٠٧.

[2] ينظر: الجامع لأحكام القرآن: القرطبي : ١٣/٢٠٠.

[3] في ظلال القرآن : ٥/٢٦٤٠.

[4] التحرير والتنوير : ١٩/٢٧٣.

وأما قولها:﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ فإيجاز قصر، إذ عبرت به عما يُخالج نفسها من الشَّك وعدم التثبت، فلم تضطر بذلك إلى الكذب؛ لأنها متى ما أثبتت أنه هو أو نفت في جوابها لكانت كاذبة، فكان جوابها هذا احترازًا منها من أن تقع في الكذب في حضرة الملك وملئه. كما أن قولها هذا أخفى مشاعر التعجب والتردد والشَّك التي اكتنفتها، فإجابتها كانت إجابة الواثق بحصول الشبه والاختلاف معًا.

ثم انتقل الحدث بعد ذلك إلى داخل قصر سليمان، والذي يُعد من أعجب ما رأت بلقيس حتى إنها على الرغم من فطنتها وذكائها وما وصلت إليه مملكتها من حضارة لم تستوعب ماهية القصر، وقد صوَّر القرآن هذا المشهد بكل ما فيه من تفاصيل مدهشة فقال: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فدخولها الصرح يقتضي أن يكون له مدخل غير الذي دخلت منه لما جاءت، وكونها﴿ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ﴾ يدل على عدم معرفتها بالقصور الزجاجية؛ لذا أكد لها سليمان:﴿ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَ﴾ فلم يكتف بالضمير في﴿ إِنَّهُۥ﴾ بل جاء بالاسم الظاهر﴿ صَرۡحٞ﴾ ليلفت انتباهها إلى أن ما تراه في هذا القصر هو مما يفوق تصوُّرها، فأظهر لها عظمة مُلكه التي لم ولن تصل إليها، ووصفه بأنه﴿ مِّن قَوَارِيرَ﴾ جعل الملكة تقف "مفجوءة مدهوشة أمام هذه العجائب التي تعجز البشر، وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر. فرجعت إلى الله، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره،معلنة إسلامها مع سليمان،لا لسليمان،ولكن لله رب العالمين"[1].

وبهذا تنتهي قصة ملكة سبأ بإسلامها وخضوعها بعد تحريها لصدق ما جاء به نبي الله سليمان –عليه السلام–، وقد تنوع الأسلوب في سرد أحداث هذه القصة ما بين إطناب وإيجاز بما اقتضاه المقام، فكما حسن الإيجاز في مقام المخاطبة مثلًا حسن الإطناب في مقام الإقناع .

الإيجاز والإطناب في قصة امرأة فرعون:

لقد ضرب الله بهذه المرأة مثلا لتكون قدوة على مرِّ السنين –في كل زمان ومكان– فهي امرأة متفردة، إذ استطاعت أن تحرِّر فكرها ووجدانها من كل الأواصر والمؤثرات والقيود،

[1] في ظلال القرآن :٥/٢٦٤٣.

فرفضت أن تسير في ركاب زوجها، وأن تنساق في تيَّار المجتمع الذي تعيش فيه، بل أعلنت موقفها في ثبات وإيمان[1].

ففي مقام مخاطبتها لفرعون –وهو المعروف بالجبروت والطغيان والبطش– لجأت إلى إيجاز القصر في عباراتها لتؤدي مقصودها في أوضح صورة حين قالت:﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ فمهَّدت ثم عرضت ثم عللت؛ ليكون ذلك أدعى لقبول النهي عن قتل موسى عليه السلام .

وفي قولها:﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ ﴾ إيجاز وإطناب، إذ شملت بلفظ﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ ﴾ هناء العيش والأنس بالطفل المولود وضمان سلامته ونباهة شأنه[2]، فهو إيجاز قصر، وفيه إيجاز حذف للمسند إليه، أصل الكلام: (هو قرة ، أو هذا ...)، وقولها:﴿ لِّي وَلَكَ ﴾ تتميم[3]، وهو نوع من الإطناب، فبقولها:﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ ﴾ حصل المقصود، ولكنها أرادت المبالغة في بيان أهمية تلك المسرة الحاصلة لها، وهي"مسرة حاصلة من مرأى محاسن الطفل كما قال تعالى:﴿ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي ﴾ "[4][5] لذا قالت:﴿ لِّي ﴾، ثم احترزت من أن يأخذ فرعون العزة بالإثم؛ فيرفض طلبها ويقتل الطفل فقالت:﴿وَلَكَ ﴾؛ لذا فصلت ما بين الضميرين في الآية، والله أعلم. وقد يكون سبب الفصل هو أنها أرادت اكتمال حصول المسرة لكل منهما على السواء، فكأن الكلام فيه تكرار لذلك المعنى، والتقدير:(قرة عين لي ، وقرة عين لك).

أما قوله تعالى:﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ فتذييل غير جار مجرى المثل، سيق للتأكيد على عدم شعور فرعون وملئه بأن هلاكهم سيكون على يد هذا الطفل.

وفي مقام مناجاة امرأة فرعون لربها فإنها لجأت إلى الإطناب بالتكرار في الدعاء لتلذذها بتلك المناجاة ولرغبتها الشديدة في النجاة ، فقالت:﴿ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن

---

[1] ينظر : سيكولوجية القصة في القرآن : ٤٠١.

[2] ينظر : التحرير والتنوير : ٨٩/١٦.

[3] قال العسكري في تعريفه للتتميم والتكميل: "وهو أن توفي المعنى حظه من الجودة، وتعطيه نصيبه من الصحة؛ ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه إلا تورده، أو لفظا يكون فيه توكيده إلا تذكره". الصناعتين : ٣٨٩، وقال الزركشي: هو "أن يتم الكلام فيلحق به ما يكمله إما مبالغة أو احترازًا أو احتياطًا، وقيل: هو أن يأخذ في معنى فيذكره غير مشروح، وربما كان السامع لا يتأمله ليعود المتكلم إليه شارحًا " البرهان : ٧٠/٣

[4] طه : ٣٩

[5] التحرير والتنوير : ٧٨/٢٠

فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، وقد أوجزت في دعائها مطالبها الدنيوية المتمثلة في النجاة من فرعون وقومه، ومطالبها الأخروية المحصورة ببيت في الجنة، فعلى الرغم من مغريات الحياة الرخيَّة في قصر أعظم ملوك الأرض آنذاك، وأصرة الزوجية التي تربطها بفرعون، ومع ضغط المجتمع ووطأته فإنها أعلنت إيمانها وثباتها على الحق، فكانت مثلًا للشخصية الإنسانية المستقلة في الإيمان بالمبادئ والقيم[1].

وهكذا نلاحظ أن وجود المرأة في القصص القرآني لم يُقصد به الإثارة أو المتعة أو إشباع بعض الميول الغريزية، وإنما استدعى الحدث وجودها بصورة تلقائية ؛ لتؤدي دورها في القصة على أنها امرأة لها عواطفها ومشاعرها الخاصة، أو إنسانة لها شخصيتها المتميزة وذاتيَّتها المستقلة، فلا يُضفي القرآن على وجودها ألوانًا جذابة، ولا يُسلط عليها أضواء أكثر مما تقتضيه طبيعة المشهد[2]، فحين تحدث النص القرآني عن امرأة العزيز لم يسلط الضوء على مكامن جمالها وما يؤدي إلى الافتتان بها، إذ لم تكن هدفًا للإغراء، بل أظهرها في صورة المرأة "وهي عاشقة، وهي منتقمة لكبريائها، وهي نادمة"[3]، وحتى في وصفه لجمال يوسف-عليه السلام-لم يزد عن قوله:﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ؛وذلك لأن النص القرآني يهدف إلى إصلاح الفساد وتقويم الانحراف من خلال عرض الحدث وعاقبته، لا التعرض لشخصياته بما يزيد الإغراء والافتتان بها .

ولم يتعرض النص القرآني-كذلك- لشخصية ملكة سبأ إلا بما يشير إلى رجاحة عقلها وسدادة رأيها وحكمتها، وذلك لعدم تعلق غرض بذكر مفاتنها أو ما تتميز به من صفات جسدية، فحتى حين تطرق إلى ذكر جزء منها اكتفى بقوله:﴿ وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾؛ وذلك لحاجة المقام إلى ذكره، فمن الطبيعي أن يكشف الماشي على الماء عن ساقيه لئلا يبتل به.

أما في قصة امرأة فرعون فقد أخذت مكانتها على أنها إنسان لها شخصيتها التي تعبر عنها بالقبول أو الرفض والفكر المستقل، والإرادة المتحررة، وامرأة لها خصائص أنوثتها[4]المتمثلة في عاطفة الأمومة التي بدت منها تجاه موسى-عليه السلام-، فالقرآن أشارإلى المرتبة العليا التي

---

[1] ينظر: سيكولوجية القصة في القرآن : ٤٠١.

[2] ينظر : القصص القرآني : ١١٣-١١٤ ، سيكولوجية القصة في القرآن : ٤٠٦.

[3] المرجع السابق : ٤٠٣.

[4] ينظر: المرجع السابق : ٤٠١.

تقلدتها بإيمانها، فكشف بذلك عن مكنونات القلب السامية التي ارتقت بها لتوصلها إلى أعلى مراتب السمو في الحب، وهو الحب الإلهي الذي تمكن منها، فأغنى وصفها به عن كل وصف، إذ لم تعد في حاجة للأوصاف الأخرى.

ومما سبق يتضح أن الإيجاز يتفاوت مفهومه ودرجاته باعتبارات عدة، فما يكون إيجازًا في موضع قد يكون إطنابًا في سياق آخر، فقصة يوسف-عليه السلام- فيها إيجاز، لكونها لخصت حياة كاملة في سورة واحدة، في حين إنها تُعد إطنابًا بالقياس إلى قصص أخرى لبعض الأنبياء مثلًا، والمقطع الذي تناول قصته مع امرأة العزيز فيه إطناب، لكونه فصَّل أحداث المشاهد التي وقعت معها، لكنه مجمل بالقياس إلى القصة كلها في السورة، وقصة امرأة فرعون موجزة بالقياس إلى قصتي يوسف-عليه السلام-وملكة سبأ، وهكذا .

والمتأمل للمنهج القرآني يجد أن الإطناب يجيء عند ذكر القيم والأهداف المراد تقريرها وترسيخها في النفوس، والإيجاز في سرد الأحداث الواقعة فعلاً، فليست هي المقصودة بذاتها، بل ردود الأفعال والنتائج المترتبة عليها، والتي هي معيار التكليف والمحاسبة في ميزان الشرع، ولقد كثر مثل هذا الإطناب في قصة المراودة؛ ليكشف عن مواطن العظة والعبرة فيها، من ذلك قوله تعالى:﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1]،وقوله:﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ ،وغيرها.

أما في قصة ملكة سبأ فقد برز الإيجاز في مقام المخاطبات الملكية، بالإضافة إلى مقام سرد الأحداث، وكثر فيها الإطناب في مقام التشويق ولفت الانتباه، ومقام التأكيد والتقرير، كما جاء في مقام التعظيم والإقناع .

وعلى الرغم من الإيجاز الملحوظ في قصة امرأة فرعون تجد للإطناب فيها رونقًا في مقام المبالغة في أهمية الأمر، ومقام التلذذ في الدعاء، كما برز في مقام التأكيد .

[1] يوسف : ٢٣.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على رسول ربِّ البريات .

لقد سعى هذا البحث في صفحاته السابقة إلى إظهار بلاغة النظم القرآني في الحديث عن نساء القصور الملكية من خلال بيان أثر السياق في اختيار المفردة بمستوياته المختلفة ، وفي صياغة البنى التركيبية لقصص الدراسة .

فكان من أهم النتائج التي توصل إليها البحث :

- أن موضوع السياق الذي شاع في الدراسات الحديثة ، له جذور في التراث العربي القديم ، فقد طبقه المفسرون في توجيههم للنص القرآني ، كما تناوله البلاغيون في ما عرف بمقتضى الحال .
- ظهور مستويات السياق المختلفة في اختيار المفردة القرآنية ومالها من دور بارز في التعبير عن الدلالات النفسية والأبعاد التصويرية.

فعلى المستوى الصوتي تجد أن للأصوات المهموسة أثرًا بارزًا في تصوير مشهد المراودة بكل ما فيه من أبعاد نفسية ودلالات مخفية تدل على التربية القرآنية للفرد والمجتمع عند التطرق لمثل هذا الموضوع ، كما أبرزت الأصوات المفخمة الصرامة والشدة والرهبة في سياق التهديد ، وفي المقابل كشفت الأصوات المرققة عن الراحة النفسية والسكينة في سياق الدعاء والطلب على لسان امرأة فرعون ، وفي سياق الخضوع والانقياد في قصة ملكة سبأ.

أما على المستوى الصرفي فإنه ظهر في التضعيف والتكرار والترادف والتضاد في القصص القرآني، ولا يخفى ما له من أثر في إبراز معان ودلالات وأبعاد مختلفة في تصوير المشاهد الحركية للصراعات الداخلية والخارجية بكل ما فيها من حزن وألم كما في مشهد المراودة، ومشهد تقطيع الأيدي مثلًا ، ومشاعر الفرح والاستبشار كما في مشهد إبراز الحقيقة ، بالإضافة إلى تصوير المشاهد الحسية وإحضارها ماثلة في الذهن كمشهد تولِّي الهدهد ، ووصف القصر مثلاً .

وأما المستوى المعجمي فقد برز في اختلاف بنية المفردة ما بين فعلية واسمية، وفي العدول فيما بينها ،فكل عدول في المبنى يصاحبه عدول في المعنى ، فالعدول بين أزمنة الأفعال قد يجيء لاستحضار الحدث بكل أبعاده ،فالأفعال في سياق القصص القرآني تكتسب دلالتها الزمنية من السياق الواردة فيه لا من بنيتها الصرفية فحسب . أما العدول بين الأفعال والأسماء في السياق الواحد فكان لتأدية الفكرة ورسم أبعاد المشهد كما في سياق تهديد امرأة العزيز وشهادة الشاهد .

- غلبة الفعل على قصص الدراسة ؛ وذلك لأنها قائمة على حكاية الحدث وإحياء المشاهد في ذهن المتلقي واستحضارها .
- إسهام السياق في الكشف عن الشخصيات ،وإظهار مكنونات النفس الداخلية المتمثلة في الغرائز، والعواطف، والحالات الانفعالية الناتجة عن الأحداث من خلال تخيُّر المفردة القرآنية .
- تعدد دلالات المفردة القرآنية على حسب السياق الذي وردت فيه، كما في لفظ (نظر) في قصة ملكة سبأ على سبيل المثال .
- رَبْط السياق ما بين البنية العميقة للتركيب (المعنى) والبنية السطحية (اللفظ) ؛ ليُظهر من خلاله جماليات التركيب البلاغية .
- تنوع الأساليب الطلبية من أمر ونهي ونداء، وخروجها عن معناها الحقيقي بما يتناسب مع المقام وما يقتضيه سياق القصِّ ، فاجتماع الأمر والنهي مثلًا في خطاب سليمان –عليه السلام – مما اقتضاه مقام الدعوة للإشارة إلى وجوب فعلهما معًا ،فالجمع هنا لخَّص قواعد تلك الدعوة القائمة على الجمع ما بين الترهيب والترغيب .

  كما اقتضى سياق الدعاء الجمع ما بين النداء والأمر للدلالة على معنى شدة القرب وكمال الخضوع .
- توظيف الأساليب التركيبية في النص القرآني من تقديم وتأخير، وذكر وحذف، وفصل ووصل، وإيجاز وإطناب، بما يتناسب مع المراد منها،ولهذا تنوعت واختلفت باختلاف المقامات ، فمثلًا: برز التقديم في سياق ظهور براءة يوسف –عليه السلام– بشكل جلي، كما ظهر الذِكْرُ في ذات السياق وبشكل واضح في شهادة

الشاهد وفي خبر النسوة . وكشف الحذف في قصة ملكة سبأ عن عظيم نِعَم الله تعالى على عباده من خلال استخدام الفعل الذي لم يسم فاعله، كما أظهر الذِكْر عِظَم قوة قومها .

هذا وقد أسهم أسلوب الفصل والوصل بين الجمل في توالد الجمل، بعضها من بعض ، وإقامة شبكة من العلاقات الوشيجة أدت إلى ثراء الحوار في قصص الدراسة ، وكشفه عن سمات الشخصيات ودفعه للأحداث نحو الغاية المتوخَّاة منها.

- الكشف عن ما أسماه المحدثون بالسياق الثقافي بمختلف صوره الدينية والتاريخية والاجتماعية والعُرفية وغيرها في مواطن عدة أشرت إليها في البحث .
- مجيء المرأة في القصص القرآني على وفق ما يستدعيه الحدث بصورة تلقائية ، فلم يُقصد من وجودها الاستثارة أو إشباع الميول كما في القصص الأدبي ، بل أبرزت قصص الدراسة منزلة المرأة في الإسلام من خلال النص القرآني الذي أعطاها مكانتها على أنها إنسان لها شخصيتها المستقلة فكريًا .
- تصوير القصص القرآني طبيعة المرأة على اختلافها ، فالنساء في القصور الملكية اختلفت طبيعتهن باختلاف عقليتهن لا اختلاف مكانتهن ، فهناك من غلَّبت العقل على العاطفة فنجت هي وقومها ، وهناك من غلَّبت العاطفة فانحدرت بنفسها ، وفي المقابل هناك من وازنت بينهما فنجت أيما نجاة .

وختامًا هذه بعض التوصيات للباحثين في مجال الدرس البلاغي ، ومنها:

- دراسة المرأة في القصص القرآني بشكل عام أو في حياة الأنبياء بشكل خاص أو دراسة المرأة في حياة موسى – عليه السلام – أو نموذج المرأة الكافرة من خلال بعض الشخصيات المذكورة في القرآن .
- دراسة باب من أبواب البلاغة في إحدى القصص المتصلة بالمرأة، إذ أن مجال البحث فيها مما يثرى البلاغة القرآنية ومما يكشف عن إعجاز النص القرآني في إبراز حقوق المرأة .

- عمل دراسة موازنة بين خطاب بعض الملوك الذين ذكروا في القرآن الكريم وبين الخطاب الإلهي في بعض السياقات والتي يتضح من خلالها تميز خطاب المولى بالعظمة والجلال الإلهي .
- إجراء المزيد من الدراسات البلاغية التطبيقية على النصوص البليغة من الآيات القرآنية ، والأحاديث الشريفة ، والأدب الرفيع ، مما يعين على تكوين الملكة البلاغية لدى الدارسين والمتأدبين .

هذا وأسأل الله العلي القدير أن ينفعني بما علمني وأن يزيدني علمًا ، وأن يتجاوز عن خطئي ونسياني ، وأن يكتب لي الأجر والثواب .

الفهارس العامة

- فهرس المراجع
- فهرس الشواهد القرآنية
- فهرس الأحاديث النبوية
- فهرس الشواهد الشعرية
- فهرس الموضوعات

المراجع

• القرآن الكريم.

• ابن الأثير، نصر الله بن محمد بن محمد الجزري، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي؛ وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، د.ط، د.ت.

• أحمد ، محمد خلف الله؛ وسلام محمد زغلول (تحقيق وتعليق)، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي، دار المعارف، القاهرة، ط٧، د.ت. رسالة (بيان إعجاز القرآن للخطابي، والنكت في إعجاز القرآن للرماني).

• الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١ م.

• الأسدآبادي، القاضي عبد الجبار أحمد، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق: محمود الخضيري؛ ومحمود قاسم؛ وحسين طه؛ وإبراهيم مدكور، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، د.ط، ١٣٨٥هـ /١٩٦٥م .

• الإسكندري، ابن المنير، الانتصاف فيما تضمنه الكشاف (حاشية ابن المنير) حاشية مذيلة في كتاب الكشاف للزمخشري، نسخة دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ .

• الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق وإعداد: مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، مكتبة مصطفى الباز، د.م، د.ط، د.ت.

• الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ .

• أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة محمد عبد الكريم حسان، مصر، ط٤، ١٩٩٩م .

• أنيس، إبراهيم، دلالة الألفاظ، دار المعارف، د.م، ط٦، ١٩٨٦م .

• أنيس، إبراهيم، من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة محمد عبد الكريم، د.م، ط٣، ٢٠١٠م .

• الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط٥، ١٩٩٧م .

• البخاري، محمد بن إسماعيل، جامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله عليه الصلاة والسلام وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، د.م، ط١، ١٤٢٢هـ .

• البخاري، محمد بن اسماعيل، صحيح الأدب المفرد، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق، د.م ، ط٤،١٤١٨هـ / ١٩٩٧ م.

• بدوي، أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.م، د.ط، ٢٠٠٥م .

• البركاوي، عبد الفتاح عبد العليم، دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث "دراسة تحليلية للوظائف الصوتية والبنيوية والتركيبية في ضوء نظرية السياق"، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤١١/ ١٩٩١م.

• ابن بطال، خلف بن علي بن خلف، شرح صحيح البخاري، تحقيق: ياسر إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ط٢ ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م .

• البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ط، د.ت.

•بلبع، عيد، السياق وتوجيه دلالة النص، بلنسية للنشر والتوزيع، د.م، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

• الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

• التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر، مختصر السعد شرح تلخيص كتاب مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥ م .

• الثعالبي، عبد الملك بن محمد، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، إحياء التراث العربي ، د.م ، ط١ ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م .

• الجاحظ ، عمرو بن بحر الكنائي، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، د.ط، ١٤٢٣هـ .

• الجرجاني عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني، جدة، ط٣، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م .

• ابن جني، أبو الفتح عثمان الموصلي، الخصائص، تحقيق: الشربيني شريدة، دار الحديث، القاهرة ، د.ط ، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

• ابن جني، أبو الفتح عثمان الموصلي، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.م، ط٤، د.ت .

• ابن جني، أبو الفتح عثمان الموصلي، سر صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ،ط١ ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م .

• الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم الملايين، بيروت ، ط٤، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

• ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود؛ وعلي محمد عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ .

• حسان، تمَّام، الأصول "دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب"، عالم الكتب، القاهرة ، د.ط ، ١٤٢٠هـ /٢٠٠٠م.

• حسان، تمَّام، البيان في روائع القرآن "دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ /١٩٩٣م .

• حسان، تمَّام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب، د.ط، ١٩٩٤ م .

• الحموي، أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير في غريب شرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، د.ط، د. ت .

• ابن حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، د.ط، ١٤٢٠هـ.

• خطابي، محمد، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩١م .

• الخطيب، عبد الكريم بن يونس، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط ، د.ت .

• الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت.

• ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون المسمى "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، تحقيق: خليل شحاتة، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م .

• ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٠٠م.

• الدَّجاني، زاهية راغب، يوسف في القرآن الكريم والتوراة "دراسة مقارنة للمشاهد والعبر"، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

• دراز، محمد بن عبد الله، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، اعتنى به: أحمد مصطفى فضيلة، قدم له: عبد العظيم إبراهيم المطعني، دار القلم للنشر والتوزيع، د.ط، ١٤٢٦هـ /٢٠٠٥م .

• درنيقة، محمد أحمد، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، تقديم: ياسين الأيوبي، دار ومكتبة الهلال، د.م، ط١، د.ت.

• ابن دريد، محمد بن الحسن جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم الملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م .

• ديوان جميل بثينة، دار بيروت، بيروت، د.ط، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢ م.

• الذهبي، محمد بن أحمد قايماز، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، د.م، ط٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥ م .

• الرازي، محمد بن عمر بن الحسن، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ.

• الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق، دار الهداية، د.م، د.ط، د.ت.

• الزجاج، إبراهيم بن السري بن سهل، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م .

• الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، د.م، ط١، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧ م .

• الزركلي، خير الدين الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م.

• الزمخشري، محمود بن عمر، أساس البلاغة، دار النفائس، بيروت، ط١،١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

• الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧ هـ .

• السامرائي، فاضل بن صالح، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دار عمار، الأردن، ط١٤٣٠،٦ هـ / ٢٠٠٩ م.

• السامرائي، فاضل صالح، معاني الأبنية في العربية، دار عمَّار، عمَّان، ط٢، ١٤٢٨هـ /٢٠٠٧م .

• السبكي، أحمد بن علي بن عبد الكافي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م .

• السجلماسي، القاسم الأنصاري، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تقديم وتحقيق: عَلَال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ط١، ١٤٠١هـ / ١٩٨٠ م .

• سعد، أمير فاضل، غرائب الصورة القرآنية "تحليل البنية الأسلوبية ودلالاتها البلاغية"، دار الكتاب الثقافي، الأردن، ٢٠٠٨ م .

• سلطان، منير، الفصل والوصل في القرآن الكريم، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط٢، د.ت.

• أبو السعود، محمد العمادي الحنفي، ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود)، تحقيق: عبد القادر عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، د.ط، د.ت .

• السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م.

• ابن سنان الخفاجي، عبد الله بن محمد، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، د.م، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٨٢م.

• سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

• سيد قطب، إبراهيم بن حسين الشاذلي، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط١٧، ١٤١٢ هـ .

• ابن سيده، علي بن اسماعيل ، المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م.

• السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.م، د.ط ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

• السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان، د.ط، د.ت .

• السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت .

• السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨هـ .

• السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

• الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات في أصول الشريعة، وعليه شرح لتحرير دعاويه وكشف مراميه وتخريج أحاديثه ونقد آرائه بقلم: عبد الله دراز ،عني بضبطه ووضع تراجمه: محمد عبد الله، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، د.ط، د.ت .

• الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، ١٤١٥هـ /١٩٩٥م .

• صالح، بهجت عبد الواحد، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل، دار الفكر، عمَّان، الأردن، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

• الصامل، محمد بن علي، قضية الفصل والوصل بين المفردات عند البلاغيين، كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م .

• الصبان، محمد بن علي، حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.

• الضبي، المفضل بن محمد بن يعلى ، المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر؛ وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٦، د.ت.

• الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، تحقيق: مجموعة محققين بإشراف: عبد الحميد عبد المنعم مدكور، مراجعة على نسخة: محمود شاكر؛ وأحمد وشاكر، ومتممة لها، دار السلام، ط٤، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩ م .

• الظهار، نجاح بنت أحمد، نظرية النظم عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني "دراسة، تطبيق، تحليل"، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥ م .

• ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، د.ط، ١٩٨٤م .

• العبد، فريال زكريا، الميزان في أحكام تجويد القرآن، دار الإيمان، القاهرة، د.ط، د.ت.

• عبد الحميد، أحمد بن مختار، بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، د.م، ط١، ١٤٢٩هـ /٢٠٠٨م .

• عبد المجيد، جميل، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.م، د.ط، ١٩٩٨م .

• عبيد، محمد رشدي، قصة يوسف عليه السلام في القرآن "دراسة أدبية"، رابطة الأدب الإسلامي العالمية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط٢، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.

• العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي؛ ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، ١٤١٩ هـ.

• العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، الفروق اللغوية، تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، د.ط، د.ت.

• ابن عصفور، علي بن مؤمن بن محمد، الممتع الكبير في التصريف، مكتبة لبنان، د.م، ط١، ١٩٩٦م .

• العطوي، عوض بن حمود، جماليات النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف، بحث منشور في كتاب الكترونيpdf ، مركز التدبر للاستشارات التربوية والتعليمية، المملكة العربية السعودية، الرياض، د.ط، ١٤١٣ هـ.

• ابن عطية، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢ هـ .

• عكاشة، محمود، تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة "دراسة تطبيقية لأساليب التأثير والإقناع الحجاجي في الخطاب النسوي في القرآن"، دار النشر للجامعات، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م.

• علام، عبد العزيز بن أحمد؛ ومحمود، عبد الله بن ربيع، علم الصوتيات، مكتبة الرشد، الرياض، د.ط،١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م .

• العلوي، يحي بن حمزة علي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ .

• عمر، أحمد بن مختار، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط٥، ١٩٩٨ م .

• الغيتابي، محمود بن أحمد بن موسى، عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت.

• الفراء، يحي بن زياد بن عبد الله، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي؛ ومحمد علي النجار؛ عبد الفتاح اسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط١، د.ت.

• الفراهيدي، الخليل بن أحمد بن عمرو، العين، تحقيق: مهدي المخزومي؛ وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.م، د.ط، د.ت.

• الفيروزآبادي، محمد ين يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٤٢٦هـ/ ١٩٩٤م.

• فيود، بسيوني عبد الفتاح، دراسات بلاغية، مؤسسة المختار، القاهرة، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.

• فيود، بسيوني عبد الفتاح، من بلاغة النظم القرآني، مؤسسة المختار، القاهرة، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

• قدور، أحمد محمد، مدخل إلى فقه اللغة العربية، دار الفكر، دمشق، ط٤، ٢٠١٠م.

• القرطبي، محمد بن محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق: أحمد البردوني؛ وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢ ١٣٨٤هـ /١٩٦٤م.

• القزويني، محمد بن عمر جلال الدين، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار جيل، بيروت، ط ٣، د.ت.

• القزويني، أحمد بن فارس بن زكرياء، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د.م، د.ط، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م.

• القشيري، عبد الكريم بن هوازن، لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٣، د.ت.

• القِنَّوجي، محمد صديق خان بن حسن، فتح البيان في مقاصد القرآن، عني بطبعه وراجعه وقدم له: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

• ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، د.ط، د.ت.

• ابن القيم الجوزية، التفسير القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، بإشراف: إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١٠، ١٤١٠هـ.

• ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت،ط٢، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .

• ابن كثير البصري، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط١، ١٤١٩ هـ.

• الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني، الكليات "معجم في المصطلحات والفروق اللغوية"، تحقيق: عدنان درويش؛ ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ط، د.ت.

• لاشين، عبد الفتاح، المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٤، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢ م .

• ابن مالك، عبد الله بن يوسف بن أحمد، تحقيق: يوسف الشيخ البقاعي، دار الفكر، د.م، د.ط د.ت.

• مجد الدين ابن الأثير، المبارك بن محمد بن عبد الكريم الجزري، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، التتمة تحقيق: بشير عيون، مكتبة الحلواني، د.م، ط١، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧١م.

• مجد الدين ابن الأثير، المبارك بن محمد بن عبد الكريم الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي؛ ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، د.ط، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩ م.

• المرزباني، محمد بن عمران، معجم الشعراء، تصحيح وتعليق: ف. كرنكو، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م .

• المسيري، منير، دلالات التقديم والتأخير في القرآن "دراسة تحليلية"، تقديم: عبد العظيم المطعني؛ وعلي جمعة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

• مصطفى، إبراهيم؛ والزيات، أحمد؛ وعبد القادر، حامد؛ والنجار، محمد، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، د.ط ، د. ت .

• المطعني، عبد العظيم إبراهيم، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٤١٣،١هـ/١٩٩٢م.

• مكرم، عبد العال بن سالم، المشترك اللفظي في الحقل القرآني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ .

• ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، طبعة جديدة ومنقحة، د.ت .

• أبو موسى، محمد، دلالات التراكيب دراسة بلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٤، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م .

• الميداني، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

• النحاس، أحمد بن محمد، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ، ط١ ، ١٤٠٩ هـ .

• النسائي، أحمد بن شعيب الخرساني، السنن الكبرى، حققه وخرَّج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م .

• النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ / ١٩٩٨م.

• النووي، محي الدين يحي بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢ هـ .

• النيسابوري، الحسن بن محمد القمي، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ .

• الهتاري، عبد الله علي، الإعجاز البياني في العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم، دار الكتاب الثقافي، الأردن، د.ط، ٢٠٠٨م .

• الهمداني، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، ط٢٠،١٤٠٠هـ/١٩٨٠.

• وهدان، محمد، الإعجاز الإعلامي في القصص القرآني "دراسة تطبيقية على سورة النمل"، دار أطلس للنشر الإعلامي والتوزيع، الجيزة، ط١، ٢٠٠٦م.

الرسائل العلمية والدوريات :

• البحراني، بشير، نساء القصور الملكية، مجلة نور القرآن، العدد السادس، د.م. د.ت.

• جاب الله، أسامة عبد العزيز، السياق في الدراسات البلاغية الأصولية "دراسة تحليلية في ضوء نظرية السياق"، جامعة كفر، كلية الآداب، www.pdffactory.com.

• جرار، عائشة أحمد، الإطناب في قصص القرآن الكريم ، إشراف : خليل عودة،رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية في نابلس، كلية اللغة العربية وآدابها، ٢٠٠٩م.

• جمال الدين، أحمد، لغة الحوار في سورة يوسف: دراسة أسلوبية "أقوال يوسف وإخوته، وامرأة العزيز نموذجًا"، جامعة قناة السويس، كلية الآداب بالإسماعيلية، مؤتمر السرديات الأول، ١٤٢٧هـ .

• الجميل، محمد بن فارس، الأنية والأوعية المستخدمة في العهد النبوي، دراسة مستمدة من كتب الحديث النبوي، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية، ع ١٢، السنة ١٢.

• الخطيب، فايز وضاح، الإعجاز القرآني البياني في آيات قصة سليمان—عليه السلام— مع ملكة سبأ، مجلة جامعة دمشق، مج ١٧، ع ٢، ٢٠٠١ م .

• دهداري، فراس؛ ودهداري، ميسا كاظم، الإيجاز والإطناب والمساواة في بلاغة سورة يوسف، مقال في موقع ديوان العرب www.diwanalarab.com، الأحد، ٢٤/أبريل/٢٠١١م.

• الشتوي، فهد شتوي، دلالة السياق وأثره في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى، إشراف: محمد بن عمر بازمول، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.

• الطلحي، ردة الله بن ردة، دلالة السياق، إشراف: عبد الفتاح البركاوي، رسالة دكتوراه مطبوعة، جامعة أم القرى، معهد البحوث، ط١، ١٤٢٤ هـ .

• الطويجي، طلال بن يحي بن إبراهيم، القلب في الجملة القرآنية بين الاستعمال القرآني والتأويل اللغوي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، كلية الآداب، مجلة آداب الرافدين، ع ٤٠، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥ م .

• لحمادي، فطومة، السياق والنص: استقصاء دور السياق في تحقيق التماسك النصي، جامعة محمد خضير بسكرة، الجزائر، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية، ع ٢/ ٣ ، ٢٠٠٨ م.

• نصيرة، بلحسني، الصورة الفنية في القصة القرآنية: دراسة جمالية "قصة سيدنا يوسف عليه السلام نموذجًا"، إشراف: رمضان كريب، رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان، كلية الآداب والعلوم الانسانية، قسم اللغة العربية، ١٤٢٦ -١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٥ -٢٠٠٦م.

• نقرة، التهامي، سيكولوجية القصة في القرآن، رسالة دكتوراه مطبوعة، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع ، د. م ، د.ط ،١٩٧١م .

• يحيا، مالك نظير، أصول النظرية الحديثة عند علماء العربية ودور هذه النظرية في التوصل إلى المعنى، مجلة جامعة تشرين، كلية الآداب والعلوم الانسانية، مج ٣٠، ع٢، ٢٠٠٨ م.

فهرس الشواهد القرآنية

الآية	السورة ورقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾الآية	البقرة: ١٨٦	١٠٣
﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾	آل عمران: ١٥٩	١٣٠
﴿ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾	النساء: ٦١	٥٣
﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾	النساء : ٨٢	١
﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾الآية	المائدة: ٢٣	٣١
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ ﴾الآية	يوسف: ٢١	٩٥، ١٤١
﴿ وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾الآية	يوسف: ٢٣	٢٨، ٣٩- ٤١، ٦٦، ٧٤، ٧٣، ٨١، ١١٧، ١٢٣، ١٤١، ١٤٠، ١٦٧، ١٨٤.
﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾الآية	يوسف: ٢٤	٤٠، ١١٠، ١٢١، ١٢٥، ١٤٢- ١٤٤، ١٦٨.
﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ ﴾الآية	يوسف: ٢٥	٤٢، ٧٤، ١١١، ١١٠، ١٢٥، ١٤٤، ١٤٥، ١٦٩.
﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾الآية	يوسف: ٢٦	٣١، ٣٢، ٤٤، ٤٢، ٦٦، ٧٧، ٨٧، ١٠٧، ١٠٨، ١١٩، ١٢٣، ١٤٥، ١٦٩.
﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾الآية	يوسف: ٢٧	٨٧، ٣٢، ١١٩، ١٦٩.
﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ ﴾الآية	يوسف: ٢٨	٤٤، ٣٢، ٨٥، ١٢٢، ١٧٠.
﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾الآية	يوسف: ٢٩	٩٤، ٩٢، ١٠٢، ١١٩، ١٧٥، ١٧٠
﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾الآية	يوسف: ٣٠	٦٧، ١٠٩، ١٢٢، ١٤٦، ١٤٧، ١٧١.

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ ﴾الآية	يوسف: ٣١	٤٦،٤٥،١٢٠،١٥٠، ١٧٢،١٧١،١٨٣.
﴿ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِ﴾الآية	يوسف: ٣٢	٣٢،٣٦،٦٨،٦٧،٧٥،٩٥،١١١ ١١٩،١٢٣،١٢٥،١٥١،١٧٣.
﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾الآية	يوسف: ٣٣	٣١،١٥٢
﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ﴾الآية	يوسف: ٣٥	٣٢،٤٢،
﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِ ﴾	يوسف : ٣٦	٧٥
﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾الآية	يوسف: ٥٠	٤٥،٩٥،١٤٧،١٧٤.
﴿ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ ﴾ الآية	يوسف: ٥١	٣٢،٤٢،٤١،٦٠- ٦٢،٦٨،٦٧،١٠٨،١٢٠،١٢٣، ١٢٥،١٤٧،١٤٩، ١٧٥،١٧٤،١٧٢.
﴿ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾الآية	يوسف: ٥٢	١٢٤،١٤٩،١٤٨،١٧٥.
﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾الآية	يوسف: ٥٣	١١٩،١٢٤،١٤٩،١٤٨،١٧٥.
﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾	يوسف: ١٠٠	٨٣
﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾	إبراهيم: ٧	صفحة الشكر والتقدير
﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي ﴾الآية	الكهف: ١٠٩	١٣١
﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾	مريم: ٤	١٠
﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ﴾الآية	مريم : ٣٣	١٥٧
﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾الآية	مريم : ٣٤	١٥٧
﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖ ﴾الآية	مريم :٣٥	١٥٨
﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾الآية	مريم : ٣٦	١٥٨
﴿ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴾	طه: ٢٥	٩٩
﴿ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي ﴾	طه: ٣٩	١٨٢
﴿ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٖ﴾	طه : ٧٢	٩٨

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ ﴾	المؤمنون: ١١٨	٩٩
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٌ مِّنكُمۡ﴾الآية	النور: ١١	١٢٥
﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي ﴾الآية	الشعراء: ٢٩	٧٥
﴿ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ ﴾الآية	النمل: ٢٢	.١٧٧،١٢٦
﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ ﴾الآية	النمل: ٢٣	،١٢٦،١١١،١١٣،٨٤،٦٩،٥١ .١٧٧،١٥٢
﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ ﴾الآية	النمل: ٢٤	،١٣٣،١٢٦،١١٣،٦٩،٥١،٥٣ .١٧٧،١٥٢
﴿ أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ﴾الآية	النمل: ٢٥	.١٧٨،١٥٣،١٢٧
﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾الآية	النمل: ٢٦	.١٧٨،١٥٣،٨٤
﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ ﴾الآية	النمل: ٢٧	،١٣٣،١٣٤،١١٣،٨٧،٧٧ ،١٥٤
﴿ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا ﴾الآية	النمل: ٢٨	.١٧٨،١٥٤،١٣٣،١٣٤،٥٦
﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ﴾الآية	النمل: ٢٩	.١٧٨،١٥٥،١٢٨،١٠٣
﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ ﴾الآية	النمل: ٣٠	.١٧٨،١٥٥،١١٣
﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ ﴾الآية	النمل: ٣١	.١٧٨،١٥٥،١١٣،٩٩،١٠٠
﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي ﴾الآية	النمل: ٣٢	،١٥٥،١٥٦،١٣٠،١٠٣،٩٧
﴿ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ ﴾الآية	النمل: ٣٣	،١٣٣،١٣٤،١٣٠،٩٨،٨٧،٩٧ ،١٥٥،١٥٦
﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً ﴾الآية	النمل: ٣٤	،١٣١،١٣٠،٩٨،٨٧،٣٤ .١٨٠،١٥٥،١٥٦
﴿ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ ﴾الآية	النمل: ٣٥	.١٨٠،١٥٨،١٥٥،١٣٤،١٣٢
﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُمۡ بِجُنُودٖ ﴾الآية	النمل: ٣٧	.٩٨،٨٨،٣٣
﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا﴾الآية	النمل: ٣٨	.١١٢،٨٣،٥٧
﴿ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾الآية	النمل: ٤٠	.١٦٠،١٥٩،٣١

﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا ﴾الآية	النمل: ٤١	،١٣٣،١٣٤،٨٤،٨٣،٥٨
﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾الآية	النمل: ٤٢	،١٣٢،١٢٨،١٢٧،٨٣ .١٨٠،١٨١،١٥٨،١٥٩،١٦٠
﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾الآية	النمل: ٤٣	.١٥٨،٥٤
﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾الآية	النمل: ٤٤	١٠٢،٩٩،٨٢،٧١،٣٥،٦٣،٦٤ .١٨١،١٥٨،١٥٩،١٢٨،
﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾الآية	القصص: ٨	١١٤،٧٣
﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ ﴾الآية	القصص: ٩	،٤٧ ،١١٤،١٠١،٧٢،٤٨ .١٨٢،١٦١،١٣٤،١٣٥
﴿ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾	الصافات:١٠٢	٩٧
﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ ﴾الآية	غافر: ٢٨	٣١
﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾الآية	غافر: ٣٦	٨٢
﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾	الشورى: ٣٨	١٣٠
﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾الآية	الذاريات: ٢٤	١٤٦
﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾الآية	الذاريات: ٢٥	١٤٦
﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ ﴾الآية	الذاريات: ٢٦	١٤٦
﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾	الذاريات: ٢٧	١٤٦
﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾الآية	الذاريات: ٢٨	١٤٦
﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾الآية	التحريم: ١١	،٣٤،٤٩ ،١١٥،١٠٣،٩٩،٨٠،٨١،٥١ .١٨٢،١٦١،١٣٤،١٣٥
﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ ﴾الآية	الإنسان: ١٥	٦٥
﴿ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾	الإنسان: ١٦	٦٥

فهرس الأحاديث النبوية

الحديث	رقم الصفحة
"كمل من الرجال كثير..."	٨١
" لا يشكر الله من لا يشكر الناس "	صفحة الشكر والتقدير
" نحن الأولون السابقون بيد أنهم أوتوا الكتاب "	١٢٨
" والذي يحلف به لو أقر فرعون ..."	٤٩
" وهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله إليه "	١٢٨

فهرس الشواهد الشعرية

الشاهد الشعري	القافية	القائل	رقم الصفحة
حتى احتوى بيتك المهيمن	النطق	العباس	٨١
وقالوا نراها يا جميل تنكرت	لعلها	جميل بثينة	٥٨

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	أ- ك
التمهيد	١-٢٤
الفصل الأول : أثر السياق في اختيار المفردة القرآنية	٢٥-٨٨
المبحث الأول : المستوى الصوتي	٢٦-٣٦
المبحث الثاني : المستوى الصرفي	٣٧-٨٨
الفصل الثاني : أثر السياق في البنية التركيبية	٨٩-١٨٤
المبحث الأول : السياق وأساليب الطلب	٩١-١٠٤
المطلب الأول : الأمر والنهي	٩٢-١٠١
المطلب الثاني : النداء	١٠٢-١٠٤
المبحث الثاني : السياق واستعمال المصطلحات الثنائية	١٠٥-١٨٤
المطلب الأول : التقديم والتأخير	١٠٦-١١٦
المطلب الثاني :الذكر والحذف	١١٧-١٣٧
المطلب الثالث :الفصل والوصل	١٣٨-١٦٣
المطلب الرابع :الإيجاز والإطناب	١٦٤-١٨٤
الخاتمة	١٨٥-١٨٨
المراجع	٢٠٠-٢١٥
فهرس الشواهد القرآنية	٢١٦-٢١٩
فهرس الأحاديث النبوية	٢٢٠
فهرس الشواهد الشعرية	٢٢٠
فهرس الموضوعات	٢٢١

Abstract

Eloqueunce of Quranic Text in Talking About Royal Palaces Women

"An Analytical Study"

A study submitted for a master degree in rhetoric and criticism from Graduat Studies Department, Faculty of Arabic Language, Taibah University.

Prepared by: Ibtisam Mohammed Qasim Mohammed Mofareh.

This study deals with eloquence of Quranic text by appiying on the verses addressing royal palaces women to explore various styles describing those women, and find out about the images of forming the linguistic structure, and the very accuracy of picking up the word in this miraculous text, to discover rhetorical miracle in the Quranic story. Women in palaces, are but the women's model. This rhetoric has emerged through the use imaging. It also appeared through the combination ofvarious styles in a single story. This study adopted the contextual approach that has emerged clearly in these stories, especially the linguistic, purposeful and historical ones. It is the Quranic rhetoric that evocates and recalls the past into mind as if the listener is watching the scenes. This style is more powerful in establishing educational goals for which the story was cited.

Kingdom of Saudi Arabia

Ministry of Higher Edu.

Taiba University

College of Arts and Huomanities

Arabic Language dept.

Eloqueunce of Quranic Text in Talking About Royal Palaces Women

"An Analytical Study"

A Subbmitted Thesis for Obtaining the Master Degree in Arabice Rhetoric and Criticism

Researcher

Ibtisam Mohammed Qasim Mohammed Mofareh

Supervisor

Balgees Mohammed Eltayeb Idris

Assist. Prof. of Arabic Rhetoric &Criticism

College of Arts & Humanities

Taiba University

1437H/2015